الصفعة

obeikandl.com

© دار خـــــــان
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى ٢٠١٤
رقم الإيداع ٣٦١٨ / ٢٠١٤
ISBN: 978 - 977 - 6299 - 90 - 8
دار خـــــــان
ص.ب: ١٣٢ رمسيس-القاهرة- مصر
هاتف: ٠١٠٠٥٥٣٩٤٧٢
E-mail: Darkhan.egypt@gmail.com
Dar Khan
P.O.Box 132 Ramses-Cairo-Egypt
Tel.:01005539472

سلسلة كتب عالمية
روايـــــة من صربيا

الصفعـــــــــة

ترجمة ومراجعة / إيمان طاهر
سحر رجب / أحمد سامي

جميع الحقوق محفوظة للناشر، ويحظر نشر أو اقتباس أي جزء من هذا العمل أو كله إلا بإذن كتابي، ومن يخالف ذلك يتعرض للمساءلة القانونية.

This book is translated with a financial support of Ministry of culture and information of the Republic of Serbia.

obeikandl.com

دافيد البحاري

الصفعـــة

رواية من صربيا

دار خان
DarKhan

alqeikandl.com

obeikandl.com

والآن، وبعد ست سنوات من معرفة الحقيقة، أدركت أن الأمور ربما تكون قد سارت بشكل مختلف، ولكن آنذاك، في يوم الأحد، الثامن من مارس ١٩٩٨م، عندما بدأ كل شيء، كان من المستحيل إيجاد أي طريقة أخرى لتكشُّف الأحداث.

علاوة على ذلك، ربما لم أبذل أي جهد لتفسير شيئًا مختلفًا؛ فلقد اعتقدت أنني لم يكن لدي أي خيار، لا حيلة على الإطلاق، بل على العكس نظرت للذي لا مفر منه، والذي لم أكن أستطيع التأثير فيه حتى ولو رغبت في ذلك.

لم يعد ما كان يحدث مهمًّا الآن، سواء اخترته أم لا، أصبح مصيراً، ولن يقدر شيء على تغييره، فقد كان حالي هذا أشبه بسقوط التفاحة الحمراء الناضجة من الشجرة، والتي اختفت بين الأعشاب الكثيفة، ولكن النمل والقواقع والدبابير عثروا عليها، وفي النهاية لم يتبقَ شيء من التفاحة؛ ولكن الحال سيتبدل في الوقت المناسب، يجب أن أذكر التفاحة الآن؛ لأنني في ذلك الأحد، قبل ست سنوات، غادرتُ المنزل وأنا أحمل تفاحة.

obeikandi.com

لم تكن حمراء حقيقة ولكن صفراء، والتي كنت قد التهمتها بالكامل، بما في ذلك البذر والعنقود، ولكي أكون منصفًا لم ألتهم العنقود في الواقع؛ فقد أمسكته بين أسناني لبعض الوقت، هرسته وقضمته ببطء، حتى تفكك في النهاية.

اعتدتُ دائمًا على التنزُّه في أيام الآحاد على طول نهر «الدانوب»، أيًّا كانت أحوال الطقس؛ تحت الأمطار أو أثناء هبوب رياح "كوسوفو" العاصفة.

لم يكن هناك الكثير من الرياح، كانت السحب تتحرك في السماء، لم تتساقط الثلوج وحتى لو تساقطت فلم تكن لتوقفني، كان شعاع الشمس الخافت يسطع من آن لآخر، ثم يختفي بشكل كامل خلف السحب،

كان ذلك اليوم يومًا عاديًّا من أيام شهر مارس.

على الرغم من برودته خرجت بعد الغداء، في حوالي الثانية بعد الظهيرة.

قضمت أول قضمة من تفاحتي وأنا أعبر الميدان، واخترت الطريق المختصر بين الأبنية العالية الجديدة، وخرجتُ إلى الرصيف.

وبينما ألتهم التفاحة قاومت القشرة الصفراء المنقطة ببقع ذهبية للحظة ثم انفجرت.

تطايرت ثلاث قطرات من عصير التفاح على وجهي: واحدة على الجبهة، واثنتان على الخد الأيسر.

تحركت يدي لمسح تلك القطرات، ومن بين أصابعي التي كانت تلمس جبهتي، رأيت شابًّا وفتاة يقفان على حافة المياه.

لم يلفت انتباهي قربهما من النهر، والذي لا يمكن الوصول إليه إلا بالخوض في الوحل، أو القفز بحذر من حجر إلى آخر.

obeikandl.com

ولكن ما لفت انتباهي هو أنهما بديا غريبان عن المكان كما لو كانا ينتميان إلى عالم آخر مختلفًا عن عالم المحيطين بهما.

أيًّا كان السبب توقفتُ، جلستُ على أقرب مقعد، وتظاهرتُ بالنظر في الطريق الواقع على حدود مباني "بلغراد"؛ تظاهرتُ بالنظر في كل شيء ما عدا هذين الشخصين.

كان كل ما تبقى من التفاحة في تلك اللحظة هو العنقود.

هرسته بين أسناني، وتلذذت بمرارته، وعندئذ فقط، دون سابق إنذار، صفع الرجل المرأة.

ربما لم تكن الصفعة قوية؛ فمن حيث كنت أجلس بدَت كما لو أن مرفقه هو الذي اهتز وليس كتفه، ولكن ربما بدت الصفعة كذلك فقط من حيث كنتُ أجلس، من مسار نظرتي المنعرج.

ترنّحت المرأة، وتمايلت إلى اليمين، كما لو أنها كانت تجمع بين قوة الضربة والاندفاع إلى الأمام لتجنبها، ثم شملها الجمود، ولمست قدمها اليمنى مياه النهر.

يمكن للمرء أن يرى بوضوح: كيف تطايرت المياه على كاحلها، وكيف تشبّع حذاؤها بالبلل، وكيف غرقت ساقها في الوحل.

رفع الرجل يده كما لو كان سيصفعها مرة أخرى، ثم خفضها، وسار عائدًا إلى ضفة النهر.

التفتُ أيضًا، ولكن لم يبدُ أن أحدًا آخرًا قد لاحظ أي شيء.

سرعان ما سار الرجل على الطريق.

مرّ بالقرب مني وهو في طريقه إلى فندق "يوغوسلافيا".

تابعتُه بعيني حتى اختفى وسط الزحام.

obeikandi.com

وفي هذه الأثناء، لم تتحرك المرأة من مكانها: كانت قدمها اليمنى لا تزال في المياه، وكان جسدها ملتويًا، ويداها على صدرها.

ظننتُ أنها قد تكون في حالة من الصدمة، وأنني يجب عليّ المساعدة، وكنتُ على وشك المشي أسفل المنحدر الحاد بدلاً من المشي بعيدًا عن حافة المتنزه إلى ضفة النهر، عندما وقعت عيناي على رجل يرتدي معطف مطرٍ أسود.

كان يقف بجانب أرجوحة في ملعب، وينظر مباشرة إلى المرأة.

وإلى الآن يساورني الشك: فيمَ إذا كان هو نفس الرجل الذي اصطدمتُ به في وقت لاحق؟ لكنه كان السبب في أنني قررت عدم الذهاب إلى حافة النهر.

وبينما أقضم عنقود التفاحة المهروس ركعتُ، وتظاهرتُ بأنني أعبث بأربطة حذائي.

وعندما نظرتُ إلى أعلى مرة أخرى، وجدتُ الرجل ذا المعطف الأسود قد ذهب.

كانت المرأة قد تحركت، كانت تتمخوض في الوحل، وتطوف حول الصخور حتى بلغت الدرجات الصخرية التي تؤدي إلى المتنزه.

شقت طريقها بعناية، درجة واحدة كل مرة، كما لو كانت مترددة في الوصول إلى القمة.

كان هناك ملعب صغير بيننا، وكان به ممرات صغيرة مبهجة بالية، وأراجيح وقطار تسوقه سائقة مبتسمة.

توقّفتُ هناك للحظة؛ كانت هناك مجموعة من الآباء والأمهات يهتفون للأطفال في العربات الخضراء الصغيرة البالية، والخيول.

وفوق أكتافهم بدت المرأة لي وهي تتقدم.

obeikandi.com

كان القطار قد قام بدورة كاملة قبل أن تظهر رأسها.

صعدت بضع درجات أكثر، والتفتَت لتنظر خلفها كما لو كانت خائفة من المرتفعات، وأخيرًا خَطَت على الرصيف.

اختلست نظرة على فندق "يوغوسلافيا"، ثم نظرت في الاتجاه الآخر، نحو مطعم فينيزيا، وبمجرد أن بدأ طفل في الصراخ - حينما حملته والدته بعيدًا عن الحصان ذي اللونين الأسود والأبيض - بدأت في السير في ذلك الاتجاه.

انتظرت أن تأتي أمامي ثم تبعتُها.

لم أكن أفكر على الإطلاق؛ لم أتوقف لأتساءل: عما أفعله، لم أقل لنفسي: بأنني يجب أن أتبعها؛ بل وضعت قدمي ببساطة واحدة أمام الأخرى، وتبعتُها.

لم أعرف السبب.

انزعجتُ من الطريقة التي صُفعت بها، على الرغم من أنني لم يكن لدي أيُّ حق في ذلك.

لم أكن أعرف شيئًا عنها، أو عن الرجل الذي كانت تقف معه عند النهر، وأنه يمكن أن يكون عدد لا يُحصى من الاحتمالات قد أدى إلى تلك الصفعة، على الرغم من أي منها - في رأيي - لا يمكن أن يبررها.

سارت بشكل أسرع على الرصيف، وعندما وصلت إلى المطعم بدأت في الإسراع.

رأيتُها تختفي خلف ذلك المبنى الذي يحتوي على مكتب رئيس الميناء، ومن ثم بدأتُ في الإسراع، ولكن على طول الجانب الآخر من المبنى، وأنا على يقين بأنني سأختصر المسافة بيننا.

ومع ذلك، عندما وصلتُ إلى أبعد زاوية من المبنى لم أعد قادرًا

على رؤيتها.

خطوت للأمام مرة أخرى، ونظرت إلى المعرض الذي حل محل مكتب رئيس الميناء، ونظرت عبر القوارب.

لقد اختفت.

عدتُ إلى المطعم؛ فربما ذهبت إلى مكان قريب منه؛ فقد كنت أدور حول المبنى، وأتفحص المعرض.

كنتُ غاضبًا من نفسي بسبب هذا الخطأ، على الرغم من إصراري في الوقت نفسه على أنني لا ينبغي أن أهتم بها بشكل أو آخر.

لم يكن ما حدث ذا أهمية كبيرة؛ فقد كانت مجرد صفعة، جوارب مبللة، صمت، مطاردة.

بصفة عامة، كانت تلك تفاصيل تافهة، من وجهة نظري، وتوقفت عن فعل ذلك.

بعد ظهر اليوم التالي، كنتُ في الساعة الثانية عند زاوية مكتب رئيس الميناء، على استعداد للبحث في الشوارع التي يمكن أن تكون قد مرت من خلالها، وذلك بعد أن أقنعت نفسي أنها قد رأتني خلال متابعتي لها، وأنها لم تكن تسرع خوفًا من الصفعة، ولكن منِّي، وأنني يجب أن أجدها وأفسر دوري، والذي لم يكن دورًا بقدر ما هو موقف عفوي.

وبالطبع، لم أصادفها في أي مكان.

نظرت في مدخلين أو ثلاثة، وغامرتُ بالدخول إلى ساحة، وتوقفتُ عند نافذة مفتوحة، وتأملتُ بعض الواجهات المتداعية، كل ذلك لا معنى له، أعلم، لكنني لم أستطع منع نفسي.

لقد نمتُ بالكاد في الليلة السابقة.

استلقيتُ في الفراش أنظر إلى السقف، وفي كل مرة كنتُ أغمض فيها عيني، كنتُ أرى يد الرجل وهي تصفع وجه المرأة.

غلبني النوم مباشرة قبل الفجر، وعندما استيقظتُ كنتُ مرهقًا بدرجة أكبر من تلك التي كنتُ عليها حينما ذهبت إلى الفراش.

شربت قهوتي، وتناولتُ قطعة من الخبز عليها مربى المشمش.

شعرتُ بأن يدي ثقيلة، وفخذيَّ مرتعشان؛ كانت هناك أصوات مختلفة في رأسي، وكان واضحًا أنني لن أنتهي من أي كتابات في ذلك اليوم.

اتصلتُ برئيس التحرير، وأخبرته بأنه لا داعي للقلق، وأنه سيحصل على مقالي الخاص بالعدد القادم في موعده.

"حسنًا"، قالها رئيس التحرير، وأغلق الخط.

ظللتُ في شقتي حتى موعد الغداء، ثم خرجت إلى الرصيف.

ومن حيث كنتُ واقفًا في الليلة السابقة، لم يكن هناك شيء يمكن رؤيته على طول ضفة النهر، على الأقل حيث كانت المرأة والرجل.

اتجهتُ إلى الدرجات التي صعدتها المرأة، ولكن لم أجد هناك شيئا أيضًا.

ربما تكون عدة قطع من الطين المجفف قد سقطت من حذائها، وكذلك ورقة شجر مجعدة كانت تستقر على أعلى درجة، ومع ذلك، فإن الطين وورقة الشجر لا يمكنهما أن يخبراني شيئًا لا أعرفه بالفعل.

سرتُ عبر الرصيف، على طول الطريق وصولاً إلى "فينيزيا"، ثم عدتُ إلى مكتب رئيس الميناء.

إذا كانت قد رأتني، أو إذا كانت قد اكتشفت بطريقة ما أنني كنتُ أتبعها، فأين؟ لم أقترب أبدًا منها، وعلى أي حال كان هناك الكثير

من الناس يسيرون على طول الرصيف، والكثير يسيرون في نفس الاتجاه مثلنا.

لِمَ ستعتقد أنني من بين جميع الناس أتبعها؟ ثم تذكرتُ الرجل ذا المعطف الأسود.

ربما يكون هو من لفت انتباهها إليّ؟ هُراء، هكذا اعتقدتُ، ولكن كلّما حاولتُ نسيان الرجل فكرتُ فيه أكثر.

وفي وقت لاحق، بينما أسير في الشوارع ربما تكون قد أخفت نفسها مني، كان الرجل ذو المعطف الأسود، إذا جاز التعبير، هناك معي.

سرتُ عبر شوارع "جوسبودسكا"، و"زماج جوفينا"، و"كاراماتينا"، والشوارع التي تقاطعها.

كان الشارع الوحيد الذي لم أبحث فيه هو الشارع الذي يقع موازيًا للمتنزه، نحو مقهى "المجذاف الذهبي".

حينها فقط، وأنا ألتفت، لاحظتُ زرًّا على الرصيف في زاوية شارع "زماج جوفينا".

كان أسود لامعًا، من نوعية أزرار معاطف الشتاء، ولا تزال هناك خيوط في العراوي.

كان الزر مستقرًّا عند فجوة تمتد عبر الأسفلت كالجذر.

كان كل من المرأة والرجل يرتديان معطفًا لونه أزرق بحري داكن أو أسود؛ إنني واثق من ذلك، لكنني كنتُ على يقين - أيضًا - من أن المعطفين بهما سوستة، وليس أزرارًا.

ولكن كان الزر على الرصيف كبيرًا للغاية بالنسبة لمعطف، لذا لا يمكن أن يكون زر معطف شتوي.

انطلقت نحو مقهى "المجذاف الذهبي"، وبعد صعود بضعة

درجات، توقفتُ والتفت حولي.

كان الزر لا يزال هناك، في نفس المكان بالضبط.

عدتُ والتقطته، ثم لاحظتُ لافتة صغيرة تحته، والتي ربما تكون قد كُتبت بقلم ذي رأس لبادي: كان مرسومًا عليها مثلث منقوش في دائرة، وبداخله مثلث آخر يشير إلى الاتجاه الآخر.

وضعت الزر على الأرض، ونهضت أعترف بأن الحيرة قد انتابتني.

ربما كان علامة، بل ربما يكون له صلة بالمرأة، ولكن الجزء الشائك هو: إن المثلث يشير إلى ثلاثة اتجاهات مختلفة في نفس الوقت؛ إلى شارع "زماج جوفينا"، وإلى مكتب رئيس الميناء، وإلى الشارع الذي يقود إلى مقهى "المجذاف الذهبي".

المقهى، في الواقع، لا يعني نهاية تحركات المرأة الممكنة، حتى ولو كانت قد ذهبت في هذا الطريق؛ حيث إن الشارع مستمر، مرورًا بمحطة توليد الكهرباء وصولاً إلى المبنى السكني الذي تم بناؤه حديثًا.

فأفضل دواء لنوع الحرج الذي يجب أن تكون قد شعرت به يكمن في العزلة، وإذا كانت تسكن هناك فيجب أن تكون قد أسرعت مباشرة عبر الشارع إلى داخل المبنى.

من الممكن بالطبع أن تكون قد التفتت إلى اليمين عند مقهى "المجذاف الذهبي"، وسارت إلى الميدان الواقع في الطريق حتى السوق المفتوح ومركز "ريمون" المدني، ولكن ذلك صدمني؛ فهو يجعل طريقها طويلاً بلا داعٍ؛ نظرًا لأنها ستصل إلى وسط المدينة بسهولة وسرعة أكثر إذا سارت عبر الشوارع التي تنتشر من عند مكتب رئيس الميناء.

ومع ذلك، لم يكن هناك أحد في مقهى "المجذاف الذهبي".

كان الباب مغلقًا، والنوافذ مغطاة بالستائر، والمدخل تتناثر عليه القمامة.

فكرتُ لوهلة في التقاط كل قطعة من القمامة لمعرفة ما إذا كانت هناك علامة أخرى أسفلها، لكنني سرعان ما تخليت عن هذه الفكرة، واتخذتُ طريق العودة إلى المنزل.

فاليوم شارف على الانتهاء، ولا زلتُ بحاجة للعمل في المقال الذي وعدتُ به رئيس التحرير.

خلال هذه الأشهر القليلة الماضية كنت أكتب مقالات قصيرة، وتعليقات على الصحيفة الأسبوعية: "الدقيقة"، والتي تشكّل، بالإضافة إلى الترجمة الأدبية في بعض الأحيان، المصدر الرئيسي لدخلي.

أثارت عدة مقالات لي استجابة من القراء، وهو ما دفع رئيس التحرير ليعطيني علاوة، وخصوصًا عندما امتد الجدل حول مقالي عن سرقة المتاحف الوطنية إلى بقية الصحف، بل وحتى إلى شاشات التليفزيون.

وينبغي أن أضيف أن معظم ما كتبت لم يحدث صدًى بهذه الحدة، وأن ذلك المقال الذي جعلني مشهورًا ،إذا جاز التعبير، قد تولّد مع صديق جيد لي، والذي كان يعمل في إحدى المعارض المسروقة؛ فاللصوص، كما أسميهم، لم يكونوا مجرمين في توظيف مُحب إثريا من محبي الفن أو السوق السوداء، ولكن شخصيات عامة ممن استخدموا علاقاتهم لاستعارة لوحات وتحف فنية، ثم لم يلقوا ببساطة بالاً لإعادتها.

حددت عددًا قليلاً من الأسماء؛ كبعض الممثلين، ومديري شركات كبيرة، وأعضاء أكاديمية الفنون والعلوم، وسياسيين وبيروقراطيين، ويبدو أن هذا الأمر قد لفت الانتباه إلى عمودي الصحفي، والذي لم يهتم أحد بقراءته من قبل ممن يهتمون بكتاباتي المسهبة الغاضبة عن الإهمال البيئي، وقلة الاستثمارات الثقافية، وقدرة المحلفين التلقائية على التنبؤ بِمِنح الجوائز الأدبية المرموقة؛ فقائمة الأشخاص المستعدين لمساعدة أنفسهم في أشياء تنتمي إلى آخرين، أشياء - كما أشرت -

تنتمي إلينا جميعًا، لها جاذبية أكبر بكثير.

كنتُ سعيدًا لأن رئيس التحرير رفع راتبي، رغم أنني لم أكن قد ألَّفت قصة أخرى على طول تلك السلسلة منذ ذلك الحين.

ومع ذلك لا يزال الالتزام بكتابة المقالات قائمًا، ومثل جميع الالتزامات، أصبح شاقًّا على نحو متزايد؛ فقد كنتُ أستغرق خمس عشرة دقيقة لكتابة مقال، والآن أكدح ساعة في كتابة الفقرة الافتتاحية، أقضي معظم الوقت في النظر في شاشة حاسوبي المرتعشة الفارغة بائسًا؛ لأنني مجبر على كتابته بأي حال من الأحوال.

أنتزع الجمل من نفسي كما لو كنت أقتلع أضراسًا، ثم أستشيط غضبًا؛ لأنني لا أستطيع ربطها ببعضها البعض؛ فلا يبدو المقال مترابطًا، بل يبدو كسلسلة من المواقف المتنافرة المختلفة التي غالبًا ما تناقض نفسها.

ومع ذلك، في ذلك المساء، كتبتُ مقالاً دون توقف.

جلستُ وأدرت جهاز الكمبيوتر، ونقرتُ نقرة مزدوجة على برنامج معالجة الكلمات، وبدأت في الكتابة.

في البداية، لم أحدد ما سأكتب عنه، ولكن بعد ذلك خطرت لي فكرة الكتابة عن الطين، ثم النهر وضفة النهر، والجسور، والرصيف؛ وفي الختام انتقدتُ طريقة تفكيري: نفورنا التقليدي من المياه، والسلطات المحلية التي لم تحتضن حقيقة أن نهر "الدانوب" وأنهار "سافا" هي أساس تعريف مدينتنا.

ليست حجة أصلي على وجه الخصوص، ولكن كانت هناك عاطفة معينة نحو نغمة وإيقاع الجمل، وهو ما أعطاني ارتياح خاص.

وعلاوة على ذلك، فكتابتي لهذا المقال بنفس السرعة التي كتبت بها المقالات السابقة كانت مصدرًا للسعادة بالنسبة لي.

obeikandi.com

فكرتُ في لف سيجارة، ولكن الوقت كان لا يزال مبكرًا بالنسبة للحشيش؛ لذا ذهبتُ إلى المطبخ، وسكبتُ لنفسي قليلاً من البراندي.

كان الظلام قد حل بالخارج، وكان ضوء مصابيح الشوارع ساطعًا عبر الشارع، معكوسًا على إشارات المرور، منيرًا للممرات والمداخل المظلمة.

أعليَّ أن أعود إلى مكتب رئيس الميناء؟ أحيانًا يرى المرء الأشياء في الظلام بشكل أفضل من ضوء النهار.

التقطتُ ورقة، وبوصلة قديمة، ومسطرة من البلاستيك، وبدأتُ في رسم العلامة التي عثرتُ عليها تحت الزر.

استخدمتُ البوصلة لرسم الدائرة، ثم رسمتُ ست نقاط متساوية البُعد على طول محيط الدائرة، وأوصلتُ كافة النقاط الأخرى، وهو ما أعطاني مثلثًا متساوي الأضلاع.

قمتُ بقياس أضلاعه، ووضعتُ علامة على منتصف كل ضلع، وعندما أوصلت تلك النقاط ببعضها البعض حصلتُ على مثلث جديد، والذي كان في مقابل الاتجاه المعاكس، بحيث إن رأسه تتقاطع مع قاعدة المثلث الأول.

نظرت في الشكل الهندسي، وارتشفتُ البراندي، وهززتُ رأسي.

لم أفهم المعنى المراد من ذلك الرسم.

وإلى جانب ذلك، لمَ ينتهي ذلك هنا؟ كان لا يزال هناك مثلث صغير جديد يمكن إدراجه بداخل المثلث الداخلي، أو بداخل دائرة أخرى، وتلك الإضافات يمكن، نظريًّا على الأقل، أن تستمر إلى الأبد، ولن يتغير شيء، وكنتُ على يقين من ذلك.

أينبغي عليّ - وهو ما يساورني الشك فيه - أن أكون أكثر ارتيابًا؟ نظرتُ مرة أخرى إلى الشكل الهندسي المرسوم على قطعة الورق.

وعند وضع المثلث الأصغر داخل نظيره الأكبر أكون قد خلقت بالفعل أربعة مثلثات صغيرة متساوية الحجم، وعندما رسمت المثلث الأكبر داخل الدائرة في وقت سابق كنتُ قد رسمتُ بذلك ثلاث قطع تحمل شكل شرائح التفاح.

كان فهمي للرياضيات دائمًا ضعيفًا، ولكن هل يمكن أن يتضمن هذا المزيج من الأشكال الهندسية ومساحاتها أو النسب المتناسبة معنًى مستترًا؟ كلّما فكرتُ مليًّا في هذا صرتُ أكثر اقتناعًا بأن تفسير أحداث الرصيف، واختفاء المرأة يكمن في هذه العلاقات الرياضية، وأنني إذا استطعت فك شفرتها فإنها ستقودني مباشرة إلى باب منزلها.

تذكرتُ أن دراجان ميتشوفيتش، الذي كان يمارس الألعاب الرياضية معي، استمر في دراسة الرياضيات؛ فهو يعمل في معهد علمي، كما سمعتُ في تجمُّع الخريجين الأخير.

لم يأتِ دراجان إلى الحفل بنفسه، كما لم يأتِ إلى أي من التجمّعات السابقة، والمرأة التي ذكرته قالت: إن أحدًا لم يره، وإنه على ما يبدو يعيش في عزلة كناسك.

في الشتاء والربيع، يرتدي نفس المعطف ونفس الحذاء، رغم أن قميصه كان دائمًا نظيفًا ومكويًّا، وأزراره المعدنية ذات بريق ساطع.

وواصلت المرأة كلامها قائلة: إنه إذا جاء أي شخص إليه فلا يمكن أن يتيقن أبدًا مما إذا كان دراجان سيستجيب أم فقط سينظر إليه في صمت؟ بغض النظر عن طول المدة التي كانا يعرفان فيها بعضهما البعض.

في بعض الأحيان، فجأة، يبدأ دراجان بالصراخ في وجه من يتحدث معه أيّا كان ذلك الشخص، ويُهينه، ويهدده بمقاضاته، أو استدعاء الشرطة، وبعد ذلك ببضعة دقائق فقط يبتسم، ويعطيه النعناع الذي كان يحمله دائمًا في جيبه.

فهمتُ شغفه بالنعناع؛ لأنني تقاسمته معه، أتذكر أنني قلت ذلك آنذاك، ولكن بالنسبة لبقية المحادثة، كان كل ما استطعت فعله هو النقر بإصبع السبابة على صدغي، وهز رأسي بأسف.

وهذا ما فعلته بالضبط، وانفجرت بالضحك الذي أنهى الحديث عن زميل دراستنا القديم.

كنتُ أعرف المرأة التي كانت تتحدث عنه معرفة سطحية؛ بحثتُ عن رقم هاتفها، وأجريت معها مكالمة.

كانت كثافة الظلام قد ازدادت بالخارج، والليل قد حل.

رن الهاتف مرة واحدةً.

في البداية قالت: إنها لا تعرفني، ثم ادعت أنها لم تقل شيئًا أبدًا عن دراجان ميتشوفيتش، وعندما تذكرت ما قالته قالت: إنها لا تعرف أين يسكن، وعندما أدركت أنني لا أنوي إنهاء المكالمة اقترحت عليّ إلقاء نظرة على قوائم المستأجرين في ناطحات السحاب في "بلغراد" الجديدة، والتي تقع بالقرب من النفق.

قالت: إنها كانت تلقاه صدفة من آن لآخر، وعندما انتقلت إلى "بانوفو بردو" منذ بضعة أشهر لم تلقه.

ظننت أن هذا لا يبشر بالخير.

بحثتُ عن الشخص الذي كان من المفترض أن يساعدني للعثور على شخص آخر، وبعد ذلك تبين، بمعنى مجازي، أنني أبحث عن ذلك الشخص أيضًا.

أي نوع من العالم هذا الذي يضيع فيه الكثير من الناس؟ وإذا فُقدوا جميعًا فما الذي يضمن لي أنني نفسي لم أضيع منذ فترة طويلة؟ إذا كنتُ قد شربتُ السيجارة - التي كنتُ أفكر فيها - سأفهم الأسئلة التي تهاجمني بعنف، ولكن بعد قليل من البراندي كان الشيء الوحيد

obeikandl.com

الذي شعرتُ به هو: صداع برأسي.

خلعتُ ملابسي، واستلقيت.

وبشكل مثير للدهشة، غلبني النوم على الفور، ولم أفتح عيني حتى التاسعة من صباح اليوم التالي.

كانت الشمس مشرقة، والغيوم تتحرك بسرعة عبر السماء، كما لو كانت تسابق بعضها البعض.

نهضتُ وبحثتُ عن المقال الذي كتبته بالأمس.

وعندما كان هو أول ما أقرأه في الصباح، عندما كان ذهني خاليًا من الضغوط، فارغًا ككاهن زن، كان ذلك هو أفضل وسيلة بالنسبة لي لقياس: ما إذا كنتُ قد كتبتُ مقالاً لائقًا بالأمس أم أنه غير لائق؟

قرأتُ في نهاية النص: "إن الخوف من المياه هو بداية كافة مخاوفنا الأخرى، ومصدر الانزعاج العام، وحتى نتعلم كيفية السيطرة على هذا الخوف سنضطر، مثل "سيسفوس"، الحفاظ على العودة إلى البداية".

وبصفة خاصة، لم يكن هذا في الأصل بصيرة، كما قلتُ من قبل، ولكن المقال يثير الانفعالات؛ فعندما قرأتُه بصوت عالٍ لكي أشعر بإيقاعه ارتعد صوتي، وتفتتت بعض الجمل، وتكسرت.

لم أكن أعرف: لماذا أنسب تلك الحساسية إلى ذلك الصباح؟

ومع ذلك، إذا كان هناك شخص ما لا يحب النهر فهذه ليست نهاية العالم.

فوجئت بعد ذلك أنه عند الكتابة عن ضفة النهر الموحلة كنتُ أكتبُ في الواقع عن: الرجل والمرأة، وحول يده التي ترتفع ببطء، ثم تتأرجح إلى أسفل بسرعة لتستقر على خدها، كنت أكتب عن: إنها عندما كانت تصعد الدرج كانت كغواص يصعد من أسفل النهر وهو

متشوق للوصول إلى السطح.

كانت قطعة الورق التي تحتوي على الشكل الهندسي تستقر على الطاولة.

لم يتغير شيء؛ فالدائرة ما تزال تحرس المثلثات؛ المثلثات ما تزال صامتة؛ شرائح التفاح تحفظ توازنها على الأضلاع المنزلقة؛ القمم تشير إلى اتجاهات مختلفة.

لو كنت بأي حال من الأحوال منطقيًّا لكنتُ سحقتُ تلك القطعة الورقية، وألقيت بها في سلة المهملات.

ولكن على العكس، ارتديتُ ملابسي، وقررتُ الذهاب للبحث عن صديقي في المدرسة الثانوية بين ناطحات السحاب في محيط "بلغراد" الجديدة، لكنني اضطررت أولاً للذهاب إلى مكتب تحرير "الدقيقة"؛ لتسليم مقالتي، والتي تعني الذهاب إلى الاتجاه الآخر؛ حيث إن مكتب "الدقيقة" كان في مركز "بلغراد"، ولكن لم أرَ خطأً في ذلك؛ ففي واقع الأمر، بدا الأمر كما لو كان متوافقًا مع الذي تقترحه المثلثات.

"يجب أن تكون مجنونًا"، قلتها لنفسي في المرآة عندما كنتُ أحلق ذقني، وإلا لِمَ تؤمن بشيء لا معنى له؟ لأنه لا وجود لشيء بلا معنى.

علا صوتي بها عندما كنت أحلق، وفاق صوتي صوت ماكينة الحلاقة الكهربائية، ولأن كل شيء حولنا يخبرنا بشيء ما؛ فالمسألة هي مجرد أننا لسنا مهرة بدرجة كافية لكي نسمع ونفهم.

الوجه في المرآة يهز رأسه ولكن لم يقل شيئًا، مسحتُ وجهي بالغسول، ومشطتُ شعري، ولعقتُ شفتي.

التقطتُ المظروف وبداخله المقال، وأغلقت الباب خلفي، وأدخلت مفاتيحي في جيبي، وانطلقتُ أسفل الدرج.

وفي الحافلة المزدحمة تذكرتُ أنني لم أعطِ عنوانًا لمقالتي، ولكن

obeikandi.com

حيث إنني مزحوم من جميع الجهات، ومُحاطًا بروائح كريهة ورائحة العرق، لم يمكنني الوصول إلى عنوان.

"الخوف من الماء" قالها رئيس التحرير بعدما قرأ المقال، ليس هناك عنوان أفضل منه.

ولكني، بشكل شخصي، لم أفضل ذلك العنوان، ولكني لم أتكلم.

قال رئيس التحرير: إنني أستعيد مستواي، وطلب مني الحفاظ على ذلك؛ (فالريش سوف يكون متطايرًا).

لم يكن لدي أي فكرة عمّا كان يعنيه، وكنتُ آمل أنه لا ينتظر مني الكتابة عن مزرعة للدجاج.

فالواقع المحبط بالتأكيد الذي كُنا نعيش فيه لم يعطني مساحة للمناورة، واليوم النهر وطينه، وغدًا الدجاج وغائط الدجاج الزليج، وبعد غد من يدري؟ ولكن طالما كان من الممكن أن أكتب عن شيء، وطالما "الدقيقة" على استعداد لطباعة ما أكتبه، لا يمكن أن يكون هناك أي تخلٍّ أو شكوى.

تركتُ رئيس التحرير، وتوجهتُ إلى مكتب الحسابات، كانت ميريانا في قسم المدفوعات تنتظرني ومعها النقود.

وقعتُ للحصول على المال، وقبّلتُها على خديها مما أثار قهقهة زملائها في المكتب، وأسرعت إلى موقف حافلات "زيليني فيناك"، والحافلات التي تذهب إلى "بلغراد" الجديدة.

لم يعد خط السكك الحديدية يذهب من "زيمون" إلى "بلغراد" الجديدة، لكنني كنتُ أعرف أي ناطحات السحاب تلك التي تقصدها المرأة التي كانت تلتقي بدراجان ميتشوفيتش من آن لآخر.

وفي الدقيقة التي وصلت فيها إلى المبنى صادفتني مشكلة؛ كان نور الدرج مُطفئًا، وقائمة المستأجرين معلقة عاليًا على الحائط فوق

صناديق البريد، والتي يضيؤها ضوء ضعيف شاحب من خلال الباب الزجاجي الأمامي ، وبالتالي تستحيل قراءتها.

كان عليّ الذهاب إلى أقرب كشك لبيع الصحف لشراء علبة كبريت، وبعد ذلك، ومع إشعال عود تلو الآخر، تفحصتُ قائمة الأسماء المكتوبة بخط اليد، لم يكن بها من يُسمى ميتشوفيتش.

وفي ناطحة السحاب التالية كان الضوء جيدًا، ولكن لم يكن هناك قائمة للمستأجرين.

كان عليّ الصعود حتى الطابق الأخير، الطابق السادس عشر، وذلك لو كنتُ أحصيتهم بشكل صحيح، وقرأتُ الأسماء على كل الأبواب.

لم تكن بعض الأبواب في الطابق الثالث والخامس والحادي عشر تحمل لافتة؛ لذا اضطررتُ إلى دق جرس الباب، والسؤال: عما إذا كان السيد ميتشوفيتش يسكن هناك؟

لم يكن يسكن خلف أي من تلك الأبواب، كما لم يكن يسكن في شقة مؤقتة في أعلى المبنى، والمهيئة للسكن الجماعي.

كانت هناك عائلة تحمل اسم ميتشوفيتش في ناطحة السحاب الثالثة، ولكن لا يوجد اسم دراجان بين أفرادها.

دققتُ جرس الباب، فقط على سبيل المحاولة، قام صبي في حوالي العاشرة من عمره بفتح الباب، وعندما سمع سؤالي، ذهب لسؤال والدته، ثم عاد وأخبرني أن الجد دراجوسلاف كان بعيدًا في "مونتنيجرو"، قلت: مستحيل، ولكن الصبي كان قد أغلق الباب بالفعل.

كان لا يزال هناك بناية واحدة تتفق مع الوصف غير الدقيق الذي أُعطي لي، ولكن بعد احتمال انتقال دراجان ميتشوفيتش إلى "مونتنيجرو"، وذلك إذا كان فعلاً الجد الذي أشار الطفل إليه، تساءلتُ: عمّا إذا كان هناك معنى للذهاب إلى المبنى الثالث أم لا؟

obeikandi.com

وعلى الرغم من ذلك ذهبتُ، مدفوعًا بالرغبة في أن أكون مُنظمًا في كل ما فعلته، وهو ما يدفعني إلى تنظيم الكتب على رفوفي بترتيب أبجدي، علاوة على تنظيم الأكياس البلاستيكية، والعلب، والآنية الزجاجية وفقًا للحجم.

لم تكن أي من المداخل الأخرى نظيفة، ولكن هذا المدخل الأخير كان قذرًا ومثيرًا للاشمئزاز؛ فأكوام القمامة تفترش الأرض، وكانت الصحف القديمة مكدسة في الزاوية، وأعقاب السجائر مبعثرة في كل مكان.

كانت رائحة البول تعلو كل ذلك كما لو كانت ستارة سميكة.

وعلى الرغم حالة المدخل، كانت هناك قائمة على الجدار تتضمن أسماء من يعيشون هناك، وبينما أجاهد لأحبس أنفاسي وجدتُ الاسم الذي كنتُ أبحث عنه.

كان دراجان ميتشوفيتش يسكن في الطابق الثامن، في الشقة رقم ٤٢.

ضغطتُ على زر استدعاء المصعد، ولكنه لم يأتِ حتى بعد مرور عدة دقائق؛ فبدأت في صعود الدرج.

وعندما وصلت إلى الطابق السادس، سمعتُ قعقعة باب المصعد المعدني وهو يصفق في مكان ما فوقي بمقدار طابق أو طابقين، والتقطت عيناي كبينة المصعد المضاءة وهي تندفع نحو الطابق الأرضي.

وللحظة، من خلال الزجاج الشفاف، رأيتُ خيالاً مظلمًا، ينتابني الشك فيم إذا كان الشخص امرأة أو رجلاً؟ لكنني كنتُ واثقًا من ارتدائه أو ارتدائها لقبعة.

لم يخطر لي حتى وصلت إلى باب الشقة رقم ٤٢، أن الشخص الموجود بالمصعد ربما يكون دراجان ميتشوفيتش.

إذا كان يرتدى نفس المعطف الذي يرتديه في الشتاء والصيف، لماذا لا يرتدي قبعة في ذلك اليوم المعتدل من شهر مارس؟

وبالطبع، كان الأوان قد فات بالنسبة لي كي أسابق المصعد نزولاً، رغم أنني استدعيته، وتحققتُ من أنه كان بوسعي استنشاق نشقة من النعناع.

ضغطتُ على جرس الباب، الذي أعلن: دينج دونج، ضغطتُ مرة أخرى، وانتظرتُه لفترة أطول قليلاً، رغم معرفتي أنني أنتظر عبثًا، وبعد ذلك وببطء، توجهتُ إلى الطابق السفلي وأنا أقبض على الدرابزين.

وفي منتصف طريق النزول تقريبًا، في الطابق الرابع أو الثالث، مرّ المصعد من أمامي صاعدًا لأعلى، كان مُظلمًا وفارغًا، قلتُ للمرأة التي كانت تصادف دراجان ميتشوفيتش من آن لآخر: "هكذا استمرت حياته"؛ فحينما يكون البعض في طريقهم إلى أسفل، يكون البعض الآخر في طريقهم لأعلى.

كنتُ أفكر في المرأة التي تتسلق الضفة الموحلة بمشقة؛ كي تصل إلى المتنزه المرصوف، ولكن هذا لم أجهر به.

قالت المرأة: إن هناك بعض الأشياء التي يمكن أن نعتمد عليها دائمًا، وأضافت: إنها كانت مستمتعة بصفة خاصة بسماع ذلك؛ نظرًا لأنها منذ أن انتقلت إلى "بانوفو بردو" لم يتغير شيء في المنطقة المجاورة للنفق السابق.

والآن، على الأقل، تعرف أنها يمكنها العودة إلى هناك في أي وقت إذا اتضح أنها لم تحب الحياة في "بردو"، وذلك إن لم يكن هناك أسوأ من الخروج إلى مكان ما.

وبعد ذلك، وبمجرد أن تتخذ قرار العودة، لأي سبب كان، تجد أن المكان الذي تركته لم يعد نفس المكان الذي، من الناحية الرمزية، أخذته معك.

obeikandl.com

سألتُها: هل دراجان ميتشوفيتش يرتدي قبعة؟ وإذا كان يفعل ذلك، ما هو نوع القبعة بالضبط؟ لم تقل شيئًا.

قلتُ: مرحبًا.

أجابت: كلا.

لا تذكر قبعة، على الرغم من أنها ربما تكون، إلى حد بعيد مخطئة، وربما ألهاها معطفه لدرجة منعتها من تسجيل تفاصيل أخرى.

قلتُ: ولكنك يجب أن تكوني قد رأيت القبعة، إلا إذا كانت طاقية الإخفاء، وفي هذه الحالة يكون الشخص بأكمله غير مرئيٍّ، ويكون معطفًا سائرًا بمفرده.

قالت: ولكن هكذا بدا الأمر بالفعل؛ فالمعطف كان كبيرًا للغاية لدرجة أنه يكاد يصل إلى الأرض، وعندما رفع دراجان الياقة، وأدخل ذراعيه إلى الأكمام، بدا حقًّا كما لو كان المعطف يسير بمفرده.

وأضافت المرأة: إنه ينبغي للمرء أن يضع في اعتباره أن "زيمون" مكان رطب، وأن الضباب الكثيف لا يوجد بكثرة.

وإذا كان دراجان ميتشوفيتش حساسًا للبرد، وهو ما تعتقده، رغم أنها لم تذكر السبب، فسيلملم نفسه في المعطف، كما تفعل السلحفاة في ترسها.

وقالت: إنها تذكر كيف كان دراجان يقوم دائمًا بغلق النوافذ في فصلنا، حتى بعد أن يفتحها المعلم.

وتابعت قائلة: إنه بمجرد أن يلتفت المعلم، كان يتسلل إلى النافذة ويغلقها، وهو ما يجعلنا بالطبع نضحك جميعًا بشدة.

لا أذكر ذلك، سواء الجزء الخاص بالنوافذ أو الجزء الخاص بالضحك، ولكنني تساهلتُ في ذلك، تمامًا مثل جهلي بسبب تذكري لهذا الشخص

مرة أخرى، وأخبرتُها بالسبب الذي تبينته في النهاية بشأن بحثي عن زميل دراستنا.

تخميني هو: إنني ببساطة أردتُ أن أتحدث إلى شخص ما، ولم يتبادر أحد إلى ذهني غيره.

شددتْ عليّ أنه لو حدث وصادفتُ دراجان ميتشوفيتش مرة أخرى فيجب عليّ أن أرسل له تحياتها، رغم أنه قد لا يتذكرها.

أجبتُ: بالتأكيد.

ثم كتبت خطابًا طلبتُ فيه من دراجان ميتشوفيتش أن يلقي نظرة على الرسم الهندسي المرفق، ويخبرني إذا كان هناك شيء مستتر في ذلك الشكل المنظم الذي يحتوي دائرة، ومثلثات، وأشكال تبدو كشرائح التفاح.

دققت جرس بابه في التاسعة من صباح اليوم التالي، ولم يأتني رد.

ألصقتُ أذني بالباب، واستمعتُ.

لم أستطع أن أسمع شيئًا.

ضغطت مرة أخرى، وركعتُ، وحاولت إدخال خطابي من تحت الباب.

لم أستطع.

اضطررتُ إلى إلقائه في صندوق بريده في الطابق الأسفل، في المدخل، رغم أنني أردتُ تجنُّب فعل ذلك؛ ليس فقط بسبب رائحة البول القذرة والمثيرة للاشمئزاز؛ ولكن أيضًا لأنني كنتُ خائفًا أن يأخذه شخص ما من صندوقه نصف المحطم، وأن يصبح الخطاب في متناول يد شخص آخر غير الشخص المراد وصول الخطاب إليه.

عندما لا يكون أمامنا اختيار آخر، قلتُ بشكل عابر إلى الطفل

الصغير الذي كان ينادي والدته بصوت حادٍّ: إن الخيار الذي لدينا هو خيار جيد.

صمت الصبي لوهلة، ثم أخرج لسانه في وجهي، وغادر المبنى مُسرعًا.

كان لسانه أزرق اللون، كما لو كان يمص حلوى زرقاء صلبة.

مشيتُ بين عدة مبان، وخرجتُ إلى شارع "رادويا داكيتشا"، والذي قادني في النهاية إلى حديقة "زيمون"، ومن هناك، بالسير بجوار المدرسة الثانوية، ومركز القوات الجوية إلى الشارع الرئيسي قررتُ العودة عبر الشوارع التي سرتُ خلالها في اليوم السابق.

خرجتُ من الشارع الرئيسي إلى "كاراماتينا".

وكما كان الحال سابقًا، لم يكن لدي أي فكرة عمّا كنتُ أبحث عنه، غير عابئٍ بالشكل الهندسي الموجود تحت الزر.

بحثتُ في كل مكان؛ تفحصتُ الجدران، والستائر، والمصاريع، والأبواب الخشبية والزجاجية، وأزحتُ جانبًا بحرص ورقة من أوراق الصحف المنكمشة، أو لفَّات السجائر على الرصيف.

وعندما وصلتُ إلى رصيف الميناء اتجهتُ يمينًا إلى "زماي جوفينا".

وفي الزاوية، حيث وجدتُ وتركتُ الزر الأسود لم أرَ شيئًا، ولا حتى عندما ركعتُ على مقربة من الرصيف.

سرتُ في الشارع، وسرعان ما أمكنني سماع أصوات السوق.

كان هناك المزيد من القمامة على طول هذا الشارع؛ لذا تحركتُ ببطء وأنا أنظر حولي بعناية، ومع ذلك اكتشفتُ بالصدفة أثرًا جديدًا؛ فبينما كنتُ أنظر ورأسي محنيٌّ بين أعقاب السجائر اصطدمتُ بامرأة كان معها حقيبة التسوق الخاصة بها

opeikandl.com

والمليئة بالخضروات والفاكهة والتي سقطت منها عندما اصطدمت بها.

تناثرت البطاطس والموز على الرصيف.

انحنيت لالتقاطهم، وعلى درجة مؤدية إلى مبنى أصفر اللون رأيتُ علامة مألوفة.

سلمتُ المرأة حقيبتها، واعتذرتُ مرة أخرى، وعندما سارت أسفل الشارع انحنيتُ على الدرج.

لا يمكن أن يكون هناك أي شك.

لقد كان نفس التركيب ذو الدائرة والمثلثات.

كان الرمز مرسومًا على أول ثلاث درجات، والتي تقود إلى باب مزدوج طويل.

أدرتُ مقبض الباب، كان الباب مغلقًا.

طرقتُ، ولكن لم يُفتح الباب.

كانت هناك أبواب كثيرة تشبه هذا الباب، تراجعتُ للخلف، وتفحصتُ النوافذ.

لم يكن هناك شيء مرئي من خلال الستائر، والتي لم تقلل فرصة تمكين شخص ما بالداخل بسهولة من رؤية ما يحدث بالخارج.

واصلت طريقي نحو السوق، والشارع الرئيسي، والمسرح، ومررتُ بصالون حلاقة، ومتجر للنسيج، ومكتبة ونافذة عرض مليئة بالهدايا التذكارية، وبعد ذلك، وهو آخر ما كنتُ أتوقعه، رأيتُ مرة أخرى الشكل الهندسي.

ظللتُ واقفًا لدقيقة، وأخذتُ أتفحص ورقة ملصقة على بوابة

opeikandi.com

خشبية كبيرة؛ إنه إعلان عن دورة للمبتدئين في "التاي تشي"، وعندما اقتربتُ منها رأيتُ تلك العلامة الدائرية، والتي من مسافة أبعد ظننتُ أنها رمز "تاوي الأسود"، والأبيض "ليين ويانغ"، وتبين لي أنها في الواقع عبارة عن تصميم مكوّن من دائرة ومثلثات.

أولاً: الرياضيات، والآن التدبر الشرقي من خلال الحركة، من يدري إلى أين ستأخذني هذه العلامة في المرة القادمة؟

لم تكن البوابة الكبيرة مغلقة.

دفعتُها، وخطوت إلى ممر مظلم يقود إلى فناء صغير، والذي يحتوي على مقعد، ووعائين للزهر، ونباتات البرباريس، ومضخة للمياه.

لا أستطيع أن أتذكر متى كانت آخر مرة شاهدتُ فيها مضخة قديمة الطراز كتلك، ذات مقبض طويل.

نظرت فيها كما لو كنتُ قد وصلتُ للتوِّ في مركبة فضائية من كوكب آخر.

درتُ حول المضخة بحذر، بداية في اتجاه واحد، ثم في الاتجاه الآخر.

إذا كان شخص ما قد شاهدني فمن المحتمل أنه يظن أننا نبدو كالصياد وفريسته، رغم أنني عندما نظرتُ إلى أعلى، اتضح لي أنه لا يمكن أن يكون هناك شخص ما قد شاهدنا؛ فأي من الجدران التي كانت تواجه الفناء لا تحتوي على نوافذ، كان الفناء مدسوسًا خلف مبنى يواجه الشارع.

اتجهتُ نحو المقعد، وجلستُ، وعمَّ الصمت على الفور.

رأيتُ كل بوصة من شجيرة البرباريس وصولاً إلى أدق التفاصيل، وكأنني أتفحصها من خلال مجهر، وكان الخط المتقوس بلطفٍ، والموجود بمقبض المضخة، دقيقًا للغاية لدرجة أنه بدا كما لو كان

obeikandl.com

مصنوعًا من إشعاع نقي.

لم ألتقط أنفاسي، أو ظننتُ أنني لم أكن أتنفس؛ كان قلبي يخفق بهدوء أكثر، كما لو كان يفعل ذلك ليحافظ على السكون.

نظرتُ إلى أعلى، وبدت الجدران المحيطة كما لو ازداد طولها فجأة، ولا يمكنني أن أرى نهايتها، على الرغم من أن قطعة السماء المقوّسة فوقها كانت لا تزال زرقاء بشكل مميز.

أغمضتُ عيني.

كان هناك شخص ما يلعب بآلة موسيقية، ليست في واحدة من تلك المباني ولكن بعيدًا، ولكن وصلتني النغمات، وبطريقة ما كنتُ أعرف أنها كانت تستهدفني وحدي.

وفي اللحظة التي فتحت فيها عيني توقفت الموسيقى.

تلاشى الوهج الواقع فوق المضخة ببطء، وبدأ قلبي في الخفقان مرة أخرى، وارتعش صدغاي.

وعندما نهضتُ التوت ركبتاي.

"لا أعرف كيف يمكن أن يكون ذلك قد حدث" هذا ما قلته لـ "ماركو" ذلك المساء.

كنا جالسين في مطبخه، ونستمع إلى أغنية "ابدأ بها"، من ألبوم مزدوج سجّله مايلز ديفيس في الفترة بين عامي ١٩٧٠م و١٩٧٤م، وكنا ندخن سيجارة ذهابًا وإيابًا، سيجارة من الماريجوانا، والتي زرعها ماركو في العام قبل الماضي بالقرب من منزله الذي يقضي فيه إجازته في "سلانكامين".

قال ماركو: إن الأمر يبدو له كما لو أنني قد استهلكت نفسي، وقمت برحلة فاشلة.

obeikandi.com

أجبتُ: هُراء، وأخذتُ مجَّة من السيجارة، والتي لم يكن لها علاقة بالأمور الدنيوية، فبدا الأمر كما لو كان صعودًا وانغمارًا في نفس الوقت، وكأنك موجود في مكانين في وقت واحد.

قال ماركو: لقد بدأتُ في فقدان السيطرة على نفسي، وربما وجب عليّ التوقف عن التدخين.

ناولني السيجارة، ولكنني هززت رأسي.

قلتُ: هناك شيء ما غريب هنا، لا أعرف حقيقته، ولكنني أشعر بإحساس سيىءٍ.

ومثلما قلت ضحك ماركو، واستسلم، وسحق السيجارة في طفاية السجائر.

تابعتُ قائلاً: ليس هذا ما أقصده؛ ما أعنيه هو: كل ما حدث، والشكل الهندسي، والطريقة التي برز بها فجأة، وبحثي.

لم يقل ماركو شيئًا.

سألته: أتعلم ما الذي كنتُ أفكر فيه قبل أن آتي لرؤيتك؟

أجاب ماركو: كيف يمكن لي؟ أنت الغامض هنا وليس أنا.

قلتُ: كنتُ أفكر أن الرجل صفع المرأة عمدًا حتى أرى ذلك، وأذهب خلفها، وأتبعها.

احتج ماركو قائلاً: وكيف يمكن أن يعرف ذلك، أعني أنني لا أعرف عنك الانصراف خلف الأمور التي قد تسبب الضرر.

لا أعرف، أعتقد أنك تنوي مساعدتهم، وتابع قائلاً مهلاً: أخبرني، كم عدد المرات التي فعلت فيها شيئًا من هذا القبيل في حياتك؟

أجبتُ: إن هذه أول مرة.

فقال ماركو: هذه هي بالضبط وجهة نظري؛ لذلك، بغض النظر عمّا تظنه، لم يحدث هذا فقط حتى يغويك شخص ما بشيء ما، وبالمناسبة أنت لا تعرف حقيقة هذا الشيء.

أجبتُ: ربما كان ذلك بالنسبة للمبتدئين، وربما سأعرف لاحقًا ماذا يحدث، ولكن ماركو لم يكن يريد أن يتحدث عن ذلك ثانية.

ثم قام بلف سيجارة أخرى، وقام بتشغيل الأسطوانة مرة أخرى، وتحدّث عن كيفية عمل "مايلز ديفيس" لهذا التسجيل.

لم أكن أستمع؛ فلقد كنتُ أطفو على موجات القُنَّب المحلي، وفي مكان ما بداخلي، كنتُ مرة أخرى عند مشهد الحادثة عند نهر "الدانوب".

كان هناك خطب ما!

هل كان أثر الضربة، وحركة اليد التي تقوم بالصفعة، وسلوك المرأة بعد ذلك، والطريقة التي ترنَّحت بها، وخوضها في المياه؟ لم تكن تلك الأحداث متزامنة، بل بدت كما لو أن شيئًا آخرًا قد تم الاتفاق عليه، كما لو أنه من المفترض أن يضربها الرجل بقوة أكبر، وعندما حانت اللحظة ضربها بشكل مختلف، ولم يكن لدى المرأة، التي لم تتوقع ذلك، الوقت لتستعيد توازنها، بل على العكس كان رد فعلها هو رد الفعل المتفق عليه، كما لو أنها فقدت توازنها حقًّا من الضربة، وسقطت تقريبًا في المياه الضحلة.

ماذا عن الرجل ذي المعطف الأسود الواقي من المطر؟ لماذا يختفي بسرعة جدًّا؟ ربما وقع شيء مختلف خطئًا عمَّا هو مخطط له؟ لم أخبر ماركو عن الرجل ذي المعطف الأسود، وإلا لكان اقتنع حقّا بأنني فقدتُ عقلي.

كان ماركو قد أخبرني عدة مرات من قبل أن من يؤمنون بنظريات المؤامرة يكون لديهم فراغ في رؤوسهم، ولا يعرفون ماذا يفعلون به،

obeikandi.com

فيملؤونه بالتَّوافه، وعاجلاً أو آجلا، يصبح ضحية المؤامرات السطحية، والتنظيمات السرية التي تهدف إلى شيء واحد فقط: قيادة هذا الشخص إلى شيء ما يَعِد بهدم الأسس التي يقوم عليها العالم.

وهنا التقطت أذناي صوت بوق مايلز ديفيس، وتوقفتُ عن التفكير.

لو كنتُ في المنزل لكنت استسلمتُ للنوم، ولكن هنا، في منزل ماركو، اضطررتُ إلى النضال من أجل البقاء مستيقظًا.

نهضتُ وببطء، كما لو كنتُ أسير تحت الماء، استعددتُ للرحيل.

عرض عليّ ماركو المبيت معه ولكني رفضت، قلتُ: إن التحدي أفضل من الاستسلام.

وإلى جانب ذلك، فمنزله ليس بعيدًا عن منزلي، تفصلنا فقط ثلاثة كتل من المباني، وحديقة صغيرة وراء المدرسة الابتدائية، ولكن عندما وصلتُ إلى المنزل كنتُ منهكًا، كما لو كنتُ قد سرتُ لمسافة خمسة عشر ميلاً.

اعتقدتُ أنني لن أسقط نائمًا مع تدليك ساقيّ، ولكن عندما استيقظت في صباح اليوم التالي، لم يكن الصباح، ولكن الظهر.

وضعت الماء اللازم لتناول القهوة، وانطلقتُ خارجًا لشراء الخبز الطازج والصحيفة.

وعندما عدتُ من المتجر رأيتُ شيئًا أبيض اللون في صندوق البريد.

فتحته والتقطتُ الرسالة، والتي عليها اسمي مكتوبًا باللغة السيريالية على الواجهة، واسم دراجان ميتشوفيتش بالأبجدية اللاتينية بالخط اللاتيني على ظهره.

قبل ذلك ببضعة دقائق فقط، عندما نزلتُ إلى أسفل الدرج، كان

يمكنني أن أقسم أنه لم يكن هناك شيء في صندوق البريد؛ لذا أسرعت إلى الشارع، ونظرتُ إلى اليسار، وتطلعتُ إلى اليمين، فلم يكن هناك مشاة يرتدون معاطف الشتاء الطويلة، بل كان هناك طفل واحد فقط يرتدي قبعة بيسبول، ولكن بقبعة أو بدون لم يكن هو الشخص الذي كنتُ أبحث عنه.

صعدتُ إلى الشقة، وسكبتُ الماء في وعاء القهوة، وصنعتُ قهوتي.

وعلى الرغم من أنني كنتُ أتلهف لمعرفة ما في الرسالة، تصفحتُ الصحيفة أولاً، وقرأتُ بتمعن المقالات في قسم الجريمة، وتفحصتُ القوائم الثقافية، وحاولتُ حل لعبة الشطرنج الواقعة أعلى رأسي دون مفتاح.

لم أنجح، رغم أنها بدت لأول وهلة سهلة للغاية، ولكن مهما حاولتُ، كنتُ أصل إلى حل ينقذ القطع السوداء، وكان بيدقي سببًا في المشاكل أكثر من كونه نفعًا.

وضعتُ الصحيفة جانبًا، والتقطتُ الرسالة.

ومرة أخرى، تفحصتُ اسمي المكتوب على واجهة المظروف، واسم المُرسِل على ظهره.

كان من الواضح أن شخصًا واحدًا هو الذي كتب الأحرف، ولكن لماذا كان اسمي مكتوبًا باللغة السيريالية، والآخر باللغة اللاتينية؟ سبب لن أتمكن من معرفته.

وإلى جانب ذلك، لم يكن لدي صبر لتمزيق الجزء العلوي من المظروف بعناية؛ لذا حشرتُ إصبعي بداخله ففتحته بحركة واحدة.

وعلى عكس أسمائنا، كانت الرسالة مكتوبة على الكمبيوتر، وبالأبجدية اللاتينية، ومطبوعة على طابعة عالية الجودة.

بدأت الرسالة بقول: لا أعرف ما الذي يدور حوله هذا الخطاب،

obeikandi.com

ولكن أتمنى ألا يتم القبض عليّ لأي سبب تافه.

وتابعت الرسالة قائلاً: ما الذي يمكن أن يكون مختبئًا في مثل هذا الشكل الهندسي البسيط عدا الرغبة العقيمة في جعْل الواقع مختلفًا عمّا هو عليه؟ الواقع هو الواقع، ولا يوجد مسار يمكنه أن يجعله يسير في اتجاهه الآخر؛ حيث يُفترض أن يكون كل شيء مختلفًا وأقرب، حسبما أعتقد إلى الحقيقة.

وتابعت الرسالة: لكن هذا شيء لا يلفت انتباهي؛ لذا لن أتحدث عنه، فالمثلثات ولا شيء غير المثلثات هي نظام اليوم، أو ينبغي أن أقول: نظام الليل فإنه الليل الآن.

وبقدر ما يتعلق الأمر بالمثلث، ليس هناك فرق بين النهار والليل، وبالطبع، ينبغي أن يكون هذا واضحًا إلى أي شخص، ولكن لا أحد يعرف.

الناس يفسرون كافة أنواع الأشياء، حتى إمكانية أنه بداخل مثلث مُدرج داخل دائرة، أو مثلث مدرج في مثلث، هناك إجابات عن أسئلة، المثلث هو المثلث، وهذا ما في الأمر.

ومع ذلك، إنه لأمر صحيح أن الأشكال مثلثية الشكل كهذا ترتبط بإحداثيات موبيوس مركزية الثقل، والتي تلعب دورًا في كيمياء اللون، ولكن ليس هناك أي معنى إضافي يمكنه أن يثري، أو يسهل فهم الشكل (المرسوم بإهمال بالمناسبة).

ومما يعد مثيرًا للاهتمام هو: إن تحويلاً بسيطا جدًّا لهذه الإحداثيات يعطي ما نسميه: (إحداثيات لاميه).

قدمها لاميه في الحل الذي قدّمه لمشكلة تبريد منشور الذي يحتوي على قاعدة على شكل مثلث متساوي الأضلاع، ثم قابل نفس المشكلة في تحليل اهتزازات غشاء مطاطي مرن مشدود على مثلث، وفي النهاية، لاحظ أن نفس المعادلة ظهرت في وصف نفق صوتي ذي

obeikandl.com

جدران لينة.

باختصار، من الضروري حل مشكلة القيمة الذاتية:

$$\Delta T (x,y) + k2\ T (x,y)=0$$

حيث:

$$\Delta T (x,y)= \partial 2T/\partial x2\ \partial 2T/\partial y2$$

هي عامل لابلاس التفاضلي، والدالة T(x,y) تفي بقوانين "ديريتشليت" للحدود: T(x,y) =0 على طول ضلعي المثلث.

وتابعت الرسالة: إن حل لاميه لهذه المشكلة استند إلى تحديث واسع النطاق في علم الهندسة، والذي يؤدي إلى دالات مميزة، يتم التعبير عنها بجيوب الزاوية وجيوب التمام.

وما هو الأكثر إثارة للدهشة، وبالنسبة لي الجانب الأكثر إثارة للاهتمام في هذا الشكل الهندسي هو: تلك الدالات المميزة المُعبر عنها باستخدام مزيج من جيوب الزاوية وجيوب التمام، والتي تظهر على نحو عادي في علم هندسة المستطيلات، وليس في المثلث.

في الواقع لم يستطع لاميه، وإلى هنا سوف أنهي كلامي، إثبات صيغته.

ولكن بينسكي استطاع ذلك باستخدام تقنية التحليل الدالي، وليس هناك أي إثبات نهائي حتى الآن، رغم أنها مسألة أيام الآن.

وهكذا كان الأمر، لا يوجد توقع أو أي تفسير حقيقي، على الأقل ليس بالنسبة لشخص مثلي، يفهم قليلاً من الرياضيات، أتفحصه مرة أخرى كي أكون أمينًا فقط.

هناك أمر لا زلت لا أفهمه، وأشك في أن أي شيء قد تغير حتى ولو كان لاميه قد قام بفحص الأنفاق الصوتية ذات الجدران الصلبة.

obeikandl.com

"لا أستطيع أن أصدق أن هذه الرسالة خطيرة" قلتُ ذلك للمرأة التي كانت تلتقي بـ دراجان ميتشوفيتش من آن لآخر؛ لأنها إذا كانت خطيرة لحاول على الأقل تفسير الأمر بطريقة تمكن الأشخاص العاديين من فهمها.

فأجابت: هذا هو طبعه، وأضافت: إنها على يقين من أنه كان صادقًا في رده؛ فهو ببساطة يرى العالم بطريقته الخاصة، ولا يفهم أنه لا يوجد أحدٌ يراه مثله

قلتُ بعبارة أخرى: فهو يؤمن – بصدق - بما كتبه.

قالت: تمامًا، تمامًا.

وأضافت: كان هذا هو حاله قبل أن أنتقل إلى "بانوفو بردو"، وأفقد الاتصال به، على الرغم من عدم وجود سبب لافتراض أن أي شيء قد تغيّر في حياته.

إننا نميل دائمًا لافتراض - عندما نشتهي التغيير - أن الجميع يتغيرون أيضًا.

تمامًا كما كانت مقتنعة؛ لأنها انتقلت إلى "بانوفو بردو"، أن دراجان ميتشوفيتش لم يعد يقوم بنزهاته العادية على الأقدام بالقرب من النفق السابق؛ حيث كانت تلاقيه صدفة من آن لآخر، أو أن جارها في المبنى الذي اعتادت على العيش فيه قد توقّف عن تفريغ طفايات السجائر خارج النافذة، وهو ما كان بالطبع وهمًا؛ لأنه حتى عندما نترك مكانًا، لا يتغير شيء.

هناك، تواصل أعقاب السجائر رحلة طيرانها من الطابق الخامس كما تواصل رائحة الرماد رحلتها في الهواء، ودراجان ميتشوفيتش يسير بحذر في الشوارع، ويتجنب البرك والقمامة والتصدعات الموجودة في الرصيف.

فماذا الآن؟ هذا ما جال بخاطري عندما انتهت المحادثة، ما الطريق الذي يجب أن أسلكه؟

في الواقع، كان السؤال خطئًا؛ لأنني لم أرَ أي طريق أمامي.

كنتُ أستطيع التراجع والسير على طول المسارات التي تركتها، ولكن هذا كان يشبه طقوسًا عقيمة لا معنى سوى أنها أفعال متكررة؛ لذلك قررتُ البقاء في المنزل لبضعة أيام.

استيقظتُ في وقت مبكر، وشربت القهوة، وقرأتُ الصحف، وعملتُ على ترجمة مسرحية لـ بنتر في الصباح، وكتبتُ - أو على الأقل - حاولتُ أن أكتب قصصًا في فترة ما بعد الظهر.

وفي المساء جلستُ على الكرسي ذي الذراعين، وفي الظلام استمعتُ إلى تسجيلات جون مارتنوتوم، وواتس، وفرق ويذر ريبورت، وستيلي دان الموسيقية.

دخنتُ الحشيش، ورأيتُ الظلام يحلّ بالخارج.

وَمَضَت الأضواء بشكل متقطع في الشقق، في بعض الأماكن كان يمكنك أن ترى الناس يجلسون على الطاولات أو أمام التلفاز، وأُفرغت الشوارع، كان هناك فاصل زمني أطول بين الحافلات الآتية والمُغادِرة.

في يوم الأحد كتبتُ مقالاً جديدًا للعمود الخاص بي في صحيفة "الدقيقة".

لم يكن هناك شيء محدد في النص؛ فأكثره وصف لحالة وليس لحدث؛ حيث بدأتُ بجمل قاتمة حول عجزنا لإدراك رعب الأوقات التي نعيش فيها بشكل جيد، وواصلت المقال بكلمات أكثر قتامة، وصف العجز الذي يغمرنا عندما لا نستطيع العثور عن وسيلة للخروج من الوضع البغيض الذي يحيط بنا.

وفي النهاية، وبجمل مقتضبة، استحضرتُ الفراغ الذي ينتظرنا.

obeikandi.com

كانت الكلمة الأخيرة، التي وقفت بمفردها؛ هي: "لا شيء".

كان رئيس التحرير مثيرًا للريبة، قال: عندما تكون المعنويات منخفضة يكون الناس بحاجة إلى التشجيع، وأنت تسكب الملح على جراحهم.

أجبته: بالضبط، ولكن في بعض الأحيان يكون خفض المعنويات والغياب التام للإرادة البديل الأكثر إغراءً، وتكون صدمة جديدة، بغض النظر عن مدى شدتها، بمثابة هزة للناس كي يقوموا بنفض طبقة العجز عنهم.

فكّر رئيس التحرير فيما أقوله لمدة دقيقة، ثم نظر مرة أخرى إلى النص، وأومأ، وأرسلني إلى قسم الحسابات.

وبينما أغادر المبنى بدأت السماء تمطر أمطارًا خفيفة مزعجة لا تستطيع حماية نفسك منها.

سرتُ عبر الميدان، مارًّا بتمثال الأمير ميهايلو، وأكملتُ طريقي إلى مقهى "ماجستيك".

جلستُ على طاولة عند النافذة، وطلبتُ الشاي، وعندما أحضر النادل الشاي طلبتُ شريحة من كعكة الفاكهة، وعندما أحضر الكعكة طلبتُ إسبرسو مزدوج.

اشتدت الأمطار، وبعد لحظات لم يكن هناك أحد يسير في الشارع؛ احتشد الناس في مداخل البنايات.

كان مذاق الشاي رهيبًا، كما لو كان مصنوعًا من أكياس الشاي بالنعناع مُعاد استخدامها؛ كانت القهوة أفضل.

التفتُ للبحث عن النادل؛ لذا لم أرَ من فتح الباب المؤدي إلى معرض الرسومات الجماعية عبر الشارع من مقهى "ماجستيك"، ولكن عندما، بعد الالتواء والإيماء عبثًا، التفتُ إلى النافذة مرة أخرى، ورأيتُ

في المعرض امرأة، والتي من مسافة بعيدة، بدَت إلى حد كبير كالمرأة التي صُفعت على ضفة نهر "الدانوب"، وترنَّحت وخاضت في الطين.

أُغلقت أبواب المعرض، وكانت الانعكاسات الموجودة على أسطح الزجاج قد جعلت من المستحيل معرفة ما كان يحدث في الداخل.

نهضتُ، واختطفتُ سترتي، وناديتُ النادل وحاسبتُه.

كانت قطرات المطر ترتد من على الرصيف، فتفيض جداول صغيرة أسفل الحواجز الحجرية، والخطوات القليلة المطلوبة لعبور الشارع كانت كافية لتبتل قدماي.

جذبتُ باب المعرض، ودخلتُ.

لم يكن هناك أحد بالداخل.

كانت آثار أقدام مبتلة تقود إلى الخلف، إلى درج يقود إلى الدور الثاني من المعرض، والذي كان بمثابة مكتب ومخزن للأوراق التجارية.

تفحصتُ تلك المقتنيات الفنية، وتظاهرتُ بإبداء اهتمام قوي، ولكن رفعتُ رأسي لسماع أي شيء يحدث في الطابق العلوي.

كان كل ما يمكن سماعه فقط هو صوت واحد؛ صوت امرأة، ويجب أن يكون هذا الصوت في الهاتف؛ لأنها كررت بصبر، ولعدة مرات، معلومات عن سعر الورق، تكلفة صنع بطاقات الدعوة، وقوائم الأغراض، والمتاجر التي لا زال يمكنك شراء أصباغ ذات نوعية جيدة منها.

مشيتُ إلى الجانب الآخر من المعرض لمعرفة من هناك، ومن كان يتحدث، ولكن مهما تمددت أو وقفت على أصابع قدمي لم أستطع فوق حافة الدرابزين.

وفي النهاية فتحتُ الباب، وصعدتُ الدرج الخشبي.

وعندما وصلتُ إلى أعلى نقلت امرأة جالسة على مكتب سماعة الهاتف من على أذنها، وسألتني: ماذا تريد؟

قلتُ: إن هناك صديقة لي جاءت إلى المعرض منذ فترة قصيرة، وإنني رأيتها من مقهى "ماجستيك"، وإنني الآن لا أستطيع العثور عليها في أي مكان.

غطت المرأة سماعة الهاتف بيدها كما لو كانت على وشك أن تخبرني بسر.

قالت: لم يأتِ أحد إلى المعرض على مدار الخمس وأربعين دقيقة الماضية، وهو ما فاجأها؛ لأن المعرض عادة ما كان يحتشد به الناس عندما تهطل الأمطار، بغض النظر عن الأعمال الفنية المعروضة، ولكن هذه المرة، على الرغم من تدفق المطر، لم يكن هناك أحد.

وأضافت المرأة قائلة: لم تكن شقيقتي هناك، على الرغم من أنها كان من المفترض أن تكون هناك قبل ساعة، قبل هطول الأمطار.

انتظرت أن أقول شيئًا، ولكني لم أقل شيئًا، فوضعت السماعة ثانية على أذنها.

اعتذرت رغم أنني لا أستطيع تحديد لمن كان هذا الاعتذار موجهًا.

التفتُ، ونزلتُ إلى أسفل الدرج.

فكرتُ في الإشارة إلى آثار الأقدام المبتلة، ولكن عندما خطوتُ إلى داخل المعرض رأيتُها مكسوَّة بآثار أقدامي.

غادرتُ، ونظرتُ عبر الشارع إلى نافذة مقهى "ماجيستك" المضيئة.

كان هناك رجل آخر يجلس الآن حيث كنتُ أجلس.

كان يقرأ صحيفة، وكأنما شعر أنني أنظر إليه، فرفع رأسه، والتفت إليّ.

obeikandl.com

إذا لم أستطع رؤية عينيه من حيث كنتُ أقف، كيف لي أن أتأكد ممن رأيته يمشي إلى المعرض، قدمت هذا إن كان شخص ما قد دخل إليه؟ قلتُ لـ ماركو هذا المساء: إنني مهما أحاول ينتهي الأمر إلى طريق مسدود، وأضفت: إنني لا أصل إلى شيء، إنني أحمق.

قال ماركو: استمع إلى هذا، فهو أروع تسجيل لـ مايلز ديفيس.

لم يقل إلى أي تسجيل يشير، ولكي أكون صريحا تمامًا، في تلك اللحظة لم أكن أبالي؛ فأخذتُ مجَّة من الغليون الذي ناولني إياه، وأملتُ أنه بحلول الوقت الذي أفتح فيه عيني أكون قد نسيت كل شيء.

وبالطبع، لم أنسَ شيئًا، وفي اليوم التالي انطلقتُ إلى شارع "زماي جوفينا"، ولكن - بغض النظر عن مدى صعوبة بحثي - لم أستطع العثور على علامة واحدة.

في البداية اعتقدتُ أن المطر ربما يكون قد محا أي أثر، ثم تنبهتُ إلى فكرة أنه لم يكن المطر، بل كان شخص يمسح بانتظام وعناية، مما يزيل أي أثر.

ظننتُ أن شخصًا ما يرسم العلامات لتحذير شخص ما من شيء ما، أو لتنبيه شخص ما إلى حدث ما، وبمجرد أن تحدث الواقعة، يدمر أو يخفي العلامات، وبالتالي يقلل من احتمال إساءة استخدامها.

ظننتُ - وأنا واقف عند أحد أطراف سوق "زيمون" - أنه من الممكن أن يكون نفس الشخص يقوم بالعملين على حد سواء، ولكن على الأرجح شخصين مختلفين، أو ربما أكثر، وشخص ثالث يقوم بالتنسيق؛ تخطيط الوقت لظهور واختفاء علامات جديدة.

كان الهواء يهمهم بصَخَب السوق في حين تدور برأسي صور التجمعات الغامضة لجمعية سرية؛ حيث يرتدي الجميع أقنعة، أو على أقل تقدير نظارات داكنة، ويتحدثون من خلال حركة أصابعهم البارعة.

كانت هذه الرؤى – بالطبع - سخيفة، لكن لم يمكنني التفكير في أي شيء آخر.

مشيتُ في جانب السوق حيث تباع منتجات الألبان، وتذوقتُ جبن المزارع والكريما الرائبة في ثلاثة أو أربعة أكشاك، ثم عدتُ إلى "زماي جوفينا"، واشتريتُ قرص خبز هلالي الشكل من المخبز.

كان الملصق الخاص بفئة المبتدئين في "تاي تشي" لا يزال معلقًا على البوابة الخشبية القديمة، ولكن الآن لم يكن هناك رمز عليه.

أكلتُ قرص الخبز، وفتحتُ البوابة الثقيلة، ومشيتُ من خلال الممر ومنه إلى الفناء.

كان كل شيء كما كان عليه من قبل: المقعد، وأوعية الزهر التي تحتوي على شجيرات البرباريس، ومضخة المياه ذات المقبض المقوّس، وعندما جلستُ وأغمضتُ عيني غلفني الصمت مرة أخرى.

ومع ذلك، لم أسمع أي موسيقى هذه المرة، ولكن شخص ما، رجل أو صبي، يغني.

كان يغني بصوت عذب، وبلغة لا أعرفها، وتلعثم صوته، كما لو كان سيتنهد في أي لحظة.

لم تكن الأغنية حزينة كما لم تكن سعيدة أيضًا، وكانت تروي، وكنت على يقين من ذلك، حدثًا رهيبًا وخسارة فادحة، ولكنها خسارة لا تستحق أي مقدار من الحزن.

كان يمكنني أن أستمر هناك إلى الأبد بعيون مغلقة، مولعًا بذلك الصوت، ولكن شخص ما عطس، واختفى الصوت، وعندما فتحتُ عيني رأيتُ امرأة على ضفة النهر، لكنها، على ما يبدو، لم ترني.

سارت عبر الفناء كما لو كانت تتحرك في مكان آخر، منفصلاً عن الفضاء الذي أعيش فيه.

obeikandi.com

هذه الحقيقة، إذا كان حجوب شخص ما يمكن أن يُطلق عليه حقيقة أصابتني بالخرس، على الرغم من أن كل شيء داخلي كان يجاهد ليتحدث.

ومن خلال عدة خطوات واسعة خطت المرأة عبرت الفناء المرصوف، وتلاشت في شفق الممر نحو شارع "زماي جوفينا"، وعندما لململمتُ نفسي في النهاية وسارعتُ خلفها كانت قد اختفت بين الذاهبين إلى السوق، أو العائدين وأذرعهم مثقلة.

عدتُ إلى الفناء الحجري.

قلت لـ ماركو في وقت لاحق: إنها أتت، على الأرجح، من البناية التي تواجه الفناء، على الرغم من أن قائمة المستأجرين سجّلت أعمارهم ومهنهم، وأظهرت أن المتقاعدين أو الأزواج الذين لا يزال أطفالهم صغار السن يعيشون في كل الشقق.

أخذ ماركو مجة من السيجارة، وناولها لي.

قال: ما الذي كان من شأنه أن يحدث لو أنها رأتني؟

أجبتُ: لا أعرف، وأعدتُ السيجارة إليه، ربما كُنا سنتحدث، وربما كنتُ سأعلم اسمها أخيرًا.

قال ماركو: الاسم لا يعني شيئًا.

وبقدر ما يستمر هذا الأمر، ادعوها بما تشاء.

قلتُ: كلا، فاسم فيوليتا - مثلاً - شيء، واسم مارتا شيء مختلف تمامًا.

اعترض ماركو قائلاً: إن اسمها لا يمكن أن يكون مارتا، فمن يُدعى مارتا في هذه الأيام؟

أجبتُ: ستندهش لو علمت أنني قابلتُ ثلاثة سيدات هذا الربيع

يحملن اسم مارتا.

نظر ماركو في وجهي، وانفجر ضاحكًا، ثم تحولت ملامحه إلى الجدية، وقال: أتعلم أن الحياة قصيرة؟ هززتُ رأسي، وقلتُ: سوف نعيش إلى الأبد.

ولكن أحسست أنه لا يصدقني.

لم أكن، في الواقع، أصدق نفسي.

ما كان يحدث حولنا في السنوات القليلة الماضية أقنعني بأن أهدافي وما كنت أصبو إليه في حياتي قد انتهى، إنني أعيش الآن في حياة بلا حياة: الحرب، التضخم، الفقر، الإرهاب السياسي، الكراهية؛ كل ذلك يؤكد الطبيعة الهائجة للعالم الذي كان من المفترض أن يكون مأوى لي.

كان ماركو على حق حينما قال لي: إنه لا يمكنك أن تتصور العيش هكذا إلى الأبد.

ميت إلى الأبد، ربما، ولكن في أحسن أحوالها كانت الحياة عبارة عن: تراكم لافتات، عوّامة، مؤقتة، طافية بالكاد.

سألتُ ماركو: هل أغرق؟ أم هو فقط مجرد الإحساس بالغرق فقط؟ لم يُجب ماركو، وأغلق عينيه، وأسند رأسه إلى الجدار، وطوى ذراعيه، ولامس بطرف لسانه شفته العليا.

قلتُ: كل ما أريد هو أن نفهم ما يجري.

وعندما رأيت أن ماركو قد رفع حاجبيه قلت بسرعة: ليس الحرب ليس الحرب، ولن أستطيع أبدًا فهم ذلك؛ فلقد كففتُ عن المحاولة منذ فترة طويلة، ولكن ما حدث عند نهر "الدانوب"، واقع أو عبثية الصفعة، معنى الدائرة حول المثلث، الأغنية التي سمعتُها في الفناء الموجود في شارع "زماي جوفينا".

جلس ماركو هناك صامتًا.

قلتُ: لا شيء يوجد بمفرده، كل شيء مترابط، كل شيء عبارة عن جزء من شبكة أكبر أو أصغر، والتي تمثل بدورها جزءًا من شبكات أكبر، وهكذا دواليك حتى يصبح العالم بأكمله منسوجًا مع بعضه البعض، والذي ينسج الشبكة الأخيرة يعرف تكوين كافة الشبكات الأخرى، ولكن من ينسجون الشبكات الأصغر لا يعرفون عنهم شيئًا، ويكونون بمثابة الفريسة لهم؛ فلا يدركون معناهم ولا إلى أين يقودونهم.

قال ماركو: في شبكته الخاصة به يكون العنكبوت عنكبوتًا، ولكن في شبكة أي شخص آخر يكون نفس هذا العنكبوت مجرد ذبابة أخرى.

أجبتُ: هذا صحيح، إلا أنني لستُ حريصًا على أن أكون ذبابة أو عنكبوتًا، وشبكة واقعنا اللزجة، والتي تبدو وكأن أحدًا لا يقوَ على ثقبها هي كل ما يمكنني التعامل معه.

قال ماركو: أوافقك على ذلك تمامًا.

وأغلق عينيه ثانية.

تساءلتُ: أين ذهبت السيجارة؟ هل ابتلعها ماركو؟

قال: الباب يُفتح لمن يقرع، ومن يمزق الشبكات فسيمرّ من بينها.

اعتدل والتفت إليّ فرأيتُ السيجارة مطفأة ومسحوقة، مدسوسة خلف أذن ماركو اليمنى، متعقدة قليلاً بين شعره.

قلتُ: ربما، ربما يكون من الخطأ قول: إنها ذهبت وكأنها لم تربي، ربما لم تربي حقًّا، وربما هناك في تلك الزاوية لم أكن مرئيًّا، كيف كنت مستترًا عن بقية العالم؟ قال ماركو: أنت مجنون، رغم أنني أفهم الدافع كي أصبح الرجل الخفي.

فأجبتُ: من الأفضل أن تكون الرجل الخفي بدلاً من أن تكون

obeikandl.com

الرجل الخفاش.

وخرجتُ من الباب لتجنُّب خطبة ماركو المسهبة حول شخصيات الكتاب الفكاهية، ومعناها الرمزي.

كان الظلام البارد ينتظرني بالخارج، أو كان يجب أن أذهب مباشرة إلى الفناء في شارع "زماي جوفينا".

وفي وقت مبكر من صباح اليوم التالي، ربما قبل السادسة، رن جرس الهاتف، واستمر في الرنين بإصرار؛ فكان عليّ أن أنهض، والترنّح حتى الطاولة الجانبية في غرفة المعيشة، ولكن عندما رفعت سماعة الهاتف في النهاية، لم يكن هناك أحد يتحدث، وبعد بضع ثوان سمعتُ صوت انقطاع الاتصال.

عدتُ إلى السرير، ولكن لم أستطع النوم.

حاولتُ أن أقرأ؛ ولكن وا أسفاه! تلك الصيغة السحرية للاستغراق في النوم تعمل فقط في ساعات الصباح، وليس في الصباح الباكر.

في الواقع، الكتاب الذي التقطته كي أقرأه، والذي يصف نظام معسكرات الاعتقال الألمانية خلال الحرب العالمية الثانية أيقظني أكثر.

استيقظتُ أخيرًا في السابعة وأنا أشعر بصداع شديد؛ ارتديت ملابسي، ووضعت الماء اللازم لتناول القهوة، ونزلتُ كي أشتري صحيفتي.

نادرًا ما كان أحد يبتاع الصحف الآن؛ لأن الأخبار التي تتضمنها والتعليقات المصاحبة كانت متوقعة للغاية، ولكن القراءة الصباحية للصحيفة مع فنجان من القهوة السوداء كانت طقسًا لم أستطع التخلي عنه.

كانت أفضل من مشاهدة التلفاز، والذي لم يتوقف أبدًا عن كونه مصدرًا للدعاية الرسمية، موكبًا من مخلوقات غريبة، والتي تمتلك قدرات فكرية ضعيفة في أغلب الأحيان.

أمّا الصحف فكانت مختلفة؛ يمكنك دائمًا تخطي الصفحات الأولى، والتركيز على الأقسام التي تتحدث عن الحياة في المدينة، والنصائح العملية والرياضية.

ومن ناحية أخرى، حتى في القسم الأول، كانت هناك فرصة أن يتعثر الصحفي في جدل هدّام، إشارة صغيرة أن الواقع ليس هو ما تزعمه الحكومة، ويقدم البحث عن ذلك الجدل لعبة فكرية جذابة، طالما لم يكن لدى القارىء صداع؛ لذلك أبعد بنفسي عن الصفحات التي تحتوي على الوفيات، وهو ما يعتبر حيادًا كافيًا عن الألم الذي يهاجم جبهتي وصدغاي.

فالموت، إذا حكمنا من خلال تاريخ الوفاة، مشغول هذه الأيام، وكما هي العادة لا يميز بأي شكل من الأشكال بين الجنسين، أو العمر، أو مكان الإقامة.

لقد نظرت إليّ الوجوه، سواء وجوه الكبار أو الصغار، أو الذكور أو الإناث، أو حتى الأطفال، مباشرة في عيني، كما لو كان خطئي أنهم هناك؛ فهم من مُنِحوا إلى عالم لم يهتم أبدًا بهم.

ارتشفتُ قهوتي، وتحوّلتُ إلى قسم النبذات الشخصية والمبوبات.

عدد قليل من القراء يعني عدد قليل من الإعلانات، وتحت عنوان "متفرقات" كان هناك اثنين فقط.

الأول: كان يعرض منتجًا عالميًّا لتنظيف وإصلاح هياكل السيارات المخدوشة، والتي - كما يقول الإعلان - لم تكن السبيل الوحيد لاستخدام هذا المنتج.

كان الإعلان الثاني يقول: في بعض الأحيان يمكن لصفعة أن تغير الكون بأكمله – كلمة السر – راحة اليد.

نظرت في الكلمات، غير قادر على تصديق ما تراه عيني، على الرغم

من أنني على يقين من أنها كانت مكتوبة لي وحدي.

ومرة أخرى رأيتُ المرأة تترنَّح، والرجل يقول شيئًا فظًّا، والذي - وفقا لما شعرتُ به - أذهلها.

شيء ما كان مُعدًّا مقدمًا، لم يسير وفقًا للخطة، وفي تلك اللحظة بدأ الكون في الانهيار أمامنا جميعًا، ليتخلص من الطبقة التي تحويه.

ومع ذلك لا يزال سؤال واحد يتوسل للحصول على إجابة: لماذا جرى كل هذا أمامي؟ ما الذي يمكن أن أعنيه لهؤلاء الذين ابتكروا اللعبة؟ لم أنخرط في أي إشكالات سياسية، ولم أكن أملك أصدقاء في مناصب رفيعة في الحكومة أو المؤسسات الثقافية، لم يكن لدي أي علاقات بالمنظمات الإنسانية الدولية، في بعض الأحيان لم أكن أعرف حتى اسمي.

جال بخاطري فجأة أن كل هذا ربما يكون خطئًا؛ فلا زلتُ أتأمل صفحة الإعلانات، وربما يكونون قد خلطوا بيني وبين شخص آخر، كاتب أو أستاذ مهم، شخص ما يحتاجونه للتواصل معه، أو الاشتراك في لعبة متشابكة والتي يكون، في الواقع، ومن الأفضل الهرب منها وبسرعة.

سكبتُ المزيد من القهوة، وارتشفتُ السائل البارد، وجلست ثانية على الكرسي.

حتى لو كان خطئًا، من يجب أن أبلغه بذلك؟ لو لم أعرف من ارتكب الخطأ، كيف يمكنني إخبار ذلك الشخص كي تنتهي حيرتي؟ نظرتُ إلى الإعلان.

كان الصداع الذي أشعر به قد قل في هذه الأثناء، ولم يبقَ سوى نبضة صغيرة في الصدغ الأيمن.

ضغطتُ بإصبع السبابة عليه، وجعلتني الارتجافة الصامتة ألتقط

أنفاسي.

وقفتُ بعد ذلك، واتجهتُ إلى جهاز الكمبيوتر لكتابة رسالة باستخدام كلمة السر "راحة اليد"، وبعد التفكير في ذلك لوقت طويل، وبعد عدة عشرات من الجمل الاختبارية، كتبتُ أعلم كيف تبدو الصفعة التي يمكنها أن تدمر الكون بأكمله.

كنتُ هناك، وسمعتُ الصوت الذي يصدره الكون وهو يموت.

لم أخبر أحدًا، كذبتُ؛ لأن بعض الأمور لا يجب أبدًا أن تُقال بصوت عالٍ، ولكني الآن مقتنع أن أوان تجديد الكون قد حان.

سجلت رقم هاتفي، ووضعتُ الرسالة في مظروف، وختمته.

يجب أن أعترف أن رسالتي بدت ساذجة وصبيانية بشكل يبعث على السخرية، ولكني واسيتُ نفسي بقول: إن هذا كان حال الإعلان أيضًا.

ظننت أنها لن تكون مفاجأة إذا ظهر في النهاية هيبيز مسنين مُجهزين بعصا البخور، وأخذوا يروون قصصًا عن الشعور الجيد، والاضطرابات التي أثّرت على توازن العالم.

فجأة، بدت الصفعة من الإعلان كالسؤال عن تصفيق يد واحدة، واحدة من أسئلة زن الأساسية التي لها تأثير كبير على حركة الهيبي.

رفعتُ يدي، ونظرت في راحة اليد.

ضحك ماركو عندما سمع قصتي.

توقفتُ كي أراه بعد أن أسقطتُ المظروف في قسم الإعلانات الشخصية بـ "بوليتيكا".

قال ماركو: إذا فهم بشكل صحيح ما كان يحدث إذن فأنت تغرق - بوضوح - في الجنون.

obeikandi.com

وتابع قائلاً: إمّا أن تكون هذه المرأة قد أصابت عقلك بالتشويش، وإمّا أنك قمتُ بالتشويش على عقلك، وتختلق القصص التي، بغض النظر عمّا حدث، تتعامل مع كل شيء كما لو كان جزءًا من مؤامرة كبيرة.

أجبتُ: إمّا أن يكون كل شيء مترابطًا مع كل شيء آخر، وإمّا ألا يكون هناك شيء مترابط مع أي شيء؛ وليس هناك حل ثالث، ولكن إذا وجب عليّ الاختيار، سأختار الحالة الأولى؛ لأنها حتى لو كانت جديرة ظاهريًّا بالتصديق، لا يمكن لأحد مواصلة الأخيرة، ومع مواجهة هذا المستوى من الفوضى سوف ننهار.

قال ماركو: ربما تفكر فقط في عدم التدخين، وناولني السيجارة.

السكارى يرون الفئران البيضاء، ومن يدمنون الحشيش يرون المؤامرات.

قلتُ: في بعض الأحيان تتحدث كثيرًا.

أغلق ماركو عينيه، ومدد على الأريكة.

قال: ذلك لأنني لم أجد أي شخص يجعلني أصمت.

وبعد فترة قصيرة من سماع نفسه العميق، وجدتُ بطانية، ووضعتُها عليه، وأطفأتُ الضوء، وغادرتُ الشقة، وأغلقتُ الباب خلفي.

كانت السماء تمطر بالخارج، وشققتُ طريقي ببطء من خلال المشاة الحاملين للمظلات؛ لذلك بعد وقت طويل - بعد أن وصلتُ تقريبًا إلى المنزل - أدركتُ أنني بمجرد أن غادرتُ مبني ماركو مررتُ برجل يرتدي معطفًا أسود واقيًا من المطر.

وعندما التفتُ حولي لم يكن هناك أحد خلفي.

لو كان يتبعني فسيكون هذا الرجل ذكيًّا بشكل استثنائي.

وقفتُ لفترة أطول عند المدخل، وتفحصتُ الشارع، ولكن لم أرَ أي شخص يرتدي معطفًا أسود واقيًا من المطر، أو حتى من تمكنتُ من لفت نظره.

تسللت المياه تحت ملابسي، وغزت جسدي، وسلبتني دفئي، ولكنني انتظرتُ بصبر حتى اصطكت أسناني.

وخلال الأيام التالية لم أغامر بالخروج؛ فالمياه والبرودة قد أتيا مفعولهما، واضطررتُ إلى الاستسلام إلى الأسبرين والشاي الساخن.

عادة ما تعكر نزلات البرد مزاجي، ولكن في هذه المرة كنتُ سعيدًا بالبقاء في المنزل؛ لأنني بهذه الطريقة سأتلقى مكالمة الشخص الذي نشر الإعلان في "بوليتيكا".

وبعد ثلاثة أيام، ومع انتهاء نزلة البرد، بدأتُ أشك في حدوث المكالمة؛ لذلك كان اندهاشي كبيرًا في يوم الثلاثاء، أعتقد أنه كان كذلك، عندما أتاني صوت رجل في الطرف الآخر من الخط يقول: إنه يتصل ردًا على استجابتي للإعلان.

قال: إنه قد انتابه الفضول لمعرفة المكان الذي سمعتُ فيه صوت الكون وهو يموت.

أجبتُ: على ضفة النهر، أي مكان آخر يمكن أن أكون؟ سألني الصوت: كيف كان يبدو الصوت؟

فأجبتُ: فريدًا من نوعه.

قال الصوت: أفهم.

وصمت فجأة، ثم سألني: هل أنت على يقين من أنك لم تخبر أحدًا؟

كذبتُ ثانية: لا أحد.

obeikandi.com

أصر الصوت: ولا حتى والديك؟

قلتُ: والدي توفيا.

فصمت الصوت مرة أخرى، ثم اعتذر لي بصوت منخفض أزعجني، مُضيفًا أنني أعلم حقًّا كيف يموت الكون.

قلتُ: لكن الآن حانت لحظة الميلاد، أليس كذلك؟

سألني الصوت: كيف ستفعل ذلك.

أجبتُ: سأكون لطيفًا، ولن أرفع صوتي أبدًا.

قال الصوت: جيد.

وللحظة ظننتُ أنه لن يتحدث مرة أخرى.

سألني الصوت: أيمكنك أن تذهب إلى نفس المكان هذا المساء؟

أجبتُ: بالتأكيد.

فقال الصوت: في الثامنة.

وأغلق الخط.

ظللتُ أضع سماعة الهاتف على أذني لفترة أطول قليلاً، كما لو كانت دقة إشارة الهاتف يمكنها أن تفسر شيئًا ما.

وبعيدًا عن الإشارة، في مكان ما بعيد جدًّا، تمكنتُ من سماع أجزاء متقطعة من محادثة، ثم تلاشت هي الأخرى.

وضعتُ سماعة الهاتف مكانها، ونظرتُ إلى الساعة.

كان لدي أكثر من ساعتين حتى موعد اللقاء، وذلك إذا كُنا نفكر في نفس المكان، أي: رصيف الميناء المجاور للملعب.

obeikandl.com

لم أكن أريد أن يكون هذا سوء فهم، صفعة مختلفة تمامًا، وصفعة ثانية، أو ثالثة، الكون؛ لذلك عندما حان وقت المغادرة اختطفتُ سترتي، وتوجهتُ إلى رصيف الميناء.

كان المتنزه في ذلك الوقت من اليوم ممتلئًا بالناس، على الرغم من الغيوم السوداء التي تتحرك بسرعة عبر السماء المظلمة، والتي زادت من صعوبة مراقبة الشخص الذي يُفترض أن ألتقي به.

بدا الرجل الذي تحدثتُ إليه في الهاتف وكأنه شخص كبير في السن، رغم أن ذلك الانطباع قد يكون خاطئًا، فربما يكون شابًّا تغير صوته بسبب هاتف قديم أو تالف.

وبالطبع قد أسمع، ومن المحتمل أن أكون قد سمعت، صوتًا مختلفًا تمامًا عبر الهاتف، وبالتالي فإن الشعور بالخيانة المتبادلة هو فقط المتوقع؛ ولهذا السبب، وربما نتيجة انعدام الأمن، قررتُ أن أتجول حول البناية الشاهقة والاقتراب بشكل مستعرض من لعبة الخيل الخشبية البالية، والتي يأتي من عندها صوت الأطفال وهم يصيحون، وذلك من خلال موقف مظلم للسيارات وبين صفوف من السيارات.

وعلى طول الضفة، بين الأشجار، فضلاً عن قرب المباني السكنية، وخاصة عند الأبنية الشاهقة، كانت هناك واحات من الظلال الداكنة حيث يمكن الاختباء، رغم أنني لا يمكن أن أتصور سبب رغبة شخص ما يريد مقابلتي في الاختباء.

اقتربتُ أكثر من الملعب، وخطوتُ على الممر، ثم التفتُّ إلى اليمين، نحو المقعد الذي جلستُ عليه آنذاك، وأُخذت المقعد، مثل بقية المقاعد؛ لذلك قررتُ أن أقف هناك ناظرًا للنهر ووهج "بلغراد"، وانتظرتُ.

وبعد خمس عشرة دقيقة، قلتُ لنفسي: إنني مجنون، ومع ذلك

obeikandl.com

لم أتزحزح.

وفي الوقت نفسه، نهضت مجموعة من المراهقين من على المقاعد التي كانوا يجلسون عليها، وهم يصيحون ويسبّون، تاركين نصف دائرة من البصاق على الرصيف.

انتظرت حتى يبتعدوا، ثم اتجهتُ نحو المقاعد، ومسحتُها بمنديل وجلستُ بصعوبة، كما لو كنتُ سائرًا لأيام.

التفت برأسي إلى الخلف ونظرتُ إلى السماء.

ومباشرة فوق رأسي، بين الغيوم، رأيتُ نجمتين.

وبعد لحظة، تحركت سحابة فرأيت نجمة ثالثة.

وبعد ذلك، خلف رأسي تمامًا، سمعتُ صوتًا يسألني: إذا كان المقعد المجاور لي خاليًا.

عندما نظرتُ بجانبي، رأيتُ رجلاً عجوزًا أشيب الشعر، منحنيًا قليلاً.

كان يحمل مظروفًا كبيرًا.

أخذ ينظر إلى وجهي، وتنحنح، ووضع المظروف على حافة المقعد، وأسند رأسه على يده، واستسلم للنوم.

لم يصدقني ماركو، لقد رأيت ذلك في الطريقة التي هز بها رأسه.

قلتُ: لم أجرؤ على الحركة، لم أكن حتى أتنفس، وربما أيضًا لم أرمش، فلقد كنتُ على قناعة بأن أقل صوت أو حركة يمكن أن توقظه، وهو ما أحسست بعواقبه الكارثية، كبداية عهد جليدي جديد، أو انشقاق للكون كمنديل ممزق.

ثم سمعتُ صوتًا بأذني اليسرى يطلب مني بلطف، بل بمنتهى

obeikandi.com

اللطف، أن آخذ المظروف؛ لأن وقت العودة قد حان.

فالتفتُ، لم يكن هناك أحد.

صدى صوت يهمس في أذني، على الرغم من أنني لم أعد قادرًا على تمييز الكلمات.

خفضتُ رأسي، وأغلقتُ عيني، وعندما فتحتهما مرة أخرى كنتُ وسط أكشاك السوق في هذا الليل الشديد الظلمة.

كنتُ أحمل المظروف الذي كان يحتوي على صفحات من مخطوطة.

فكرتُ أنني عندما أخبر ماركو بكل هذا فسيحبطني.

وبالفعل، عندما انتهيت من رواية ما حدث، كاد ماركو يسقط من فوق مقعده.

ضحك وقال: كل هذه الحفلة التنكرية ليتم إعطاؤك مخطوطة، مهلاً، كان يمكنهم تسليمها لك في المنزل يا رجل، لمَ يضيعون وقتك على رصيف الميناء؟ هل هؤلاء الناس على دراية في أي قرن يعيشون؟ لقد سألتُ نفسي عن ذلك، لكنني لم أقل شيئًا.

انتظرتُ حتى يغادر ماركو.

كان هناك حد لما يمكن أن آخذه من تعليقه، ولم أكن مستعدًّا لتخطي الحد المسموح به في ذلك المساء.

ولنفس السبب لم أهتم بإخباره بأنني عندما وضعت المخطوطة على الطاولة عندما وصلتُ إلى المنزل، خُيل لي أنني رأيتُ على المظروف صورة باهتة لنفس الشكل الهندسي، ولكنها اختفت فيما بعد.

بالنسبة لي، قد يكون هذا سحرًا؛ وبالنسبة لـ ماركو كان يمكن أن تكون فرصة أخرى للسخرية من مثل هذه الفكرة والحديث عن

obeikandi.com

التفاعلات الكيميائية التي يمكن أن تجعل نصًّا مرئيًّا أو غير مرئي، حسب الطلب.

لا يمكنني أن أسمح له بالوصول إليّ.

كنتُ قد أصبتُ بما يكفي من خيبة الأمل عندما وصلتُ إلى المنزل؛ فتحتُ المظروف بحذر، وأخرجتُ حزمة سميكة من صفحات مطبوعة على طابعة ليزر تابعة لشخص ما.

لا أعرف ما كنتُ أتوقع، بالضبط، ربما نقشًا غامضًا أو نسخة من وثيقة ثمينة، لكنني بالتأكيد لم أتصور مطبوعات على الكمبيوتر.

قلّبتُ صفحاتها بسرعة، ثم وضعتها مرة أخرى داخل المظروف الذي أسقطته في درج في مكتبي؛ حيث بقي حتى أتى ماركو ليسمع ما حدث لي.

وبعدما غادر، استطعتُ إعطاء المخطوطة اهتمامي الكامل، بدت مختلفة بالنسبة لي، إنها حتى بدت أثقل.

على الصفحة الأولى كانت هناك كلمة واحدة فقط: "البئر"، بينما في الصفحة التالية كُتب: (حلم غير مُفسر كرسالة غير مقروءة).

لم أعرف ما إذا كانت المخطوطة كلها عبارة عن رواية لحلم – حلم للكاتب - أو ربما - ولما لا - حلم لي، لكنني عندما تفحصتُها عن قرب اكتشفتُ أن الأحلام هي محورها.

إذا طلب مني شخص ما وصف المخطوطة، لم أكن متأكدًا من قدرتي على ذلك.

بدأت كرواية تاريخية، ثم تحولت إلى تاريخ من الأحلام، تلاه مجموعة من تمارين "قبالاه" المزودة بمجموعة متنوعة من قوائم الأشخاص، والأحداث، والنفقات المادية، والكتب، والأعمال الفنية، والأوعية الخزفية، وبعد القوائم كانت هناك أشعار وحكايات

obeikandi.com

وحوارات درامية تكملها خاتمة موجزة، وفي النهاية فهرس مفصل، والذي اكتشفتُ في وقت لاحق أنه له علاقة ضئيلة بالمخطوطة نفسها.

أوحى ذلك لي بأنه قد يكون هناك أجزاء أخرى من المخطوطة، أو أنها تشير إلى أجزاء، كما قال ماركو، لم تُكتب.

وتابع ماركو قائلاً: إن هذه الطريقة ربما ينبغي أن تكتب بها جميع الكتب؛ لأن الفهرس هو جوهرها، وإذا كان هناك أحد يعرف مضمون ما يريد شخص ما كتابته، إذن فمن السهل ملء المساحات بين الأبواب وإقامة الصلات.

ذكرتني المخطوطة بكتاب الرمال الذي رجاه بورجيس بشدة في كل مرة كنتُ أفتحها، كانت المخطوطة تتغير، فتكون ببداية جديدة أو نهاية جديدة، ولم تستطع أيّ من هذه البدايات أو النهايات عرقلة الاستمرارية، بل على العكس، أصبحت جزءًا من كل.

هذا هو، أتذكر أنني قلتُ لـ ماركو حينما كُنا نقلب صفحات المخطوطة معًا: إن هذا هو ما كنتُ أريده دائمًا؛ نصًّا أكرس حياتي له.

كل شيء تغيّر بعد ذلك، وإذا كان هذا كتابًا، فالآن فقط سيبدأ في إشراك القارىء، ولكنه ليس كتابًا، إنه اعتراف، أقوله في مهب الريح عند نهاية غابة؛ فالكلمات المكررة، كما هو الحال دائمًا، تتلاشى، تختلط بالنيتروجين والأكسجين ومن يدري ماذا أيضًا، وحتى أنا، وأنا أتحدث لا يمكنني سماعها.

ومع ذلك، ينبغي أن أذكر أنه على الرغم من لاختلافات الأساسية بين بعض أجزاء المخطوطة، كان هناك موضوعان مهيمنان: أحدهما كان تاريخ مجتمع "زيمون" اليهودي، الذي برز في النصف الأول من القرن الثامن عشر عندما، بعد أن سقطت "بلغراد" مرة أخرى في أيدي العثمانيين عام ١٧٣٩م، ظل اليهود في "زيمون" بأعداد أكبر قليلاً؛ والموضوع الآخر: كان عبارة عن مجموعة من موضوعات "القبالاه"

العديدة، والتي ظلت تتشابك وتُحل، رغم أنه بالنسبة لي، وبصراحة تامة، يمثل دائمًا عقدة محكمة.

كانت هناك موضوعات أخرى في فصل أو فصلين على الأكثر، على الرغم من أنني ربما لم ألحظها في أماكن أخرى من المخطوطة، أو أنني ببساطة لم أتمكن من إدراكها.

هذا لا يزعجني؛ لأن هذه الموضوعات الأخرى لا تلعب دورًا في التغيير الذي ذكرته، والذي يمكن ربطه بوضوح بالموضوعات المحورية في المخطوطة.

عندما أدركتُ أنني بحاجة لمعرفة المزيد عن المجتمع اليهودي التفتُ إلى اليهود الذين أعرفهم؛ كالكاتب: إسحق ليفي، والمؤرخ: ياكوف تشفارك الذي أخذني إلى المتحف التاريخي اليهودي في "بلغراد"، حيث أُعطيتُ نسخًا من مختلف الكتابات حول يهود "زيمون".

حينما كُنا نشرب القهوة ونتناول المصة، اتجه إسحق ليفي إلى الباب المجاور لتلقي مكالمة هاتفية.

وعندما عاد أخبرني أن المكالمة كانت من ياتشا ألكالايا، وهو رسام يعمل في "القبالاه"، والذي عندما سمع عني اقترح عليه أن يحضرني ليفي إلى مرسمه.

وفي الوقت الذي افترضتُ فيه أن الدعوة لم تكن مناسبة، اقتنعت الآن بأنها لم تكن كذلك؛ فـ ياتشا كان يعرف أنني في المتحف، وهكذا وقعت بسهولة في الفخ.

أمضينا تلك الليلة بأكملها في مرسمه، نعبث باللوحات والشمعدانات والأشياء الملونة التي التقطتها من الشوارع.

كان إسحق ليفي كاتبًا، ولكن ياتشا ألكالايا كان يمكنه أن يحكي قصة، وبمجرد أن يبدأ، لا يبدي أي ميل إلى التوقف.

استغرق جوابه على سؤالي الأول، والذي كان يتعلق بوجود التابعين لـ "قبالاه" في "بلغراد"، ما يقرب من ساعتين.

ثم ذهب للبحث عن زجاجة أخرى من البراندي، وأحضر صحنًا من الجبن والزيتون، لكنه لم يكفّ عن الحديث، رغم أن حديثه بدا أشبه بالغمغمة، كشخص يتحدث مع نفسه.

لقد حذرني إسحق ليفي وياكوف تشفارك من أن أساله عن الحدسية؛ لأنه حينئذ لن يتوقف عن الحديث حتى الفجر، ولكنني بالصدفة، مثلما يحدث أي شيء بالصدفة، ذكرت مارتن بوبر، وكانت تلك هي الطريقة التي أنهت بقاءنا في الاستوديو حتى الفجر.

كان إسحق ليفي مستغرقًا في نومه على أريكة منخفضة، واستطاع ياكوف بالكاد الحفاظ على عينيه المحتقنة بالدماء مفتوحتين، وكانت رأسي على وشك الانفجار عندما اعتذر ياتشا ألكالايا؛ فلم يعد قادرًا على التحدث معنا، كان عليه أن يسرع إلى أكاديمية الفنون حيث ينتظره طلابه، ولكن كلّما رغبتُ في ذلك، كما قال، أتمكن من الاتصال، أو الأفضل زيارة الاستوديو زيارة قصيرة، دون الحاجة إلى الاتصال مقدمًا؛ كان هناك مفتاح تحت ممسحة الأرجل، فقط أرفع الزاوية السفلية من جهة اليمين أو اليسار، وإن كانت في بعض الأحيان تنزلق إلى الجانب، ولكن ليس في كثير من الأحيان، كما قال، فلا يمكنني فتح الباب والدخول والانتظار.

الشيء الوحيد الذي يجب عليّ ألا أفعله حين أنتظر هو: الرسم.

كنا حينئذ واقفين عند باب الاستوديو، ورفع ياتشا ألكالايا زاوية ممسحة الأرجل فانحنينا لنرى المفتاح.

وبدأ إسحق ليفي في الشخير مرة أخرى وهو يتكىء على إطار الباب، أسقط ياتشا ألكالايا الممسحة، ووضع قليلاً من الغبار، ونهض وسارعنا جميعًا نحو المصعد، كما لو كُنا نهرب من عاصفة رملية.

وبعد يومين، وبمجرد أن أكملتُ مقالتي في "الدقيقة" عدتُ إلى الاستوديو، عازمًا في هذه المرة على توجيه عدة أسئلة واضحة الصياغة إلى ياتشا ألكالايا عن الناس والأحداث المذكورة في المخطوطة، وذلك لمنعه من الشرود في تداعيات معانيه الملتوية.

دققتُ جرس الباب، ولكن لم يكن هناك أي استجابة.

فعرفتُ أن ياتشا لم يكن هناك، وباتباع تعليماته بحثتُ عن المفتاح تحت ممسحة الأرجل.

ثم غيرتُ رأيي، وسحبتُ يدي إلى الوراء، وأعدتُ الممسحة كما كانت.

قلتُ لـ ماركو بعد ذلك: إنني لم أستطع الاستمرار؛ لأنني غير قادر على الدخول إلى شقة في غياب مالكها؛ لذلك اتجهتُ إلى المصعد في الجانب الآخر من الممر.

وبينما كان المصعد في طريقه إلى أسفل خطر لي أنني يجب أن أترك رسالة موجزة، ولكن حينئذ كان الأوان قد فات؛ وإلى جانب ذلك، فمن الأفضل، لتنحية سوء الحظ جانبًا، وعدم تقفِّي خطوات أحد، أو في هذه الحالة استخدام نفس المصعد، ولم أكن على وشك الصعود إلى الطابق الرابع عشر.

فكرتُ في الانتظار لحظة عند مدخل المبنى، فكما قلتُ لـ ماركو: من يدري؟ فربما خرج للتوّ إلى السوبر ماركت، أو متجر الخمور، أو إلى الكشك الموجود في الزاوية، وأنه على وشك العودة.

كان هناك صبي يرتدي سترة من الجلد يقف على درجات المدخل؛ كان ينظر وهو منحني الرأس في مجلة مفتوحة على ركبتيه.

ربما لم أكن لألحظه، أو ربما كنتُ لألقي نظرة خاطفة عليه حينما كنتُ أخطو ذهابًا وإيابًا أمام المبنى، لكنه رفع رأسه، واتسعت عيناه

في دهشة.

سرتُ بضعة خطوات، وعندها فقط توقفتُ، والتفتُ.

كان الصبي، الذي يوليني ظهره، يضغط بشدة على الأرقام في هاتفه الخلوي.

وعندما وضع الهاتف على أذنه التفت إليه.

نظرنا إلى بعضنا البعض، ورغم أنني لا أعرف السبب، كما قلتُ لـ ماركو، اتخذتُ فورًا طريق العودة إلى المنزل.

لم أنظر خلفي؛ فلم أكن أريد أن أعرف ما إذا كان الصبي يتبعني، أو لا يزال واقفًا عند المدخل، مستمعًا إلى ما كان يطلبون منه فعله؛ لذا خفضتُ رأسي، وأحنيت كتفيّ، ومشيت بخطى أسرع، وكان كل ما استطعتُ أن أفكر فيه هو: إنني لا أستطيع التفكير.

كانت رأسي عبارة عن فراغ شاسع عميق تنبض به الدماء بشكل مؤلم، لم يكن هناك مجال للتفكير، على الرغم من الفراغ.

وفقط بعد أن عبرت العديد من الشوارع استطعتُ التفكير بوضوح.

لقد هربتُ.

ثم التفتُ وتطلعتُ إلى اليسار ثم إلى اليمين، وعرفت أنه لم يكن يتبعني أحد.

فكرتُ: لا أحد يتبعني، ولكنني لستُ متأكدًا.

فكرت: كلا، لستُ متأكدًا.

دخلتُ إلى متجر، ووقفتُ عند نافذة العرض.

كان العديد من الناس يسيرون في الشارع، ولكن لم يكن أيٌّ منهم

obeikandl.com

يشبه الصبي.

اعتقدتُ أنه يجب أن أتصل بـ ياتشا، ثم تذكرتُ أنه لم يكن بالمنزل.

وهو أمر لم يعد في محله؛ لأنني لم يكن لدي رقم هاتفه.

ذهبتُ مرة أخرى إلى الشارع.

لم يكن الصبي يتبعني، فاستطعتُ أن أتنفس الصعداء.

وكما قلت لـ ماركو: هذا الأمر كان عندما لاحظتُ أنني لم أعد أفكر في الجمل؛ فالكلمات المفردة هي كل ما كان يدور برأسي: منزل، على سبيل المثال؛ هذا ما فكرتُ به "منزل"، وليس، كما قد تتوقع، "أنا ذاهب إلى المنزل"، ثم فكرتُ "سيجارة"، على الرغم من أنني أردت أن أفكر "يمكنني أن أدخن سيجارة الآن"، ثم "العزلة"، ثم عرفتُ بعد ذلك أن ما أفكر به حقًّا هو: "في يوم من هذه الأيام ستكلفني العزلة عقلي".

سألني ماركو: وإلى متى استمر ذلك؟

أجبتُ: عندما وصلتُ إلى المنزل فكرتُ "مياه"، رغم أنني أردت أن أفكر: "أنني ظمآن حقّا"، وبعد أن تجرعتُ كوبًا من الماء عاد كل شيء إلى طبيعته.

عندما نظرتُ إلى المرآة في الحمام سخرت من مخاوفي، ولكن، ولا داعي لإخفاء ذلك، يداي كانتا ترتعشان.

قال ماركو: إذا أخبرتُ أي شخص آخر بهذا الأمر فسيعتقد أن عقلك قد اختل، أو أنك تعاني من أوهام الجنون بالشك؛ أولاً: الرجل ذو المعطف الأسود الواقي من المطر، ثم ذلك الإعلان الغامض، ثم مخطوطة غريبة الأطوار، والآن هذا الصبي الذي يتلقى تعليمات على هاتفه الخلوي.

سألته: وأنت، ماذا تظن؟

أجاب ماركو: أنا صديقك، وأعطاني سيجارة جديدة، والأصدقاء لا يسألون، فهم يعرفون.

ومع ذلك، في اليوم التالي، هز رأسه، وقال: إنه لا يعرف كيف يمكن لشيء من هذا القبيل أن يحدث.

على الباب الأمامي لشقتي، وبقلم ذي حبر أسود ثقيل، وبخطوط كلها مختلفة الأحجام، كتبتُ تلك الكلمات: أولئك الذين يتصادق ومع اليهود سينتهي أمرهم ليلاً.

بدأت الرسالة في الزاوية اليسرى العلوية، وكانت أول ثلاث كلمات في الصف العلوي: كلمة "مع" والمكتوبة بخط أصغر من الكلمات السابقة، كانت في الصف الثاني بمفردها، ربما بسبب الرغبة في التأكد من أن اليهود كانوا بارزين ومرئيين بشكل مناسب؛ تلك الكلمة احتلت السطر الثالث، ولكن لسبب ما كانت مائلة، كما لو كنت تبحث عن ممسحة الأرجل الموجودة أمام باب شقتي؛ تبعها الجزء الأول من التحذير، والذي كان مكتوبًا بحروف منتظمة بشكل يدعو للاستغراب، بل إنها كانت حروف تسر العين، ثم قامت كلمة "ليلاً" لتفرق كل شيء، والتي كانت مكتوبة بحروف غير منتظمة، ربما لتنقل رعب الليل.

وحول هذه الكلمة؛ كالأجرام السماوية الصغيرة حلقت ثلاثة صلبان معقوفة(ثلاثة)، وجماجم منطبقة على أسلوب معين (اثنان)، وقضيبان (اثنان)، ورموز مختلفة لم تكن مألوفة بالنسبة لي (أربعة)، وعين واحدة والتي ادعى ماركو أنها تحمل شكل المهبل.

لم أكن أرغب في مناقشة ذلك الأمر ثانية، فسرعان ما انضم إلينا الجيران، وكلٌّ كان لديه اقتراح بخصوص ما يجب أن أفعله.

بدأ الجار الذي يسكن بالشقة المقابلة في مسح إحدى هذه الحروف بطرف سبابته، وقال: إنه تلطخ، فلا توجد مشكلة، فسوف

تُمسح، وإن لم تتلطخ فهذا يعني أنهم استخدموا حبرًا دائمًا، ولن يكون لديك خيار سوى أن تقوم بطلاء الباب بأكمله.

كان الحرف الذي يقوم بمسحه هو "ي" في "اليهود".

فتلطخ، وتنفسنا جميعًا الصعداء.

قال جاري الذي يسكن بالطابق الأرضي: إن هذه القذارة يجب غسلها على الفور.

وفي تلك اللحظة كنتُ على وشك الذهاب، وإحضار المياه ومنظف وخرقة، ولكن أوقفني جاري بالطابق العلوي، والذي أصر على الاتصال بالشرطة أولاً، أو على الأقل التقاط صورة للباب، وإلا كما قال، سنعتبر متواطئين مع هؤلاء الأشرار، ونمنحهم الضوء الأخضر لارتكاب أعمال أكثر مدعاة للشغب.

أجبتُ: حسنًا، وأخرجتُ الكاميرا، ونقرتُ مرتين، إلا أنها لم تعمل في المرة الأولى، فذهبتُ كي أحضر معدات التنظيف الخاصة بي.

وبينما كنتُ أجر الخرقة عبر الباب في حركات جارفة واسعة، سمعتُ جيراني وماركو يوجهون اللوم، ويسبّون الحكومة، ثم لمح شخص ما فأرًا في الدرج، واتخذت المحادثة مسارًا جديدًا؛ درب صناديق القمامة القذرة الفائضة، والحدائق المهملة، والشوارع غير المكسوحة، والشعور العام من تهاوي الأشياء.

وفي الوقت نفسه انتهيتُ من تنظيف الباب، ولم تعد الحروف مرئية، ولكن الباب اكتسب ظلاً قاتمًا، كسبورة تم محوها على نحو غير مستقر، فلا يزال المسار المتقوس للإسفنج وطبقات الطباشير مرئية، على الرغم من أفضل جهود مرقاب الفصل.

قال ماركو: الآن هذا أفضل.

وقال جاري في الطابق العلوي: هيا اتصل بالشرطة.

وأضاف جاري بالطابق الأرضي: في المرة القادمة استخدم كمية أكبر من المنظف.

وعلّق جار لم ألتقِ به قط قائلاً: هؤلاء الحمقى يجب أن يُنفذ فيهم حكم الإعدام.

وقال جاري بالطابق الأرضي: الهمّة تصنع العجائب.

وقال جار من عبر الردهة: المدهش أنني لم أسمع شيئًا.

وقال الجار الذي لم ألتق به قط: إنهم حثالة الأرض.

وأضاف الجار الذي يسكن في غرفة الغسيل المحولة: أود أن أرسل كلاً منهم مباشرة إلى المحجر، وأتحداك إن أخبرتني أنهم فعلوا شيئًا من هذا القبيل مرة أخرى.

وقال الجار الذي لم ألتق به قط: المجنون فقط هو من يفعل ذلك.

وعلّق ماركو: بل أسوأ من المجانين.

وقال جاري بالطابق الأرضي: معك كل الحق.

التقطتُ الخرقة من الإناء، وقمتُ بعصرها، ومسحتُ الباب مرة أخرى.

خفّ لون تلك البقعة قليلاً، وبدأ الجيران في التفرّق.

قال الجار الذي لم ألتق به قط: إذا كنت بحاجة إلى أي شيء فأنت تعلم أين تجدني.

لم أكن بحاجة إليه، ولكن كنتُ مترددًا في قول ذلك.

كان على ماركو أن يغادر أيضًا؛ فلقد كان لديه موعد مع تاجر بالقرب من فندق "سلافيا"، وكان في عجلة من أمره.

obeikandl.com

وفي غضون ثوان أصبحتُ واقفًا بمفردي أمام بابي القذر.

التقطتُ إنائي، وخطوت إلى الردهة، وأغلقتُ الباب خلفي، وأزلجتُه، وعقفتُ السلسلة.

سكبتُ المياه القذرة في المرحاض.

ذهبتُ إلى الحمام، وغسلتُ يدي.

ثم عدتُ إلى الردهة، وفتحتُ السلسلة والقفل، وأخيرًا الباب.

بدت البقعة أكثر قتامة، ولكن لا شيء بخلاف ذلك.

أغلقتُ الباب والقفل، وعقفتُ السلسلة.

نظرتُ من خلال العين السحرية؛ كان الرواق فارغًا.

رن جرس الهاتف.

كان ياتشا.

كان يريد معرفة: ما إذا كنا سنلتقي ثانية أم لا؟

أخبرته بما حدث، وبعد صمت قصير قال: إن عاجلاً أو آجلاً سيعرف الجميع وجههم الحقيقي.

وتابع قائلاً: مع ذلك، فأكثر ما يعنيني هو: إنني يجب ألا أولي أي اهتمام لتلك السخافة، بل أظل على المسار الصحيح.

سألته: وما هو مساري الصحيح؟

فأجاب: إن التلمود يقول: إنه إذا كنت لا تعرف إلى أين تذهب، فإن أي مسار سيأخذك إلى هناك.

سألته: ولكن ماذا يحدث إذا كنت تعرف إلى أين أنت ذاهب؟

فأجاب ياتشا: إذن فالمسار لا يهم، وأغلق الخط.

تمتم ماركو: ثمة شيء ما هنا.

كُنا نجلس في متجر للحلوى في شارع ماكيدونسكا، على الجانب الآخر من مركز الشباب، وكُنا نتناول فطيرة من الكريمة، ونشرب البوظة.

رفعت امرأة تجلس على الطاولة المجاورة فطيرة من الكريمة بحذر شديد نحو أنفها، وتشممتها.

فقلتُ: المعادلة ذات المجهولات الكثيرة للغاية لم تعد معادلة، ولكن فوضى.

قال ماركو: هذا أمر لصديقك عالم الرياضيات.

وطلب كأسًا آخرًا من البوظة.

فكرتُ: ولِمَ لا؟

على الرغم من أن ذلك لم يكن وقتها، ولكن بعد عدة أيام، عندما وجدتُ قصاصة من الورق في صندوقي البريدي مع نجمة صفراء، وعليها صليب معقوف سميك أسود اللون.

في صباح ذلك اليوم نُشر مقالي في "الدقيقة" والذي يدور حول: ضرورة التسامح في المجتمع المدني كي يتقدم، وكنتُ على يقين من أن الرسم الأخرق كان ردًّا على اقتراحي، والذي كنت أرى فيه أننا لا ينبغي أن نشك في شخص ما لمجرد أنه أو أنها صيني، أو مرح، أو يهودي، أو منبوذ اجتماعيًّا؛ فالشك يعني: أننا لا نؤمن بأنفسنا، بمعني: إننا لا نمتلك أي شيء.

لم يكن عالم الرياضيات، زميل الدراسة السابق، له حيلة في ذلك، ولكنني كنتُ آمل في أنه يستطيع توجيهي؛ فنحن في بعض الأحيان نتعلم من هؤلاء الذين لا نتوقع أن نتعلم منهم شيئًا، أو من هؤلاء

الذين نتوقع منهم شيئًا مختلفًا تمامًا.

ومع ذلك، لم أكن أرغب في مطاردته حول بنايته الشاهقة؛ لذلك اتصلتُ بالمرأة التي كانت تلقاه من آن لآخر قبل أن تنتقل إلى "بانوفو بردو"، وسألتها: عمّا إذا كان في مقدورها بأي بطريقة أن تحضر لي رقم هاتف دراجان ميتشوفيتش؟

قلتُ: إننا جميعًا نمتلك هواتف في الوقت الحاضر، وإنه لا يمكن أن يعيش بدونه.

فقالت: إنه إذا كان يمكنه ارتداء معطف الشتاء في منتصف الصيف، فيمكنه أن يعيش دون أن يكون لديه هاتف.

ووعدت بالاتصال بمن كانوا يذهبون إلى المدرسة معنا، والذين كانت تراهم في كثير من الأحيان قبل أن تنتقل إلى "بانوفو بردو".

وذكرت العديد من الأسماء، ولكن أيٌّ منهم لم يقرع جرسًا.

وعندما أخبرته بذلك، قال ماركو: ربما لم تكن معهم في نفس الفصل.

فهو يعرف الاسم الأول والأخير لكل زميل له، حتى المكتب والصف الذي كان يجلس فيه كل منهم.

وأضاف: يمكنني أن أرسم لك تخطيطًا لفصلي كله، ولو كانت معه قطعة من الورق وقلم رصاص في ذلك الوقت فلا شك أنه كان سيفعل ذلك تمامًا.

اتصلت بي المرأة التي اعتادت أن تقابل دراجان ميتشوفيتش في اليوم التالي، وتباهت بأنها تمكّنت من الحصول على رقم هاتفه من أول شخص اتصلت به؛ لأنها - تعني المرأة الأخرى - قامت بتنظيم معظم لقاءاتنا الحديثة، كما أنها تمتلك جميع أرقام هواتف الباقين.

أملتني الرقم، وحذرتني من أن دراجان ميتشوفيتش نادرًا ما

يجيب هاتفه، وأنني يجب أن أكون صبورًا، وأن أتصل مرارًا وتكرارًا؛ حتى يجيب الهاتف في النهاية.

اتصلتُ به على الفور.

اسمي لم يعنِ له شيئًا، وفقط عندما ذكرته بتفسير الدائرة والمثلثات تذكر من أنا.

قلتُ: ليس هذا سبب مكالمتي.

فقال دراجان ميتشوفيتش: إذن، فكل شيء واضح؟

لم أجب.

فقال: أفهم ذلك؛ ففي بعض الأحيان يبالغ علماء الرياضيات قليلاً، مثل معظم المهنيين، رغم أنني يجب أن أخبرك بأنني فكرت في وقت لاحق أنني أرسل لك إضافة؛ لأنه في اليوم التالي، ذكرني هذا الرسم البياني بالخطوة الأولى في عملية البناء التكرارية لأحد نمطيات الهندسة الكسيرية المعروفة والمُسماة بـ "مثلث سيربنسكي".

قلتُ: بالتأكيد.

فما الذي يمكن أن أقوله خلاف ذلك؟

قال دراجان ميتشوفيتش: لن أروي القصة كلها، ولكن هذه الكسيرية نمت من قرعة عشوائية لزهر النرد، والعديد من منظري الأنظمة الديناميكية كانوا مفتونين بها، معتبرين أن هذا الإجراء أظهر كيف ينبع النظام من الفوضى، وهو ما خدم أعضاء مدرسة "إيليا بريغوجين ببروكسلفكان"، دليلاً على أن الكون لم يكن يتعين عليه طاعة القانون الثاني للديناميكا الحرارية، أو أن النظام لا ينتهي في نهاية المطاف إلى حالة من الفوضى والانهيار، ولكن على العكس.

إلى لحظة معينة سيبدأ فيها تنظيم نفسه بشكل آخر.

"بالتأكيد"، قلتها مرة أخرى.

وأضاف دراجان ميتشوفيتش: بالطبع، لا أصدق ذلك على الإطلاق، لسبب بسيط أن هذه سذاجة البالغة، حتى عندما يتم التعبير عنها في هذا الشكل المبسط.

توقّف عن الكلام، وعمّنا الصمت لفترة.

كان يمكنني سماع صوت أنفاسه تمامًا، كما كان بإمكانه أن يسمع صوت أنفاسي، رغم أنني حاولت دس سماعة الهاتف تحت ذقني، بعيدًا عن فمي.

ثم عطس دراجان ميتشوفيتش وقال: وإن لم يكن الأمر كذلك، ما الذي تريد أن تسألني عنه؟

عطستُ أيضًا وسألته: هل عدد المجاهيل في المعادلة محدود؟ أعني: ماذا يحدث في المعادلة التي يوجد فيها عدد كبير جدًّا من المجاهيل؟

فأجاب دراجان ميتشوفيتش: هذان سؤالان منفصلان.

الجواب على السؤال الأول بسيط: كلا.

سألته: ماذا عن السؤال الآخر، أهو نفس الجواب؟

فأجاب دراجان ميتشوفيتش: هذا يتوقف على الطريقة التي تُعرِف بها "المجهولات الكثيرة جدًّا".

فقلتُ: أنا لا أُعرِفهم على الإطلاق؛ ولهذا اتصلت بك.

تابع قائلاً: انظر على سبيل المثال إلى المعادلات التي تحتوي على اثنين من المجاهيل، ربما تذكرها؛ فهي تصف العديد من المنحنيات في المستوى؛ وبالتالي فإن مجموعة الأزواج (x,y) الموجودة بالمعادلة: $f(x,y) = 0$ ترسم منحنى، على سبيل المثال، $X2 + Y2 = 1$ هي معادلة

opeikandil.com

لدائرة يبلغ قطرها 1، ومركزها في الأصل.

بطريقة أخرى، فإن عبارتنا "مجهولات كثيرة جدًّا" تمثل فكرة أساسية لكل من ديكارت وفيرمات، والتي تربط الجبر بالهندسة أو المعادلة بالمنحنى.

سؤالك يحتوي على هندسة تحليلية في جميع أبعاده، وأحتاج إلى عدة ساعات فقط كي أبدأ.

قلتُ: أوه!!

فتابع دراجان ميتشوفيتش: هذا هو سبب أنه سيكون من المفيد أن تعرف: لمَ تسألني؟ لأنني يمكن أن أكون حينئذ أكثر دقة.

قلتُ: اسمح لي أن أضعها بهذه الطريقة؛ فعلى مدار الأيام القليلة الماضية قابلت العديد من المجاهيل، وأنا حريص على فهم مجهول واحد فقط؛ لأنه إذا ظلت المجاهيل تتضاعف فلن تصبح معادلة، ولكن فوضى مطلقة.

قال دراجان ميتشوفيتش: في بعض الأحيان يمكن للمعادلة أن تصبح فوضى، ولكن من الأفضل ألا نذهب في هذا الاتجاه، دعونا نحاول أن ننظر إليها بطريقة مختلفة، أو دعنا نفترض أنه من بين تلك المجاهيل مجهول واحد فقط، هو: مجهول حقيقي، والباقي قيم وسيطة.

إذا فعلنا ذلك فسيكون الأمر أسهل.

لم أكن أعرف: لماذا سيصبح أسهل؟ ولكني وافقتُ ضمنيًّا.

وتابع دراجان ميتشوفيتش: بالطبع، يكون هذا ممكنًا فقط في ظل ظروف اختصاصية معينة، والتي توفرها نظرية الدالة الضمنية.

فكرتُ: ربما، ربما لم يكن من الصواب الاتصال به.

obeikandi.com

قال: لا تقلق، كما لو كان يقرأ أفكاري.

وتابع: لن أزعجك بكل التفاصيل، وإلى جانب ذلك، أتذكر كم كنت تكره الرياضيات في المدرسة الثانوية.

اعترضتُ قائلاً: هذا ليس صحيحًا، المشكلة ليست أنني كرهتها، بل أنها لن تفيدني.

قال دراجان ميتشوفيتش: يمكنك وضعها بهذه الطريقة إذا أردت، ولكن الذكريات تشبه الفوضى إلى حد كبير، لذا فمن الأفضل بالنسبة لها أن نتركها كما هي.

وفي هذه الحالة سأقول فقط: إن هذه النظرية تقول لنا: إنه في المجموعة المتناظرة للمعادلات تُعرف بعض المتغيرات على أنها دالات متغيرات أخرى بشرط، وبطبيعة الحال، أن تكون مصفوفة جاكوبي غير صفرية بالتأكيد.

وعليه، إذا تم استيفاء جميع الشروط، وقمنا بعزل مجهول واحد في معادلتك، والذي نسميه: المجهول المميز، واعتبرنا جميع المجاهيل الأخرى قيمه الوسطية سنصل إلى دالة جديدة؛ سنسميها الدالة "ي"، التي تفي بالمعادلة الأولية، ورغم ذلك، وهذا هو الجزء الأذكى في المسألة كلها؛ فليس لدينا فكرة عن حقيقة هذه الدالة، أو كيف تبدو.

بعبارة أخرى، وسأختتم بهذا، هناك حل يمكن التعبير عنه كدالة، ولكن ليس هناك شيء يخبرنا كيف نصيغه على نحو أوثق؟

قلتُ: إذن، فأنت تعرف، ولكن لا تعرف.

فقال دراجان ميتشوفيتش: كلا، أنت لا تعرف، ولكن تعرف.

اعترفتُ: لا أفهم كلمة واحدة من ذلك.

فتابع بصبر: الأمر بسيط جدًّا، اختر مجهولاً من بين كل المجاهيل،

وعندما تحله سيتكشف الباقون.

سألته: أتقصد أن تقول: أنهم مترابطون في نهاية المطاف؟

فأجاب دراجان ميتشوفيتش: فات أوان الحديث عن جنون العظمة، ثم تنحنح، وأغلق الخط.

استمعتُ لبعض الوقت إلى الضوضاء البيضاء القادمة من كبلات الهاتف، ثم أغلقتُ الخط.

سألني ماركو حينما كُنا نتنزه في المساء التالي: هل كنت تتوقع حقًّا أنه سيعطيك جوابًا مباشرًا؟

أجبتُ: كلا.

كان المتنزه ممتلئًا بالناس؛ فكان الأطفال يصيحون، والفتيات يتحركن بسرعة، محدثين أزيزًا بواسطة المزلجات، وكان الصبية يصفّرون ويصرخون.

كانت مراكب المطعم تتأرجح على الماء، وتعلو بها الموسيقى الصاخبة، بدءًا من التوربو الشعبي وحتى الريغي.

كنتُ أشعر أن الأيام باتت أطول، وأن الشمس معلقة بلا حراك على الحافة الغربية للأفق.

اقترحتُ على ماركو أن نشتري آيس كريم على عصا، لكنه رفض، واعترف بخوفه من الإصابة بتشقق في لسانه.

فقلتُ: لا يمكن أن يحدث هذا، وابتعتُ مخاريط الآيس كريم.

تجولنا على الدرجات المؤدية إلى نهر "الدانوب"، ولعقنا الآيس كريم في صمت.

تواصلت الدرجات إلى أسفل المياه، كما لو كانت تنزل إلى أطلنتس.

obeikandl.com

كان سطح النهر تعلوه الموجات، وكانت موجات صغيرة تتناثر بصمت على الدرجات الخرسانية.

نادى شخص ما من أعلى الدرج قائلاً: انظروا إلى السماء، ستمطر غدًا!

فقال ماركو: كل شخص أصبح خبيرًا بالأرصاد الجوية هذه الأيام.

مر زورقان أمامنا ببطء، في طريقهما إلى المرسى عند البناية الشاهقة، وتناثرت المياه بصوت مرتفع عند زوايا الدرجات.

قلتُ: أعتقد أنني عرفت ما الذي أراد قوله لي.

فرفع ماركو حاجبيه بتساؤل.

فتابعتُ - بادىء ذي بدء - قلبي يخفق بقوة، يجب أن أقبل احتمال أن كل شيء مترابط، وأن لا شيء بمعزل، وأن كل شيء هو جزء من كل، وهو ما يعني أن ما لا أعرفه ولا أفهمه، وأن الأسئلة والمصاعب التي أنا بصددها مترابطة أيضًا.

استمر ماركو في صمته، والتصق لسانه بحلقه.

اتخذت شفته العليا شكل شارب أبيض.

مرّ قارب آخر، وهو يتحرك على طول النهر نحو البناية الشاهقة، ومرة أخرى خرخرت المويجات عند زوايا الدرجات.

قال ماركو: فقط أخبرني كيف ستحدد حقيقة الرابطة بين صفعة على الرصيف وعلامة على الرصيف؟ ومخطوطة على "القبالاه" والتاريخ والتهديدات المعادية للسامية، وهذا المكان الذي يتصرف كما لو كان حفرة خارج الزمن، وأي شيء آخر، أعني: من أين ستعرف من أي هؤلاء تنبع الأشياء الأخرى؟ أو في أي مسار يتدفقون؟ وهو ما يعد تقريبًا نفس الشيء؟ لم أجب؛ فلم أعرف.

حتى اليوم لا أعرف.

ومع ذلك، لم يتردد ياتشا ألكالايا ثانية عندما سألته نفس السؤال بعد عدة أيام في مرسمه.

فقال: "القبالاه".

تنهَّد إسحق ليفي، ورفض ياكوف تشفارك هذا التعليق بتلويح بيده.

قال ياتشا ألكالاي: تجاهلهم؛ فهم عبيد منطق الخط المستقيم بالنسبة لهم، إمّا شيئًا أو آخرًا، لا يمكنهم أبدًا أن يتبنوا فكرة أن شيئًا ما قد يكون شيئًا وآخرًا في آن واحد، وفي الوقت نفسه بالنسبة لهم؛ فالكوب إمّا ممتلىء أو فارغ، ولا يفهمون أن الكوب الفارغ ممتلىء أيضًا، وأن الكوب الممتلىء فارغ أيضًا.

اعترض إسحق ليفي قائلاً: هراء، إذا كان الأمر كذلك فستكون قادرًا على إجابة سؤال: ماذا سيحدث عندما أشرب نصف السائل من كوب ممتلىء؟ هل سيكون الكوب إذن نصف فارغ أم نصف ممتلىء؟

فقال ياتشا ألكالاي: كلاهما، كم مرة يتعين عليّ إخبارك؟

التفت إليّ، وقال: تلك هي الطريقة التي يعذبوني بها ككافر حقيقي.

فصاح ياكوف تشفارك: من؟! نحن الكافرون؟! أنت الوحيد فينا الذي لا يذهب إلى المعبد.

فقال ياتشا ألكالايا: جسدي هو معبدي، لمَ أحتاج إلى الكنيس؟

فأجاب ياكوف تشفارك: هذا هو سبب أن اليهود في محنة؛ فبدلاً من اللجوء إلى الرب، يتوقعون أن يأتي الرب إليهم.

ضرب إسحق ليفي الطاولة بيده، وقال: هل سنتجادل، وهو ما

obeikandl.com

يمكننا القيام به دائمًا؟ أو سنستمع إلى هذا الرجل الذي يجازف بحياته بمجيئه إلى هنا؟

قال: إن لم يكن الأمر خلاف ذلك فيجب أن نحترم ذلك.

وقال ياتشا ألكالاي وإسحق ليفي: بالتأكيد، بالتأكيد.

ثم تطلع كلاهما في وجهي؛ فربما توقعا مني أن أقول شيئًا.

لم يتبادر شيء إلى ذهني.

ظننتُ أنه من الأفضل الذهاب إلى الشرفة، ورؤية ما إذا كان أي شخص مراوغ يتسكَّع حول مدخل المبنى، ولكن لم أكن أرغب في إزعاجهم.

لقد كانوا قلقين بالفعل من الرسائل المعادية لليهود المكتوبة على باب شقتي؛ أرادوا، مثل جيراني، أن أتجه رأسًا إلى الشرطة، وتمكنتُ بالكاد من إقناعهم بأن هذا لم يكن مطلوبًا، ولكن كان عليّ أن أعدُ بالكتابة عن هذا الموضوع في عمودي في "الدقيقة".

قال ياكوف تشفارك: إذن، ماذا يحدث؟ لعقت شفتي، وارتشفتُ قليلاً من البراندي الذي سكبه ياتشا، وفركتُ أرنبة أنفي، وقلت: إذا كان جوهر كل شيء متضمن في بعض جوانب "القبالاه"، كيف يمكنني أن أصل إليه؟ وكيف يمكنني أن أكون على يقين من أن هذا هو الطريق الصحيح؟ لأنني لو لم أعرف ما الذي أبحث عنه؛ كيف سأعرف أنني وجدته؟

أجاب ياتشا ألكالاي: ليس الأمر سهلاً، ولكنه ممكن.

ابتسم وهو يقول ذلك، وهو ما أثار الشكوك بداخلي، ولاحظ إسحق ليفي نظرتي المرتابة، وقال: ثق به.

على الرغم من أنه لا يفاجئك بأنه الشخص الذي يستحق ثقتك،

obeikandi.com

وأيّده ياكوف تشفارك قائلاً: أحيانًا يكون مثل هؤلاء الأشخاص أكثر جدارةً بالثقة من أولئك الذين يبدون جديرون بالثقة.

فقلتُ وأنا غير مقتنع: حسنًا، س...

قاطعني ياتشا ألكالاي: إذا كانت الشكوك تنتابك فلا تعبأ بالبداية.

وقال إسحق ليفي: الشك في البداية يوازي الهزيمة في النهاية.

وصاح ياكوف تشفارك قائلاً: المرتاب في البداية يتخلى عن شكه في وقت لاحق.

وإذا قضينا المساء بأكمله في التحدُث بهذا النمط الإيقاعي، كل جملة لي يليها تعليق ثلاثتهم، هل أنفجر ضاحكًا؟

فقال ياتشا ألكالاي وهو يغمز بعينه: ربما نبدو سخفاء، ولكن هذا يرجع إلى أننا أصدقاء منذ فترة طويلة، وأننا نعلم بالضبط ما الذي يفكر به كلٌّ منا.

تساءلتُ: منذ متى؟

نظروا إلى بعضهم البعض، وقال ياتشا ألكالاي: خمسمائة عام، إن لم يكن لفترة أطول.

رفعتُ زجاجة الخمرة الصغيرة وتشممتها.

فكرتُ: من يدري، ماذا يشربون؟

وتابع ياتشا ألكالاي قائلاً: بالطبع، لا يمكننا تذكّر كل شيء؛ فأقرب ما نتذكره هي السنوات التي قضيناها في صالة الألعاب الرياضية بـ "بلغراد" قبل الحرب.

وقال ياكوف تشفارك: وحيث إنه قال ذلك؛ فبعضنا تحرّج، والبعض لا.

obeikandi.com

اعترض ياتشا ألكالاي: الرجل مهتم بـ"القبالاه"، وليس في اختلافاتنا القليلة.

على أي حال، الغرض الوحيد من المدرسة هو إبعاد الأطفال والشباب لبضع سنوات عن أولياء أمورهم القلقين، الذين يبالغون كي تتلاقى النهايات.

فقلتُ: دعونا نترك المدرسة والنظام التعليمي، دعونا نتحدث عن "القبالاه".

تحدث إسحق ليفي وهو يُمسك بزجاجة البراندي: بادىء ذي بدء، لا جدوى من عدم الصبر.

وقال ياتشا ألكالاي: دعونا نبدأ هنا، وهو يتجه نحو كومة من اللوحات في الزاوية، ثم عاد ومعه واحدة، وقال: اسمها "عباءة الروح".

كانت اللوحة تصوّر إنسانًا غير محدد الجنس، حافي القدمين، في أرض عشبية، في غابة، وتشكيلة زاخرة من الرموز تحوم حوله.

كانت الرموز كلها يهودية تقريبًا؛ تعرّفتُ على نجمة داوود السداسية ومن وراه، وأول حرف من الألف باء العبرية، وحروف عبرية أخرى.

كانت بعض أجزاء من الجسم مكشوفة، كما لو كان في أطلس تشريحي؛ بحيث إن تجاويف الجسم كانت واضحة للعيان، على الرغم من أنها لا تحتوى على أعضاء، أو أن الأعضاء غير مصورة، بل على العكس كانت المداخل بأكملها يضيؤها شعاع يأتي من الداخل، من نقطة مركزية تقع في المحيط العام للسرة، كما تسلل توهج شفاف الدواخل، وكان واضحًا في بعض الفوهات، لكنها لم تتجاوز طبقة الجسم، أعني: الجلد، وذلك الفضاء أو المنطقة المحايدة بين الجسم والشعاع ممتلئة بجسد ثانٍ - إذا كانت كلمة "جسد" تنطبق هنا – شفاف، ومتطابق في كل شيء عدا شفافيته للجسم الذي يعلوه.

obeikandi.com

باختصار، بدا هذا الجسد غير محدد الجنس ليشمل ثلاثة أجساد، كل منهم مطويًّا على الآخر، مثل الدمى الروسية، ما عدا أن الدمى الروسية مصنوعة جميعًا من نفس المادة، ولكن الأجساد الثلاثة لم تكن كذلك.

تابع ياتشا ألكالاي قائلاً: رسمتُها بعدما قرأتُ تفسير حاييم فيتال، وهو تابع لمذهب "القبالاه" في القرن السادس عشر، وتلميذ للمشهور إسحق لوريا، بأن الرب عندما يضع الروح في جسم الإنسان، عليه أن يضع وسيطًا بينهما، جسم نجمي من أنواع ما، فلو لم يكن هناك درع سيجتاح وهج الروح كل شيء؛ لذلك، عندما يرغب شخص في أن يتحدث مع روحه، فهو لا يتوسل إليها فسوف تجتاحه؛ بل إنه يتصل مع جسمه النجمي والذي يصل انعكاس روحه وانعكاس جسده.

قال ياتشا ألكالاي: ولكن لكي يرى الجسم النجمي، بل وحتى لكي يتواصل معه يجب على المرء أن يصل إلى أعلى مستوى من النقاء.

ستنفتح عيناه على جمال طبيعة الرب، ويرى كم أن نقاءه الشخصي جميل أيضًا.

ومن هنا، يهمنا أمران: على المرء أن يكون حذرًا عندما يستدعي الجسم النجمي؛ فلقد تم تسجيل العديد من حالات الاستدعاء التي نقلت الناس إلى جانب اليسار، كما ورد في "القبالاه"، أي: جانب الشر، في حين أن الأمر الآخر الذي يجب أن نأخذه في الاعتبار هو أن ظل المرء يعتبر في الواقع إسقاط لجسده النجمي، وهذا هو سبب قول الكتاب المقدس: "إن أيامنا على الأرض هي بمثابة الظل"، وهو ما يعني أنها وجيزة؛ لأن كل ظل لا يدوم إلا لفترة قصيرة، ولكنها - أيضًا - انعكاس لصافي الجسد النجمي، والمسجل به كل أيامنا، وكل ما كان، وكل ما سيكون، وهو الأهم الآن.

الأنبياء عبارة عن بشر يمكنهم استدعاء ظلالهم، أو بتعبير أدق أجسادهم النجمية كلما أرادوا، والتي ستخبرهم بما سيحدث.

سألته: ولكن كيف يمكن للجسد النجمي أن يعلم كل ذلك؟

فأجاب ياتشا ألكالاي: من خلال الهبوط في لحظة الإدراك مع الروح، كما لو كان عباءتها، وفيه - في الجسم النجمي - يتم تسجيل صورة الكائن الجديد، وكل شيء عن حياة ذلك الكائن في الأيام والسنوات الآتية.

صاح إسحق ليفي بعبارة أخرى: من يرى ظله فسوف يرى مجرى حياته.

وأضاف ياكوف تشفارك: ومن يتعلم التحدث معه فسيعلم كل ما يريد أن يعرفه.

بدا كل شيء مُعتادًا عليه، وللحظة ظننتُ أنه سيكون من الأفضل لي أن أغادر، ولكن بعد ذلك قال ياتشا ألكالاي وهو يبتعد عني: يحتاج المرء للشك، ولكن لا يحتاج المرء إلى الإيمان بالشك.

ابتلعتُ مشروبي، وشهقتُ، وسألتُ: هل هناك المزيد من البراندي؟

وعندما رُفعت جميع الكؤوس رفع إسحق ليفي كأسه، ودعانا للشرب في نخب الظلال.

انتظرتُ حتى هدأت لسعة لساني، ثم سألتُ: كم من الوقت يستغرق تعلم كيفية استدعاء ظل المرء؟ فشاهدتُ ثلاثة منهم يتبادلون النظرات، ويهزون أكتافهم، ثم قال ياتشا ألكالاي في النهاية: اثنا عشر عامًا، أو سنوات، وأحيانًا أكثر من ذلك.

وإلى الآن، لا أعتقد أنه صورة حقيقية.

وعندئذ شعرتُ بفمي يُفتح في دهشة نقلت بصري من واحد لآخر، وحاولتُ فك شفرة: ما إذا كانوا يمزحون أم لا؟

قال ياتشا ألكالاي: هناك أولئك الذين يتمكنون من فعل ذلك في

غضون ست سنوات، ولكنهم أتباع موهوبون نجحوا بالفعل في صعود مراحل انبثاقات "القبالاه".

قلتُ: إذا كانوا بحاجة لكثير من الوقت لرؤية الظل، ما الفترة التي يحتاجونها لرؤية الجسد الذي يلتقي بذلك الظل؟

فأجاب ياتشا ألكلاي: الجسد يكون دائمًا مرئيّا، والظل كذلك، لكنهم ينظرون بعين خاطئة.

فقط عندما يتعلم المرء أن يرى، فقط عندما تكون العين نقي تكون رؤية الجسم ممكنة كما هو حقًّا، ولكن الظل لن يعد ظلاً حينئذٍ، ولكن عباءة للروح عباءة تُكتسب خلال الإدراك، ويضيفها نسيج الأيام، والأعمال الصالحة التي يقوم بها المرء خلال عمره.

سكب إسحق ليفي بقية البراندي في كؤوسنا، وقال: لا يمكن استعجال الأشياء، وما يجب أن يحدث، بغض النظر عن حقيقته، سيحدث عندما يحين أوانه.

على سبيل المثال، في هذا الكأس الذي أحمله سرعان ما سيفرغ من البراندي.

ورفع الكأس إلى شفتيه، وتجرعه مرة واحدة، ثم قلب الكأس فلم تقطر منه قطرة واحدة.

عرض ياتشا ألكالاي فتح زجاجة أخرى؛ فأشار ياكوف تشفارك برأسه موافقًا، فأعلنتُ بسرعة مغادرتي لهم.

البراندي الذي شربته والذي كان أكثر من المعتاد قد أضعف ركبتي، وقد عتَّم عيني، ولم أكن أريد اختبار ردود فعل جسدي تجاه المزيد من الكحول.

تملصتُ من جهودهم التي تسعى لإقناعي بالبقاء، وسرعان ما وجدتُ نفسي في سيارة أجرة، والتي سارت خلال شوارع ضعيفة

obeikandl.com

الإضاءة حتى زيمون.

لم يكن هناك أحد عند بوابة البناية التي يسكن فيها ياتشا ألكالاي، لم تتبعنا أي سيارة، لم يكن هناك أحد يقف أمام المبنى الذي أسكن فيه؛ كان الدرج خاليًا؛ كان باب شقتي مغلقًا كما ينبغي أن يكون، وممسحة الأرجل لم تُمس.

وبحلول ذلك الوقت كنتُ بالكاد قادرًا على الحركة، وكل ما أردته هو أن أسقط على سريري، وأن أستسلم للنوم، وهو ما فعلتُه على وجه السرعة.

وعندما فتحتُ عيني مرة أخرى، كانت الساعة بجانب سريري تشير بالضبط إلى الثالثة صباحًا.

ما الذي أيقظني؟ أكان شخص يحوم حول بابي؟ نهضتُ، ومشيتُ إلى الردهة، وألصقتُ أذني على الباب، وحبستُ أنفاسي؛ فلم يكن هناك صوت.

فتحتُ القفل ثم الباب فتحة صغيرة دون أن أحلّ السلسلة، ونظرت في الممر.

لم يكن هناك أحد يقف عند ممسحة الأرجل، ولم تكن هناك عين شخص تلمع في الظلام.

أغلقتُ الباب، وعدتُ إلى غرفة نومي.

اتجهتُ نحو النافذة، وتفحصتُ الشارع، والمباني القائمة في جميع أنحاء الطريق؛ كان الشارع مهجورًا، وكل النوافذ داكنة، فقط الضوء الأصفر للإشارات الضوئية هو ما كان يضيء بصورة خافتة.

كان فمي مرًّا وجافًّا، وهو ما لم أتوقعه من البراندي، أعترف بذلك.

أكلت قطعة من حلوى تركية في المطبخ، وشربتُ كوبًا من الماء.

obeikandi.com

أشارت الساعة إلى مرور ذلك سبع عشرة دقيقة منذ أن نهضت.

ظللتُ أنظر إلى واجهة الساعة حتى تحرك العقرب الكبير درجة، ثم تذكرتُ ما أيقظني؛ فقد كنتُ أحلم بأنني أقف على ضفة تيار جبلي سريع، والذي يختلف كثيرًا عن نهر "الدانوب" الذي يسير ببطء بين السهول، وإذا بصوت يعلن أرقامًا: سبعة عشر، خمسة وثلاثون، ثلاثة وأربعون، ثمانية وتسعون.

وعند العدد النهائي، كانت هناك سلة منسوجة تحركها المياه، والتي تستقر فيها بدلاً من طفل مهمل، المخطوطة التي أعطاني إياها الرجل العجوز الغامض.

مددتُ يدي نحو السلة، وانزلقت قدمي على العشب الرطب، ووقعت بوجهي في النهر، وعندما تناثرت المياه على وجهي استيقظت.

كانت الساعة الآن الثالثة والنصف تقريبًا.

ذهبت إلى غرفة مكتبي لإحضار المخطوطة، وأنا أكرر الأرقام التي سمعتها في حلمي.

في الصفحة السابعة عشر قرأتُ: إن رجلاً شابًّا لكنه حكيم يُسمى إليعازار، صوفي ومعلم، كان جزءًا من مجموعة مكوّنة من نحو عشرين يهوديًّا، معظمهم من الأشكنازيين، وهي أسر وصلت إلى "زيمون" عام ١٧٣٩م.

لم يكن يُعرف عنه الكثير، على الرغم من أنه ربما كان أول من قام بأداء الشعائر الدينية حتى قبل وصول الحاخام يهوذا ييروحام.

وذكرت المخطوطة أنه حتى ذلك الوقت، لم يكن هناك يهود يعيشون في "زيمون"، أو على الأقل ليسوا بأعداد كبيرة.

في عام ١٧١٧م، عندما هزم النمساويون العثمانيين، واستولوا على

"بلغراد"، استقر العديد من التجار اليهود هناك جنبًا إلى جنب، مع مجموعة أكبر من التجار والحرفيين النمساويين.

ومع ذلك، عندما استعاد العثمانيون "بلغراد" بعد حوالي عشرين عامًا، انسحب هؤلاء اليهود من "بلغراد"، واختاروا أن يجعلوا موطنهم في "زيمون".

يمكن العثور على آثار "إليعازار" هناك اليوم، ولكن من الصعب أن يعرف أي شخص هذا، أو حتى أن يرغب في معرفة ذلك.

كانت الفقرة التالية تتناول طريقة تعامل السلطات النمساوية مع سكان "زيمون" اليهود، ولكن لم يكن هناك مزيد من الذكر لـ"إليعازار".

ومع ذلك، في الصفحة الخامسة والثلاثين من المخطوطة، وبعد فقرة تذكر الحاخامات الذين خدموا في كُنيسات "زيمون" بعد يهوذا ييروحام، وإسرائيل ألكسندرو جوزيه، وفرايدنسبيرجروتشلومو، وهيرتشو يهوذا بن تشلومو، وحاج ألكالايواس، ودي تاوبروهينكو، وأورباه، وكانتور، وجيرتشون كاتشكا في كُنيس "الأشكنازيين"، وأبي أهارون، وتشابتا جوموشييه باهار، وحاخام جيتشاك موسافيا في الكُنيس "السفارديم"، كانت هناك فقرة غير مرتبطة بالسرد: هنا لا بد للمرء من تذكر – أيضًا - أن إليعازار كان لا يزال يتذكر كلمات هيرميس عن كيف أنه، أي: هيرميس كان يبحث عن أسرار التكوين؟ وكيف أنه ذهب إلى كهف عميق تحت سطح الأرض، والذي تهبُّ من خلاله رياح قوية؟ وهناك ظهرت أمامه صورة بالغة الروعة بصورة لا تصدق؛ صورة مكتوبة في التوراة أن الرب خلق الإنسان على صورته، وهذه الصورة، التي تمثل طبيعته المثالية، أرشدت هيرميس بشأن ما ينبغي القيام به للحصول على المعرفة الخاصة بأكثر الأمور سموًّا.

وعلاوة على ذلك، كُتب، وهو ما كان سبب عزل إليعازار أناه أحيانًا عن نفسه، أنه حرر نفسه من جسده حتى يتمكن من رؤية نفسه ضعيفًا وواضحًا، يضيؤه ضوء داخلي عجيب آت من الروح الإلهية.

ولكن ما استطاع "إليعازار" القيام به، وبسهولة ملحوظة، لم يفلح مع أي شخص آخر؛ لذلك ربما لا يوجد معنى للحديث عن ذلك مجددًا.

بالفعل، لم تتضمن الصفحات القليلة التابعة أي ذكر له حتى الصفحة رقم ثلاثة وأربعين، حيث الجزء الذي يدور حول إليعازار، والذي يبدأ بعبارة: "وفي الوقت نفسه"، كما لو كانت مأخوذة من جملة أكبر، والتي عُرضت فيها تاريخ حياته بمزيد من التفاصيل.

وهكذا في هذه الأثناء، كُتب في أسفل الصفحة أن إليعازار تساءل أكثر وأكثر في كثير من الأحيان: لماذا لم يخلق الرب – وله المثل الأعلى- عالمًا مثاليًّا؟ ولكن على العكس خلق عالمًا يوجد فيه مكان ودور للشر.

فهم إليعازار التفسير القبالاني بأنه لم يكن من الممكن خلق عالم مثالي؛ لأن ذلك كان سيعني أن الرب، وهو الكمال، يكرر نفسه، يصنع نسخة من نفسه، والرب، في طبيعة الأشياء، لا يمكن أن يتكرر، لا يمكن أن ينسخ نفسه، بل يمكنه فقط أن يحد نفسه.

ومن هنا، هناك شر في هذا العالم، ليس كقوة منفصلة كالشر المحض، ولكن دائمًا وفقط كجزء من كل، وبالتالي في روح الإنسان منذ بدايتها، هناك جراثيم للخير والشر على حد سواء؛ فالرب ليس ضعيفًا، ولكنه على العكس أكثر سخاء.

لم يكن هذا ليرضي إليعازار، وبعد فترات طويلة من التأمل والمرور بكل الاحتمالات، قرر الاقتراب من الجانب الأيسر؛ جانب الشر.

ومع أخذ هذا في الاعتبار، وقف إليعازار في دائرة الضوء النابع من مصدر خاص، ولكن بطريقة تمكّنه أن يرى ظليه؛ الظل الذي كان يمثل جسمه النجمي، والظل الذي يحمل شرارة حياة الجسم النجمي، والذي نادرًا ما يُظهر نفسه، ولهذا السبب احتاج إلى قول بعض الكلمات المحددة عندما ظهرت قوات قذرة، والتي سادت ظلال إليعازار، وبعد ذلك لم يرَ أحد إليعازار مرة أخرى.

obeikandi.com

لم يُذكر اسمه مرة أخرى إلا بعد مرور خمسين صفحة.

وقبل هذه الإشارة الأخيرة، تناولت المخطوطة مقبرة "زيمون" اليهودية، ثم تاريخ موجز عن كُنيس "زيمون"؛ لذلك فلا يتضح لمَ وُضعت الفقرة التي تتناول مصير إليعازار هنا؟

محتوى الفقرة في هذا الفصل هو كالتالي: " اليوم، في مكان ما في "زيمون"، موضع تتقاطع فيه قوى الخير والشر، وحيث إنه من الممكن إذا كان الشخص يعرف الكلمات الصحيحة الانتقال من عالم إلى آخر، بل وحتى الانتقال إلى عالم من الاحتمالات اللا منتهية، أو عالم من العوالم اللا منتهية، والتي تنبع من الانبثاقات الإلهية العشر التي تتضاعف بلا نهاية، وتزوّر من جديد الواقع الذي نعيش فيه... خارج يوم جديد قد، والذي بزغ منذ فترة طويلة.

أشارت الساعة إلى السابعة والنصف صباحًا، مما يعني أنني أمضيت أربع ساعات وأنا أتصفح المخطوطة، ومع ذلك لا أستطيع فهمها بوضوح.

قلتُ لـ ماركو: إذا كانت تلك هي أحد كتب الرمال فيجب أن أجد حبيبات من الرمال بين يدي بعد قراءتها، ولكن لم يكن هناك رمال بين يدي، ولكن كمية كبيرة من الغبار وخرق الورق.

وبعدما قرأتُ أن ممر إليعازار إلى العالم الآخر لا يزال موجودًا في "زيمون"، كانت أول ما خطر على بالي هو الزاوية في الفناء المُطل على شارع "جوفينا".

لم أكن قد ذهبت إلى هناك لعدة أيام، تمامًا كما لم أفكر في المرأة التي كانت تقف عند رصيف الميناء؛ لأن الظروف والأحداث المتصلة بالتحذيرات المكتوبة على باب شقتي جذبتني إلى اتجاه آخر، والذي ربما كان سبب الشعور المزعج بالتوازن الواهن الذي يطاردني منذ أسابيع.

obeikandl.com

رششتُ وجهي بالماء، وتناولتُ قطعة من الخبز المفروشة بالعسل، بينما كنتُ أنتظر تقرير الأحوال الجوية في البرنامج الإذاعي الصباحي (غيوم، رياح، مع احتمال فرصة سقوط أمطار في فترة ما بعد الظهر).

ارتديتُ ملابسي، ووضعتُ قطعة من العلكة في فمي، وغادرتُ الشقة.

قررتُ السير إلى شارع "زماي جوفينا" باتخاذ أقصر الطرق من خلال وسط المدينة.

عرضني هذا لعوادم السيارات، لكنني كنتُ سكرانًا ومنهكًا للغاية بعد قراءتي الليلية للمخطوطة؛ فلم أستطع اتخاذ أقصر الطرق المباشرة بالسير إلى جانب الرصيف.

فكرتُ في طريق عودتي أن أتخذ ذلك المسار، ولكن يجب أن أتجوّل - أولاً - خلال السوق، وأشتري بعض الصمامات الكهربية، ومقبسًا جديدًا للهاتف من المتجر الذي يبيع قطع الغيار، وبعد ذلك، من خلال السير على طول نهر "الدانوب"، يمكنني استنشاق وزفر الهواء بأعمق ما أستطيع، وأنا أهز ذراعي بقوة لتسريع الدورة الدموية، واستعادة توازني، وسرعة إيقاع خطواتي.

كان شارع "جالفنا" ممتلئًا بالناس، والسيارات، وغيوم العوادم الزرقاء، والضوضاء، كما فتح الباعة المتجولون أكشاكهم المؤقتة أمام المتجر الشامل.

لم تكن الغيوم التي وعدنا بها مذيع الراديو بشدة قد ظهرت بعد، إلا إذا كانت في الأفق، بعيدة عن الأنظار بسبب صفوف البنايات، فتشع الشمس، وإن كانت لا تزال شمس الربيع، حرارة يصعب تحملها، وتبتلع الظلال مثل تابع مذهب "القبالاه".

فكرتُ: لو كان شخص ما قبل بضعة أسابيع أخبرني أنني سأنخرط في تعاليم الصوفية عن الخير والشر كنتُ سأظن أنه مجنون، ولكن

الآن نفس هذا الشخص يمكنه أن يقول لي: إنني مجنون، وإنني أمسك بالسراب.

قررتُ أن الشيء الوحيد الصحيح هو أنني أفكر في ذلك بينما أسير عبر شارع "دوبروفاتشكا"، والذي كان قلب الحي اليهودي بـ"زيمون"، وحيث واصلت الأشجار الجديدة والقديمة إلقاء ظلالها المليئة بهواجس الشر والوعد.

وبمجرد أن أصبحتُ في الشارع، فكرتُ أنه يجب أن أذهب إلى الكُنيس، على الرغم من أنهم لا يعرفون شيئًا عن إليعازار عندما بُني المعبد؛ لأنه من الممكن دائمًا، وأحيانًا يكون أمرًا لا مفر منه، أن يحدث ما ينتظره المرء في آخر مكان يمكن توقعه، سواء كان ذلك ضوءًا سماويًّا ساميًّا، أو كسرات فخارية التي احتفظت بالظلام الأرضي في يوم ما.

مررتُ بالسينما والفندق، وفي الزاوية، عند محل الأحذية، اتجهتُ إلى شارع "زماي جوفينا".

كان ملصق "تاي تشي" لا يزال معلقًا في نفس مكانه على البوابة الخشبية الكبيرة، ولكن بتاريخ مختلف لانطلاق دورة المبتدئين، كما لم يكن هناك أي دائرة أو مثلث.

كان الين واليانغ حقيقيين، عرفتُ ذلك عندما حاولتُ خدشهما.

كانت البوابة مفتوحة جزئيًّا، وكان الممر المؤدي إلى الفناء يشع بنضارة لطيفة؛ كان المقعد وشجيرات البرباريس كما هم، وكان الماء يقطر من المضخة، كما لو كان هناك شخص يملأ إناءً، أو ربما حوض غسيل، وانسحب بسرعة بمجرد أن سمع خطواتي.

اتجهتُ نحو المقعد وجلستُ، ولكن تمتمة الشارع والسوق الصامتة لم تتوقف، كما لم تبدأ الموسيقى في العزف.

نظرتُ إلى أعلى، ورأيت بقعة من السماء الزرقاء.

السماء لن تتغير حتى ولو تغير كل شيء.

أغمضتُ عيني، ورفعتُ أذني كالأرنب، وحبستُ أنفاسي.

لم يفلح شيء.

أغلقتُ عيني بقوة أكثر، واستنشقتُ الهواء بعمق، وزفرته ُببطء، ثم استنشقته مرة أخرى.

يجب أن يكون النوم قد غلبني؛ لأنني حينما فتحتُ عيني كانت هناك مكنسة على وجهي، والتي كانت تحملها امرأة هزيلة، صغيرة الحجم، ذات وجه ذابل، وبلا أسنان.

قالت: اذهب أيها المتسكع، انصرف فورًا.

ثم صاحت قائلة: ماذا تظن؟ ولوحت مهددة بالمكنسة، حديقة المدينة، لا يمكن لأي شخص ولو كان متسكعًا عجوزًا يستطيع النوم هنا.

دفعتُ المكنسة بعيدًا عن وجهي، ولكن هذا الأمر زاد من غضبها فركلتني.

نهضتُ، واتجهتُ إلى أسفل الممر، فقلبت المكنسة، وضربتني بها على ظهري.

ظننتُ أنها في قصة من قصص خارمس، كانت ستطير من النافذة، لكنني لم أكن في قصة من قصص خارمس، لقد كنتُ في "زيمون"، وحيث تردد صدى صوتها في الممر المنعش، حاولتُ أن أفهم ما حدث.

لم أسأل نفسي عن سبب وجود تلك المرأة العجوز صاحبة المكنسة هناك، ولكن لمَ لم يعد المكان يشع سحره؟ ما الذي تغير، المكان أم أنا؟

قال ماركو: ربما لم يتغير شيء، ربما لم يكن هذا يومًا مناسبًا لانسجام نصفي الكرة الأرضية.

سألته: ولكن ماذا عن هذه المرأة العجوز؟ ماذا سنفعل معها، خاصة إذا تبين أنها من الجانب الأيسر؟

ابتسم ماركو ابتسامة عريضة وقال: هل تعتقد بالفعل أن هذه المرأة العجوز ساحرة؟

فأجبتُ: لديها مكنسة.

احتج ماركو قائلاً: المكنسة لا تعني شيئًا، وإلى جانب ذلك، لماذا لا تكون السيدات المُسنات إلا ساحرات؟ ألا تظن أن هذا يعد تحاملاً؟

لم أجب.

فتابع ماركو: لماذا امرأة عجوز؟ لمَ لا تكون المرأة الشابة التي صفعها الرجل؟ سأهتم أكثر بساحرة شابة بدلاً من ساحرة عجوز.

لم نقضِ الكثير من الوقت معًا في وقت متأخر، فعلى الأقل لم نسلك الطريق الذي اعتدنا عليه، وتصادف هذا مع حدة ماركو، مع استعداده للتورط في جدال، للحفاظ على مسافة معينة.

لم أكن أعرف: ما الذي يجب القيام به حيال ذلك؟

كنتُ أقضي المزيد من الوقت مع ياتشا ألكالاي؛ كنتُ أظل معه حتى وقت متأخر، أقرأ مجموعة متنوعة من الكتب التي تتحدث عن مذهب "القبالاه" من مكتبته؛ كنتُ بالكاد قادرًا على التفكير في أي شيء آخر.

قلت لـ ماركو: إن أسوأ ما في الأمر هو: إنني لم أعثر على دليل أنني أسير في الدرب الصحيح، أو إنني أسير في أي درب بأي حال من الأحوال.

قلتُ: ربما أكون فقط أهيم بلا هدف.

وعندما كررتُ هذا على مسامع ياتشا ألكالاي، رفع سبابته وقال:

إذا أمكن العثور على علامة إرشاد فلن تكون على طول الطريق، ولكن في القلب.

تذكر ذلك.

وخلال الأيام القليلة التالية ظللتُ أذكر نفسي: "علامة في القلب" كنوع من المانترا.

ولكن لم يحدث شيء.

لا زلتُ لا أعرف: ما إذا كنت سائرًا في الدرب الصحيح؟ أم لا زلتُ غير قادر على تفسير لمَ لم يحدث أي شيء منذ أن كنتُ جالسًا على المقعد في الفناء في شارع "زماي جوفينا"؟ ولا زلتُ أتلمس طريقي في الظلام.

فبعد انسحابي من أمام المرأة العجوز، سرتُ مرة أخرى في الشوارع التي تؤدي من رصيف الميناء إلى مكتب رئيس الميناء، وفحصتُ بعناية مداخل البنايات، كما نظرت أسفل كل قطعة قمامة صادفتها، لكن لم أجد في أي مكان أي أثر للرمز الهندسي، لم يكن هناك في أي مكان أي تلميح من شأنه أن يرشدني إلى المرأة التي صفعها الرجل.

كنتُ متأخرًا مرة أخرى في تسليم مقالتي لـ"لدقيقة"، إلا أن رئيس التحرير لم يكن متعاطفًا كالمعتاد؛ فألقى علي محاضرة عن وجوب احترام كتّاب الأعمدة للقواعد، مضيفًا أنه إذا حدث ذلك مرة أخرى فلن يكون لديه خيار.

وعلى الرغم من أنني كنتُ أفضل بشدة أن أعود لأستكمل بحثي عن العلامة والمرأة، كتبتُ مقال عن تصاعد معاداة السامية في "صربيا".

فكراهية المجموعات العرقية الأخرى هي في الواقع كراهية للذات، هكذا بدأت.

obeikandi.com

ليس الآخر هو من نخشاه، إننا نخشى أنفسنا، نخشى التغييرات التي قد يفرضها وجود الآخرين؛ فعندما أقول: إنني أكره اليهود أو الغجر أو الكروات، والقائمة لا تنتهي، فإنني أعرب عن خوفي من أنه نتيجة لتأثيرهم، أو تأثير ما يمثلونه حقًّا أو رمزيًّا، سأضطر للتخلي عن بعض القناعات التي تهمني؛ فاقتلاعهم لقناعاتي، مهما كانت غير منطقية، يمثل اقتلاعًا لشخصيتي.

وهكذا، لو لم أتغير، ستوصف تلك القناعات بالعار وستُعزل وستُهجر، وإذا لزم الأمر فستُدمر تمامًا.

ولكن الشخص الذي يكره أعضاء الجماعات العرقية الأخرى يكون بذلك يكره شعبه، وبالتالي، إذا أعلنتُ أنني أكره الأجانب؛ فأنا أعترف أنني أعيش في فراغ، مجرد من محبة أي شخص.

والشخص المحروم من الحب، المُعطى أو المقدّم، لن يعد إنسانًا؛ فالحب: هو ما يَعرفنا في نظام الطبيعة الذي نعيش فيه.

وتابعتُ كلامي قائلاً: إن العدد المتزايد لحالات المعاداة للسامية لا يزال صغيرًا بالمقارنة بعدد هذه الحالات فيما يُسمى الدول الديمقراطية، ولكن هذه الإحصاءات، مهما كانت جذابة وغالية بالنسبة للدولة والسياسيين، لا تمثل أي مصدر للراحة بالنسبة لضحايا معاداة السامية.

واختتمتُ مقالتي قائلاً: لقد فات أوان إدراك السلطات أن هذه شرارة لو لم تنطفىء قبل فوات الوقت فستصبح بسهولة حريقًا هائلاً، لن يمكن إخماده بعد ذلك.

وبعد ذلك بالطبع سيكون الأوان قد فات؛ لذلك فالسرعة هي جوهر المسألة، وإذا كان لا يزال هناك متسع من الوقت، يجب علينا أن نسحق رأس الأفعى.

ليست فقط أفعى معاداة السامية، ولكن أفعى كل شكل من أشكال الكراهية، سواء كانت راسخة في اختلافات عرقية، أو جنسية،

أو حتى أيديولوجية.

وضعتُ لمقالتي عنوان: "في عش الأفعى".

قرأ رئيس التحرير النص مرتين قبل أن ينظر إليَّ ويقول: لن يُعجب الكثير من الناس بهذا.

فأجبتُ: أنا من أكتب، والباقي متروك لهم.

قال رئيس التحرير: نعم، ولكن من هم؟

فأجبتُ: سنرى.

وأنا لا أعرف أنني لن أنتظر طويلاً.

نُشر المقال بعد عدة أيام، وفي ذلك اليوم، أو بالأحرى في ذلك المساء، ذهبتُ إلى المسرح.

لا أذكر اسم المسرحية، وأعتقد أنه كان تعديلاً لاسم رواية لأحد كتّابنا الشباب، شيئًا عن المنفى الاختياري والهروب الحربي، لكنني أعلم أنها عرضت في المسرح القومي، والذي كان ممتلئًا بنصف سعته فقط.

كان هناك رجل على يميني بمقدار ثلاثة أو أربعة مقاعد يلعق شفتيه وهو نائم.

وفي الصف الأمامي، كان هناك شاب ذو شعر قصير جدًّا، ومعه امرأة شابة ذات شعر أحمر لم يتوقفا أبدًا عن التقبيل.

وإلى يساري، في المقعد الأول في الصف، جلست امرأة في منتصف العمر، كلّما نظرتُ كنتُ أراها تنظر إليّ.

وبمجرد أن ابتسمت، ونحّت خصلة من الشعر من على خدها، وضمت شفتيها، وأعطتني قبلة.

حاولتُ بأقصى جهدي التركيز على تغيرات المشهد الفوضوي،

obeikandl.com

والانحدارات الدائمة نحو الماضي.

وفي النهاية كان المشهد لغزًا بالنسبة لي؛ فلمَ تموت الأم ويقوم البطل، وهو على ما يبدو نجلها، بخلع ملابسه والمشي عاريًا حول المسرح؟

وعندما تجمد الابن أخيرًا في مكانه، وتوقف قضيبه عن التأرجح أُسدل الستار.

كان هناك شتات من التصفيق المتردد عندما ظهرت الأم ونجلها أمام الستار.

لم يعد الابن عاريًا؛ فكان هناك قطعة ملونة من القماش تغطي ما دون بطنه.

هدأ التصفيق، فانحنيا ثم تراجع وراء الستار.

كان الرجل العجوز الجالس إلى يميني لا يزال نائمًا، والمرأة إلى يساري كانت قد غادرت قبل التصفيق، ووقف الشاب والفتاة، وشدّ كل منهما قامته.

أصاب التنميل قدمي، فاتجهتُ ببطء نحو المخرج، وأنا أتهادى مثل البطة.

بالخارج كانت السماء تمطر رذاذًا، ولكن الميدان أمام المسرح احتشد بالناس.

نظرتُ إلى اليسار، وإلى اليمين، ولكن لم أرَ أيًّا من الوجوه المألوفة.

قبل سنوات عديدة، كان يمكنك أن ترى أشخاصًا يبيعون حشيشًا في هذه الساحة، ولكن الآن، حتى لو كانوا هناك، لا أستطيع اكتشافهم.

وجدتُ طاولة في أحد المقاهي القريبة، ووسط الموسيقى الصاخبة، والتي كانت معظمها موسيقى الروك الكلاسيكية، ارتشفتُ الكابتشينو.

"هذا هو الرعد" قالها زميل يجلس على المنضدة أثناء الاستراحة بين الأغنيتين التي غناهما الصفوة.

لم أستطع أن أتخيل كيف أمكنه سماعها، ولكن اعتبرتُ ذلك علامة على أن الوقت قد حان بالنسبة لي كي أعود إلى المنزل.

وبالتأكيد وأنا أسير نحو سفح التل وصولاً إلى محطة "زيليني فيناك" للحافلات، كان هناك رعدة أخرى، ثم بدأ المطر يتساقط، وبينما كنتُ راكبًا الحافلة المتجهة إلى "زيمون" هطلت الأمطار بشدة.

وعندما نزلتُ من الحافلة أحنيتُ رأسي، وانطلقتُ نحو بنايتي، وهناك، وبعد أن تخطيتُ آخر بركة اصطدمتُ بزميل في المدخل.

في الواقع شاهدته في آخر لحظة، وهو ما جعلني أتباطأ قليلاً، وأقلل من تأثير الاصطدام، وبدا أنه رآني؛ لأنه حيّاني بأذرع مفتوحة واسعة.

انتهت نظراتي عند صدره للحظة، في حين طوّق ذراعي ظهره، ولو كُنا أمام بصر أي شخص لظن أننا نتعانق بعد ابتعادنا لفترة طويلة.

سحبتُ نفسي وأنا على استعداد للاعتذار، ولكن الشخص يجتاح أمسك ذراعي بإحكام، وعبر أسنانه المُطبقة أمرني أن أبقى هادئًا.

ومن فوق كتفي، كما لو كان يتحدث إلى الفراغ، قال: إن كل شيء على ما يُرام.

التفتُ، ورأيتُ ثلاثة شباب آخرين.

وعلى ضوء مصباح الشارع الخافت، والذي أضعفه ظلام العاصفة، ظهروا إلى حد كبير مماثلين للزميل الذي يقف أمامي، والذي أمسك ذراعي بإحكام أكثر.

قال: دعونا نذهب، ودفعني بقوة تجاههم.

ظننتُ أنني سأسقط، ولكن الرجال أمسكوني بسهولة مكتسبة بالممارسة؛ فمن كان يقف في الوسط تكفّل برقبتي، في حين أمسك كل من الرجلين الآخرين بذراعي.

كان ينبغي علي التوقع بما هو آت، ولكن الشيء الوحيد الذي استطعتُ التفكير فيه هو: إنني سأنفجر ضحكًا إذا أخذوني إلى سيارة، ووضعوا عصابة على عيني.

اتجهنا إلى شارع "تيسلينا"، والذي كان أكثر قتامة؛ لاحتوائه على أشجار زاخرة بأوراق الربيع.

حاولت لمرتين أو ثلاث مرات أن أقول شيئًا، ولكن في كل مرة أسكتتني قبضة على عنقي، أو وخزة في جانبي.

وفي نهاية الشارع، حيث اعتادت خطوط السكك الحديدية منذ فترة طويلة على العبور، تسلّقنا سورًا معدنيًا ملتويًا، والمؤدي إلى فناء روضة أطفال، وسرنا بين الشجيرات، ووصلنا إلى الجزء الخلفي للمبنى، حيث الظلام الدامس.

وقف الزملاء الذين كانوا يحملونني على مقربة مني لدرجة أنني استطعتُ الشعور بأنفاسهم؛ لو انحنيت لبوصة واحدة فسأكون بذلك أتكأ على أحدهم؛ لو قوّمت أصابعي سألمس وجوههم؛ لذا لم أنحنِ، لم أحرك إصبعًا، استمعت إلى صوت الأمطار، وتظاهرتُ بأن هذا كان يحدث مع شخص آخر.

قال الشخص الذي كان يقف إلى جانب مدخل البناية التي أسكن بها: أخبرني كيف يمكنك تحمُّل التصادق مع تلك المخلوقات اللزجة التي تستحوذ على شيء واحد، وشيء واحد فقط؟ لم أكن متأكدًا من الشخص الذي يعنيه على الرغم من أنني كانت لدي فكرة، ولكن فيما يخص حياتي، لم أستطع تخمين حقيقة الشيء الذي تستحوذ عليه تلك المخلوقات.

سألته: ما هو ذلك الشيء؟

فأجاب: إذن فنحن نلعب لعبة، أليس كذلك؟

وقبل أن تسنح لي الفرصة كي أقول كلمة أخرى، لكمني في بطني، فصرتُ أتوق إلى الهواء، وفغرتُ فاهي، ثم انثنت ركبتاي، وسقطتُ على الأرض.

جذبني من يقفون خلفي كي أقف ثانية، ثم قال الرجل: والآن عرفت ما الذي أتحدث عنه، أليس كذلك؟

فأجبتُ: بالتأكيد، رغم أنني ليست لدي أدنى فكرة.

قال الرجل: الجرذان؛ إنها الجرذان، تذهب لتعيش في الظلام، على أمل أنها ستحكم العالم يومًا ما.

قلتُ: بالتأكيد، لتكون آمنة فقط.

فقال الرجل: ومع ذلك، هناك شيء ما لن أفهمه أبدًا وهو: كيف يمكن لصربي مخلص وحقيقي أن يختار التصادق معهم، ثم يمضي قدمًا في قضية الصرب الآخرين الذين ينتقدهم، ويكشفون حقيقتهم؟ وعندما استعدتُ أنفاسي أخيرًا، فهمتُ من يعني، ولكنني لم أقل شيئًا؛ لأنني كنتُ أخشى المزيد من اللكمات.

قال الرجل: قل شيئًا، لا تجعلني أنتظر.

صمت، فجاءتني اللكمة هذه المرة من الخلف، عند كليتي، وسمعتُ رجلاً يسألني: هل سمعتُ سؤال الرجل؟ أم ينبغي أن ألوي أذنيك؟

وقال الرجل: بدلاً من كشف أقنعتهم تدافع عنهم؟ بدلاً من نشر الحقيقة تخفيها؟ بدلاً من أن تكون صادقًا مع ذاتك تكون شيئًا آخرًا؟

أخبرني: هل هذا طبيعي؟ لم يكن لدي الكثير من الخيارات، فقلت:

كلا.

قال الرجل: إذن، لِمَ تسمي صربيًّا عش الأفعى؟ والصرب الأفاعي التي يجب أن تُسحق.

لم ينتظر جوابي، ولكن لكمني في بطني.

خانتني ركبتاي مرة أخرى.

يجب أن أعترف أنه لولا الرجال المستعدون والمدربون لدفعي إلى الوقوف على قدمي مرة أخرى، كنتُ سأرقد هناك على الأرض، وألهث كسمكة أخرجت من مياهها.

قال الرجل: إذا كان عليك أن تكتب، فعلى الأقل اكتب الحقيقة؛ فهناك ما يكفي من الأكاذيب.

بعد ذلك وضع يده في جيبه، وللحظة ظننتُ أنه سيستل سكينًا، لكنه أخرج عدة أوراق مطوية، ووضعها في يدي، ثم قال: هيا بنا من هنا.

تركني الرجال الآخرون، وتبعوه.

شاهدتهم وهم يبتعدون.

كانت ركبتاي تؤلماني، والألم يتصاعد في بطني، وعيناي تدمعان.

حاولتُ أن أخطو خطوة، ولكن كل خطوة كانت تسبب لي ألمًا.

اضطررتُ إلى التوقف عند بطريق بلاستيك يذو زنبرك عند قدمه، ومقعد مثبت عند رأسه.

جلستُ فارتد البطريق.

كان المطر لا يزال يتساقط.

obeikandi.com

وصلتُ أخيرًا إلى المنزل، وخلعتُ ملابسي المبللة، وملأت زجاجة المياه الساخنة، وذهبتُ إلى الفراش، ووضعتُ أمامي الأوراق التي أُعطيت إليّ.

لم أكن مُضطرًّا لقراءة كل كلمة؛ لأنه بعد بضعة أسطر فهمتُ جوهرها.

كانت الصفحة الافتتاحية تتناول الأصول الآرية للشعب الصربي، والحاجة للحفاظ على نقائه العنصري، وإعادة جميع هؤلاء أصحاب الميراث المختلط، فضلاً عن أعضاء الشعوب الموصومة الذين يعيشون في صربيا، ويشملون اليهود، والغجر، والمسلمين، والألبان إلى أوطانهم، أو نقلهم إلى مناطق مُسيجَّة خاصة.

ومع ذلك، ففي الصفحات التالية كان اليهود هم الفئة الوحيدة التي تلقى الاهتمام.

هنا وهناك كانت توجد إشارة علنية لحاجة العالم للتخلص من اليهود الذين يجدون دائمًا طرقًا للسيطرة على حكومات الدول الكبرى، وتدفق رأس المال ووسائل الإعلام.

وتمضي الأوراق في سرد أننا نعيش بين مخالب مؤامرة صهيونية عالمية؛ فلقد انكشفت مؤامرة هتلر، وأصبحت على حافة الانهيار.

وبالقرب من النهاية سردت الأوراق، لم ينجح ذلك في إتمام المهمة، ولكنه لم يبين الاتجاه الذي يجب على جميع الآريين الحقيقيين اتباعه.

وبعد ذلك كان هناك رسم لجمجمة مُحاطة بشعار: "الموت للصهيونية، الحرية للشعب".

قلتُ لـ ماركو في وقت لاحق: إن هناك لحظات في حياة المرء لا يعرف: ما إذا كان يبكي فيها أم يضحك؟ وكانت تلك اللحظة إحداها.

قبضتُ على زجاجة المياه الساخنة كما لو كانت طوق النجاة.

إن ما قرأته يمكن تجاهله بسهولة على اعتبار أنه صوت شخص معتوه، لكنه لم يكن صوتًا وحيدًا؛ لقد كان صوتًا واحدًا من جوقة كبيرة لا يمتلك الكثيرون فيها، شأنهم شأن الثلاثة الذين اعتنوا بي في فناء روضة الأطفال، موهبة صوتية ولكن تم ضمهم؛ لافتقارهم لأي مهارات مختلفة.

حاولتُ تذكر وجوههم، والتي بدَت متشابهة في ضوء مدخل البناية المتهالك؛ تبدو تسريحات شعورهم كتسريحات شعر الجنود بلا شك؛ فالشخص الذي خاطبني، والذي لكمني في بطني عدة مرات، كان لديه أثر جرح مائل على جبهته، وكان ذلك هو كل ما تذكرته.

ذكرني المطر، والأشجار في شارع "تيسلينا"، ومصابيح الشوارع المحطمة بما شعرتُ به بدلاً مما شاهدته.

شعرتُ، كما أخبرتُ ماركو في وقت لاحق، بما أشبه الحزن ، فراغ تركني ضعيفًا كدمية من القش.

سألني ماركو: هل خطر في بالك أنه يمكن أن يقتلوك؟

فأجبتُ: نعم، وخصوصًا عندما أخذوني عند الشجيرات الموجودة خلف روضة الأطفال، اعتراني رعب شديد لبضع دقائق.

ضحك ماركو ضحكة مكتومة، وقال: إذن ما هو حال الجانب الآخر؟

ضحكتُ أيضًا ضحكة مكتومة، على عكس إسحق ليفي، وياكوف تشفارك.

لقد قرأ كل منهما كل سطر بعناية، وتفحصا الأوراق من كلا الجانبين، ورفعا الأوراق نحو الضوء، وقارنا أقسام معينة بنصوص أخرى مقصوصة من صحف أو مصوّرة من كتب.

جلسنا حول طاولة المطبخ في استوديو ياتشا ألكالاي؛ لم يكن ياتشا في "بلغراد" حينئذ.

كانت الطاولة مرشوشة بألوان متناسقة يغلب عليها اللون الأزرق، على الرغم من أن ذلك اللون نادرًا ما تشاهده في لوحاته، على الأقل في تلك التي كانت معلقة على الجدران.

قال ياكوف تشفارك: لا أحب هذا؛ فهو في النهاية لا يبشر بالخير.

قلتُ: هذه عبارة عن كومة كبيرة من الهراء، وليس هناك معنى لإحاطتها بالاهتمام.

قال ياكوف تشفارك: نحن لم نلتفت إلى كومة أخرى من الهراء، وانظروا إلى ما أوصلتنا إليه.

تحدّث إسحق ليفي قائلاً: كان الشيء نفسه سيحدث حتى ولو كنّا أوليناها كل الاهتمام، ومن غير المجدي أن نخدع أنفسنا بجمل شرطية.

فتراجع ياكوف تشفارك وقال: اترك لي التحليلات اللغوية، الشيء الوحيد الذي يمكن للشخص الحصول منها هو حرقة الفؤاد.

التاريخ ليس رواية تتكشف وفقًا لقواعد مقررة.

انضم إليه إسحق ليفي قائلاً: ولكنه أيضًا ليس كتابًا يمكن تصفحه الآن مرة من بدايته، ومرة من نهايته.

وواصل ياكوف حديثه وهو يلوّح بالأوراق: تخبرنا التجربة أن شيئًا من هذا القبيل يبدأ دائمًا ببراءة، وينتهي بأكثر الطرق مأساوية يمكن تخيلها.

سأل إسحق ليفي: فماذا الآن؟ أينبغي أن نقتل أنفسنا؟

أجاب ياكوف تشفارك: كلا، ينبغي أن نبقى على قيد الحياة.

obeikandi.com

ساد الصمت في المرسم، وأمكن سماع أصوات نقر منخفضة، كما لو كانت ساعة منبهة موضوعة في درج الجوارب تقرع أجراسها، ولكن حينما ذهبتُ إلى الحمام أدركتُ أنه كان صوت المياه التي تقطر من صنبور حوض الاستحمام.

حاولتُ غلقه بإحكام ولكني لم أنجح؛ لقد واصلت الاستقطار على المينا المصفر.

قال إسحق ليفي من خلفي: الغسّال المطاطي يحتاج إلى تغيير، ولكن ياتشا لا يلقي بالاً إلى أشياء من هذا القبيل.

وقف عند الباب ويداه معقودتان على صدره، وقال: يجب أن تفهم يا ياكوف أن تجربته في الحرب الأخيرة كانت بصفة خاصة مؤلمة.

تساءلتُ: أي حرب تلك التي تشير إليها عندما تقول: "الأخيرة"؟

فأجاب: كنتُ أعني الحرب الكبيرة، الحرب العالمية؛ لأن الحروب الصغيرة، مثلنا، لا تعد حروبًا حقيقية.

قلتُ: وبالنسبة لأولئك الذين لم يعدوا على قيد الحياة، تعد كل حرب حقيقية.

وافقني إسحق ليفي: هذا صحيح، ولكن الحرب المحلية تسيء في الواقع إلى كلمة حرب؛ نظرًا لأنها تكون في معظم الأحيان صراع مُسلح محدود يُشنُّ على إقليم محدود.

وبطبيعة الحال، فإن معظم الصراعات المسجلة في التاريخ تنتمي إلى هذه الفئة، أعترف بذلك، وهناك عدد قليل من الحروب التي تعد كبيرة حقًّا.

قلتُ: أنت تتحدث عن الحروب، على الأقل الحروب الكبيرة، كما لو كنت معجبًا بها، ولا أرى مبررًا لذلك.

أجاب إسحق ليفي: إنه لا يرى سببًا للإعجاب بها على حد سواء، ولكن إذا كانت موجودة فليس هناك أي معنى لرفض العينين لرؤية الحقيقة.

هل اعتقدتُ أن الحرب، أي حرب، كبيرة أم صغيرة، ستختفي إذا أغمضتُ عيني بشدة؟

أجبتُ: هذا أمر مشروط، فقوة الإرادة - أحيانًا - تنجز أشياءً رائعة.

أجاب إسحق ليفي: لا أعرف شيئًا عن قوة الإرادة، لكني أرى أن تأثير ياتشا ألكالاي قد أتى مفعوله.

حاولتُ الاعتراض، مُدعيًا أنه كان على خطأ، إنني لم أكن أعرف شيئًا عن "القبالاه"، أو بالأحرى أقول: إنني لم أكن أعرف "القبالاه" جيدًا.

قال إسحق ليفي: إن ياتشا كان معلمًا جيدًا، وإنني ليس لدي أي سبب للقلق.

فقلتُ: إنني لم أكن قلقًا، وإنني أود أن أطلب من ياتشا تأكيدًا أن معرفتي بتعاليم "القبالاه" كانت قليلة للغاية.

قال إسحق ليفي بازدراء: لننسَ ذلك، هناك شيء آخر وقع للتوّ له احتمال أن ياتشا استحضر القوى المظلمة لتواجه البلطجية الذين تعرضوا لي بالضرب.

سيكون بالتأكيد قادرًا على استحضار جيش كامل من الغولميين والوحوش الأخرى، لسرقة العاصفة من العنصريين والنازيين، وجعلهم يركضون فرارًا بأسرع ما تستطيع أقدامهم.

وفي الوقت نفسه، يجب علينا أن نحارب دون مساعدتهم؛ لأن كل لحظة ضائعة تجعلنا أضعف.

obeikandi.com

لم أكن متأكدًا من قصد كل منا؛ الموجودين في دورة المياه، أم ثلاثتنا الموجودين في مرسم ياتشا، أم كلاهما وياتشا ألكالاي، أم جميع يهود "بلغراد".

قلتُ: إذن، أينبغي أن أكتب عمّا يحدث لي؟

فأومأ إسحق ليفي، وقال: في أقرب وقت ممكن، في أقرب وقت ممكن.

ومع ذلك، لم أكن مقتنعًا بأن هذا هو الحل الأفضل، وحينما جاء الموعد الأخير كتبتُ مقالاً ضعيفا فاترًا عن غياب الذوق الموسيقي في أكثر البرامج التلفزيونية مشاهدة.

ولسبب غامض، كان رئيس التحرير مسرورًا، وابتسم بابتهاج وهو يقرأ النص، بل وحتى وقف، وضربني بقوة على كتفي.

وبينما تنتابني حيرة تامة غادرتُ المبنى، ووقفتُ بتردد لفترة على الدرجات.

ثم قررتُ نسيان ذلك؛ فعليّ بالفعل شق طريقي بجهد مع الكثير من الأسرار، كما أن رؤساء التحرير مخلوقات متقلبة المزاج.

عدتُ إلى المنزل، وخطوت إلى الشرفة المطلة على الفناء، وفرّقت حمامتين بيضاويتين، وجلستُ على كرسي مريح، وحاولتُ فهم ما حدث لي على مدار الأسابيع القليلة الماضية.

لم تكن تلك هي محاولتي الأولى تمامًا، مثلما شعرتُ أنها لن تكون الأخيرة.

كانت نصيحة ياتشا ألكالاي للبحث في "القبالاه"، أو بالأحرى البحث في "القبالاه" عن مفتاح هذه الأحداث، نصيحة لم تجدِ رغم أنني اقتنعتُ بها للغاية.

obeikandl.com

عرفتُ أكثر مما كنتُ أعرفه عن "القبالاه" بقليل، رغم أن ما كنت أعرفه كان يعد مقدارًا ضئيلاً مقارنة بالكنز بأكمله.

فهمتُ معنى الانبثاق، الانبثاقات الإلهية؛ استطعتُ فهم اللا نهاية، أو عين صوف، وهو إشارة تابعي مذهب "القبالاه" إلى الجوهر الإلهي.

درستُ بعناية تفسير سقوط آدم؛ تعرفت على مبادىء حساب الجمل، ولكن هذه الممرات لم تقدني إلى أي مكان، وعاجلاً أم آجلاً عدتُ إلى نقطة البداية، إلى ضفة نهر "الدانوب"، والصفعة التي، رغم أنني لم أستطع سماعها، أسكتتني.

تلك الصفعة أدت إلى الحدث الذي كنتُ على استعداد تام لقبوله على أنه سوء فهم؛ سوء فهم هزلي، لكنه أدخل المخطوطة في حياتي والتي، وهو ما يجب أن أعترف به على مضض، تتعلق بمجموعة متنوعة من الأشياء، كما لو كانت المعلومات تُضاف إليها أو يتم تجديدها باستمرار.

ثم أدركتُ، وأنا جالس على الكرسي المريح، وأسند قدمي على درابزين الشرفة، أنني لم أخبر ياتشا ألكالاي أبدًا عن المخطوطة، رغم أنه سيكون مهتمًا بالتأكيد بالأجزاء التابعة لمذهب "القبالاه" في النص.

لم يمكنني تفسير هذا لنفسي؛ التفسير الوحيد الذي فكرتُ فيه هو الغيرة من إلمامه غير المحدود بمذهب القبالاه والتصوف، أردتُ حجب المخطوطة عنه؛ حتى أتمكن من عرضها على الطاولة أمام ياتشا بفرحة علنية.

تخيلته يقفز من كرسيه، وينتزع صفحات المخطوطة، ويهتز من الإثارة.

ضحكتُ بصوت عالٍ، وقررتُ أن أخبره عنها.

اعتدلتُ على الكرسي، ونظرتُ إلى اليمين، نحو ساحة مجاورة،

ولاحظتُ في إكليل شجر الحور رجل يرتدي سروالاً أسود وقميصًا أبيض.

كانت الفروع والأوراق تخفيه جزئيًّا، ولكن إذا كان يعتقد أن أحدًا لا يستطيع رؤيته فسيكون مخطئًا.

كانت يداه أمام وجهه، واستغرق الأمر مني لحظة لأتبين أنه كان يحمل منظارًا موجهًا نحوي.

نظرتُ إلى اليسار وإلى اليمين، وانحنيتُ على الدرابزين، ولكن لم يكن هناك أحد سواي في أي من الشرفات.

بالطبع، كان هناك احتمال أن يكون زوج غيور يحاول تحديد النافذة التي تقبع خلفها زوجته في أحضان عشيقها، على الرغم من أن هذا يصعب تصديقه.

تذكرتُ منظار والدي القديم الموجود في مكان ما، ونهضتُ من على الكرسي، وذهبتُ للبحث عنه.

فتّشتُ عنه بدقة في الدولاب، وتفحصتُ بعض الصناديق في المخزن، وأخرجتُ أدراج مكتبي، وعندما لم أجده عدتُ إلى الشرفة، ولكن الرجل كان قد اختفى.

بحثتُ بين رؤوس الأشجار الأخرى، وأسطح المباني، ثم خفضت عيني نحو الساحات المغطاة بالأعشاب، ولكن كان الرجل قد اختفى.

"ربما لم يكن أبدًا هناك" قالها ماركو عندما أخبرته بذلك؛ لذلك قررتُ ألا أنطق بشيء آخر.

كنتُ بالطبع أعرف أن الناس يكونون في بعض الأحيان ضحايا لتخمينهم وتحيزهم، وأن هناك أوقاتًا يعتقدون فيها أنهم يرون ما يرغبون في رؤيته، والرجل ذو المنظار، الذي يختبأ بطريقة خرقاء للغاية في تاج أشجار الحور، قد لا يكون أكثر من إسقاط لي، انعكاس لأملي الخفي أن أكون جزءًا من مؤامرة واسعة، أو مخططًا يتورط فيه

جزء كبير من العالم.

كنتُ أعرف ما سيقوله ماركو تعليقًا على هذا: كان سيضحك.

ويقول: إنني كنتُ أشاهد العديد من الأفلام الأمريكية.

لقد قال شيئًا على هذا المنوال قبل بضعة أيام عندما عرضتُ نظرية عن نسخة من المؤامرة مختلفة لكن مماثلة.

"لقد شاهدنا جميعًا العديد من الأفلام الأمريكية"، قلت له ذلك حينئذ، وهو ما كان صحيحًا.

لم تكن هذه مجرد عبارة مستهلكة يستخدمها الأوروبيون حين يشعرون، وهم في زيارتهم الأولى إلى أمريكا، أنهم في فيلم، ولكننا حتى في أوروبا نقارن واقعنا في كثير وكثير من الأحيان بالحقيقة السينمائية للأفلام الأمريكية.

سألت ماركو: من في أوروبا يفكر في المؤامرات، التي يصبح فيها المواطنون العاديون أكبر عقبة أمام الخطط الوحشية للسياسيين النهميّين؟

قال ماركو: كل شيء صغير في أوروبا، حتى المؤامرات.

لا أستطيع أن أقول: ما إذا كان يقصد مواساتي أم لا؟ ولكن عندما رأيتُ ذلك الرجل عند شجرة الحور، لم تكن تلك مواساة.

سواء كانت كبيرة أم صغيرة، المؤامرة هي المؤامرة، وإذا تورط فيها شخص ما فقد تكون العواقب خطيرة.

وعندما أخبرته بهذه الحجة، قال ماركو: حسنًا، قد تكون العواقب بالتأكيد خطيرة، ولكن علينا أن نكون واقعيين، وأن نقبل المكان الذي نعيش فيه.

مؤامرة في صربيا، هل شيء من هذا القبيل ممكن؟

opelkandil.com

دافعتُ قائلاً: لِمَ ينبغي أن تكون صربيا أسوأ من أي بلد آخر؟ لم لا يكون لدينا مؤامرة كبيرة ولطيفة هنا؟

فأجاب ماركو: صربيا بالفعل أسوأ من كثير من البلدان، ولكن فاتك شيء.

أين كنت طوال السنوات العشر الماضية؟ على سطح المريخ!!

تابعتُ دفاعي قائلاً: إذن، فقد اكتشفت كل شيء، أليس كذلك؟

فأجاب ماركو: كل شيء تقريبًا، باستثناء مجموعة من جرائم القتل بين المجرمين الذين تحولوا إلى وطنيين، أليست تلك مؤامرات؟

قال ماركو: كوني لا أفهم أمرًا ما لا يعني أن قوة شريرة مظلمة هي من تقود ذلك، منظمة غامضة بالتواطؤ مع الحكومة والجيش والشرطة، أو من يدري.

مثل هذه الأمور تحدث فقط في الأفلام الأمريكية، وبالمناسبة، يتم فيها تقليص المؤامرة بأكملها إلى حد صراع المتآمرين لتجريد المواطنين الأمريكيين من حقهم في المعلومات، في المعرفة التي من المفترض أنها تنتمي إليهم، إن لم يكن لأي سبب سوى أنهم يدفعون ضرائبهم بشكل منتظم، بينما في هذا البلد، تكون المؤامرة لإسكات الشهود، والناس العاديون مثلك ومثلي لا يمتلكون أبدًا مكانًا في الصورة.

وإلى جانب ذلك، في بلد مثل بلدنا، حيث يعرف الجميع كل ما يمكن معرفته عن أي شخص آخر، لا تكون المؤامرات قابلة للتطبيق، على الأقل فهي ليس مؤامرات من النوع الذي تراه في الأفلام؛ لأنه لا يوجد أحد هنا يمكنه أن يحتفظ بسر.

شخص ما، ولا تسألني من هو، قال: إن التاريخ الحقيقي هو ما يدور بين شخصين مع عدم وجود شهود بينهما، ولكن إذا كان ذلك

صحيحًا، فسيصبح التاريخ هنا هو ما يدور بداخل الشخص الواحد، والذي يجلس بمفرده في غرفة، ويلفق التاريخ.

قلتُ: إذا كان ذلك صحيحًا إذن فسلطة الشخص الواحد بلا حدود.

قال ماركو: بالتأكيد، وهذا هو سبب اختلاف مؤامراتنا عن المؤامرات الدائرة في العالم، واستوديوهات هوليوود.

إنها كمسرح للعرائس بممثل واحد فقط، مختفيًا بشكل جيد خلف مجموعته، ويلعب بجميع الدمى، ويجذب كافة السلاسل.

كان ماركو على حق، ويستحق التقدير، على الرغم من أنني لا زلتُ حريصًا على فهم من الذي يجذب خيوط الناس المتورطين فيما كان يحدث لي، بما في ذلك أنا، وإذا كانوا جميعًا يمتلكون خيوطهم القليلة فستكون خيوطي معي أيضًا.

قلتُ له: وأنت أيضًا.

تابع ماركو: في صربيا، كلنا معلّقون بخيط، لم يتم ادّخار أحدنا.

اعترضتُ قائلاً: لا تخبرني أن جميع الخيوط في قبضة رجل واحد.

أجاب ماركو: كلا بالطبع، إنه على قمة هرم مكوّن من نسائل صغيرة، بنفس الشكل الذي تعمل به دائمًا كل ديكتاتورية ناجحة، انظر إلى ديكتاتورية ستالين في الاتحاد السوفيتي، على سبيل المثال، لكي تؤدي عملها بنجاح، كان يجب أن يكون هناك، إلى جانب ستالين نفسه، مئات آلاف من ستالين المصغّرين، نسخه أو مستنسخين منه، كل منهم يتحكم في حفنة من الخيوط، في حين أن خيوطهم في يد شخص آخر، والذي كان يعلوهم في سلم الحزب الهرمي، وكانت خيوطهم في يد شخص ما يعلوهم، ويكون هناك دائمًا بالأعلى عدد أقل من هؤلاء بالأسفل، وهكذا، حتى تصل إلى ستالين، الذي لا يحمل سوى خيطين أو ثلاثة خيوط رئيسية، لكنه يمكن أن يلوي إحداها فيهتز الاتحاد

السوفيتي بأكمله، كما لو كان ضربه زلزال كبير.

حاولتُ تخيل هذا الهرم وكافة الخيوط، ولكنها واصلت التعقّد في مخيلتي، كانت تتشابك بشكل ميؤوس منه.

كان ستالين فقط سالمًا على قمة الهرم، وكان يبتسم ابتسامة عريضة تحت ذلك الشارب الكث.

قال ماركو: نفس القصة دائمًا في النهاية، لا توجد اختلافات كبيرة بين الأهرامات الديكتاتورية وشبكات الخيوط التي تصنعها.

الفارق الوحيد الذي يمكن أن يفكر به هو: ديكتاتوريتنا لم يكونوا يداعبون شواربهم.

جعلته هذه الفكرة يعرض نظرية حول امتلاك معظم الطغاة لشوارب، الشارب رمز للرجولة.

وأشار قائلاً: الطغاة، والذين يكونون بصفة عامة ضعاف الشخصية، يتركون شواربهم تنمو لتعزيز قوتهم الذكورية وتبرير سلطتهم، وهو الأمر الذي يثير السؤال المرتبط بهذه المسألة، والذي يدور حول غياب الشوارب في وجوه طغاتنا.

تطلّع إلى وجهي، ولكني هززتُ كتفيّ.

فتابع: ربما أثبتوا رجولتهم بطريقة أخرى، أو شعروا بأنه لا يوجد من يستجوبهم، ولا يوجد تفسير آخر.

وتحدّث لفترة أطول قليلاً عن الفرق الدلالي بين تهذيب هتلر البسيط لشاربه وشارب ستالين الكث، لكنني لم أعد أستمع.

ومع ذلك، في اليوم التالي، حينما كنت راكبًا حافلة المدينة التي تعبر "سافا" عدتُ بتفكيري إلى المحادثة، وضحكتُ بيني وبين نفسي.

عبس الرجل الذي يقف بجواري، ثم سرعان ما لمس وجنتيه وأنفه

o p e i k a n d i . c o m

وشفتيه، وعندما لم يجد شيئًا وهو ما جعلني أضحك، رد بعنف: ما الذي أصابك؟

تحوّلت ملامحي إلى الجدية، ولكن بعد لحظة تمددت شفتاي مرة أخرى لتشكل ابتسامة.

فقال الرجل: أتعلم، سأضربك بقوة، إن لم تنتصب واقفًا مرة أخرى.

وعلى الرغم من أنه قال ذلك بصوت يدل عن غضب شديد، وأن عينيه كانتا تبرقان، وأنه كان يلوّح بقبضته مهددًا، بدا ذلك لسبب ما مبهجًا للغاية لدرجة أنني انطلقت مسرعًا من الحافلة في المحطة التالية وأنا أطبق أسناني لمنع تدفق نوبات من الضحك.

وبدلاً من "زيليني فيناك" حيث كنتُ أتوجه، وجدتُ نفسي عند نهاية الجسر على نهر "سافا"، في بداية شارع "برانكوفا"، وبالتالي كان عليّ أن أسير لمسافة أبعد مما انتويت.

كان يوم الجمعة، وكان من المفترض أن ألتقي بـ ياتشا ألكالاي في الساعة السادسة بعد ظهر ذلك اليوم، في فناء الكُنيس في "مارتشال بيريوزوفا".

قال لي: كان ذلك يوم السبت، ولم تكن هناك لحظات أكثر سلامًا - مثل العروس - من يوم السبت، وهو يخطو داخل المعبد.

لا أعرف: ما هو الحال داخل المعبد؟ ولكن عندما وصلتُ إلى فناء الكُنيس، وأنا ألهث من سيري السريع، لم يكن هناك أحد، فقط قبعة على مقعد تحت شجرة كثيفة.

اقتربتُ بحذر شديد، كما لو كان شيء سيقفز من تحته.

لم تتحرك القبعة، كما لم تقاوم عندما التقطتها، ووضعتها على رأسي.

كانت كبيرة جدًّا، وانزلقت على حاجبي، وغطت عيني، واستقرت

على أذني.

سمعتُ صوت ياتشا ألكالاي وهو يقول: أتعلم مثل هذا الرجل اللبق المهذب يسرق القبعات؟

خلعتُ القبعة من على رأسي، والتفتُ، وكان ياتشا ألكالاي يقف مبتسمًا إلى جانب رجل مُسن أشيب.

قال الرجل: هذه القبعة تخصني.

ومد يده فأعطيتُها إياه.

لو كان شعره بأكمله رماديًّا كنتُ سأظن أن هذا الرجل هو من سلمني المظروف الذي يحتوي على المخطوطة.

سألتُه: ما إذا كان لديه شقيق يعيش في "زيمون"، فأجاب ياتشا ألكالاي: كلا؛ فـ داتشا ليس لديه أشقاء، وبالتأكيد ليس لديه في "زيمون".

وعلى الرغم من أنه ليس لديه أقارب هناك، فـ داتشا ذو معرفة كبيرة بتاريخ يهود "زيمون"، ولفت انتباهي إلى حقيقة أن مصيرهم ظل لسنوات عديدة تحدده حقيقة أن "زيمون" تقع على الحدود العسكرية، حيث لا يُسمح لهم بالتوطن.

قال داتشا وهو يرتدي قبعته: لسبب ما سمحت الإمبراطورة ماريا تيريز لأول أسر اليهود التي انتقلت إلى هنا، وهي ما يقرب من اثنتي عشرة أسرة، بالبقاء في "زيمون"، وهذا المرسوم حدد حياة المجموعة اليهودية بـ زيمون لنحو مائة سنة أو نحو ذلك.

ثم خلع داتشا قبعته وقال: وكما هو الحال مع الكثير من الامتيازات الإمبراطورية، كان هذا الامتياز مستندًا إلى تعريف الحظر والإصرار على إطاعته؛ لذلك مضى القرن بأكمله وهو يتضمن محاولات يهود "زيمون" تجنب اللوائح والعثور على وسيلة للبقاء في "زيمون"، التي

كانت غنية بفرص التجارة والأنشطة الأخرى؛ بسبب موقعها الحدودي.

قال وهو يرتدي قبعته مرة أخرى: أتعلم لِمَ ينطبق امتياز البقاء هنا إلا على عدد قليل من الأسر؟ وعلى الرغم من أن هذا العدد تزايد تدريجيًّا بمرور العقود الزمنية، كانت هناك تهديدات، بل وحتى تحركات من قبل السلطات لخفض هذا العدد؛ حتى يصل إلى القلة التي سُمح لها في الأصل بالبقاء.

تابع حديثه وهو يخلع قبعته ثانية: إحدى هذه الطرق هي: تبديل الأسماء، على أمل دفن الآثار في القوائم والوثائق، وهو ما أثار غضب السلطات حينئذٍ والمؤرخين اليوم، والذين يحتاجون إلى تحديد ما إذا كان، على سبيل المثال، رافائيل سالومون وسالومون رافائيل هما شخص واحد، والذي أصبح اسمه الأول هو الأخير لفترة من الوقت، واسمه الأخير هو الأول، أو ما إذا كان الاثنان لا علاقة لهما ببعضهما البعض.

احتضن قبعته بعد ذلك وقال: الأسماء في القائمة الواحدة لا تظهر في أي قائمة أخرى يتم عملها بعد عدة سنوات، وبعد عدة سنوات أخرى يمحون مزيدًا من الأسماء مرة في قائمة جديدة.

نظر في قبعته ورفعها، ثم احتضنها مرة أخرى.

قال لـ ياتشا ألكالاي: أخبرني، لِمَ أقول لك كل هذا؟

فأجاب ياتشا: بسبب إليعازار.

قال داتشا: آه، هذا صحيح.

وضرب بيده على قبعته، بسبب إليعازار.

ثم التفت إلى ياتشا مرة أخرى، وسأله: عمّا إذا كنت أعرف من هو إليعازار؟

أجاب ياتشا: جاء بطبيعة الحال ليسأل عن إليعازار، ووجده.

فأضفتُ: وفقدته.

نظر داتشا إليّ بصرامة، كما لو كان قد اندهش من أنني أعرف كيف أتحدث، وشعرتُ بخديّ يحمران خجلاً.

قال وهو يرتدي قبعته: الأمر ليس أنك فقدته، ولكن أنه عثر بنفسه على طرق للضياع.

تنفستُ الصعداء، كما لو أن ثقل الشعور بالذنب قد أُزيل من على كتفي.

قال داتشا: نعم، اختفى بإرادته، تلك كانت أفضل الطرق ليكتشف نفسه مرة أخرى.

ثم خلع قبعته، وفحصها من جميع الجوانب، وتشممها.

نظر إلى ياتشا وقال: مهلاً، من أين حصلت على هذه القبعة؟

فأجاب ياتشا: كنتُ أتساءل أنا أيضًا عن ذلك.

قال داتشا: هذا وعاء، وليس قبعة.

ضحكتُ، ولكن تحوّلت ملامحي إلى الجدية بمجرد أن التقت عيناي بعيني داتشا الذي قال: إليعازار، إذا كان هذا في الواقع هو اسمه، على عكس معظم العائلات اليهودية الأخرى في "زيمون"، كان أحد اليهود الأتراك، أي: يهودي من يهود "السفارديم"، والذي كان حديثًا عثمانيًا.

وعلى هذا النحو، وخصوصًا بسبب الشغب الذي وقع بين العثمانيين وآل هاسبورغ، كان على أقل تقدير مشبوهًا، وربما يكون هذا هو سبب ظهوره باسم آخر عندما كان يسجل اسمه مع السلطات، أو باستخدام حساب الجمل، اختار اسمًا يحمل نفس القيمة العددية،

obeikandl.com

لذلك كان إليعازار، ولم يكن إليعازار في نفس الوقت، ومن السهل افتراض أنه عندما تم عمل تعداد سكاني للسكان اليهود في "زيمون" بعد خمسة عشر عامًا، كان هو نفس الرجل المسجل باسم فولف، ناقل المياه، وهو ما تم تأكيده في قائمة أكثر تفصيلاً تم عملها بعد ذلك بعام، أي: عام ١٧٥٦م؛ حيث كان مسجلاً باسم فولف إينوخ فقط؛ ليختفي تمامًا أو يظهر في قائمة عام ١٨١٥م، والتي لم يعد يندرج فيها تحت اسم فولف، ولكن ناحمي، ناقل المياه، الذي كان يسكن على ما يبدو في "زيمون" لمدة ثلاثين عامًا مع أسرة مكوّنة من أربعة أفراد، وهو ما كان هراء بالطبع؛ فحيثما يوجد الماء يكون هناك إليعازار الذي يروي ظمأ الناس؛ ظمأهم للمياه، وظمأهم لصهيون، وظمأ الجسد، وظمأ الروح؛ فعندما يكون هناك وئام بين الروح والجسد، يستطيع الاثنان البقاء على قيد الحياة.

ثم توقف عن الحديث، لاحظتُ فجأة أنه خلال تلك الجملة الطويلة توقّف عن لمس القبعة.

بعدها قال ياتشا: كان يحضر الماء إلى ثيودور هرتزل.

وقال داتشا: وإلى الحاخام ألكالاي.

نهض، وارتدى قبعته، ولعق شفتيه، وقال: بعد كل هذا الحديث عن المياه، يشعر الشخص بالعطش، ولكن لم يعد هناك أي ناقلين للمياه، رغم أنني لا أمانع في عصير الليمون في متجر مُرات إذا كان أحدكم على استعداد للدفع.

قال ياتشا: سأدفع، ولكن حيث لم يعد هناك ناقلون للمياه؛ فلم يعد هناك متجر مُرات أيضًا.

قال داتشا مندهشًا: حقًّا! وخلع قبعته، متى توفي؟

أجاب ياتشا: إنه لم يمت، بل عاد إلى "بريتشتينا".

obeikandi.com

فقال داتشا مرة أخرى: حقًّا؟ ولكن لماذا ؟ حتى أنت، كتابع لمذهب "القبالاه"، لا يمكنك الإجابة على هذا السؤال.

فضحك ياتشا، ونظر في قبعته، كما لو أنه لم يعد يعرف ماذا يفعل بها؟ ثم تساءل: وماذا عن محل المعجنات، أخيرًا، ألا يزال هناك؟

أجاب ياتشا: إنه هناك، فارغ.

فقال داتشا وهو ينظر إلينا: سأقدم هذه القبعة بكل سرور مقابل زوج من البقلاوة التي يبيعها.

قال ياتشا: عن نفسي أفضل بلح الشام.

وفي اليوم التالي قلتُ لـ ماركو: بعد ذلك، أخذ الاثنان يتحدثان عن جميع الأطباق الأخرى، والحلويات المصنوعة من الكريمة مثل "الكريمبيتا"، و"تشاميتا"، و"سودتزوك"، ولفائف الشيكولاتة، والحلاوة الطحينية، و"الهريسة كستنائية"، و"اللونو الآيس كريم"، و"اللينيا بيتا".

قلتُ: يجب أن يكون متجر مُرات قد صنع كل المعجنات تحت الشمس.

هز ماركو رأسه وقال: اسمح لي أن أضع ذلك بشكل مباشر، مساء يوم الجمعة، بالضبط كاعتبار اليهود لليوم المقدس أنه البداية، أتقف في فناء الكُنيس تتلاعب بالألفاظ عن المعجنات؟ بعد كل ذلك، هل ابتعت عصير الليمون للرجل؟

فأجبتُ: نعم، ولكن لأن متجر مُرات كان قد أغلق أبوابه، ذهبنا إلى "ماجيستك"، وبمجرد أن دخلناه رأينا صديقًا لهما ممثل قديم، والذي جلس على طاولتنا، وأمتعنا بقصص عن أنواع الأشياء التي تحدث للممثلين عندما يقومون بجولات في المحافظات.

ثم في لحظة معينة، ولمرة أخرى، كنتُ متأكدًا من أنني رأيت المرأة

التي صُفعت عند رصيف الميناء تدخل معرض باتجاه الشارع.

قلتُ: إن الاجتماع شغلني، ويجب أن أغادر على الفور.

وبحلول الوقت الذي قلنا فيه: "إلى اللقاء" لبعضنا البعض، وأراني داتشا فيه العلامة الباريسية في قبعته، وبدأ الفاعل في سرد ما حدث لهم أثناء زيارة لـ يسكوفاك، لم يكن هناك أحد في المعرض.

كان الظلام بالأعلى والأسفل.

قلتُ لنفسي: إن هذا يحدث كل مرة، على الرغم من أنني لم أخبر ماركو بهذا، وإمّا أنني وصلتُ إلى هناك في وقت متأخر جدًّا، مثل هذه المرة، أو في وقت مبكر جدًا، مثل اليوم الذي ذهبتُ فيه إلى الفناء الموجود بشارع "زماي جوفينا"، وجلستُ على مقعد الزاوية، وبالتالي أضعتُ فرصة لقائها عندما خرجت من المبنى.

لا أعرف: لمَ قررتُ عدم إخبار ماركو بهذا الأمر؟

كُنا جالسين في مطبخه نشرب القهوة، وندخن الحشيش الذي أحضره من أمستردام شخص ما يعرفه، وبينما كنتُ أعيد رواية آخر حكاية رواها لنا الممثل، شعرتُ بأنني أغرق.

في الواقع، لم يكن هبوطًا حقيقيًّا، ولكن إحساس غير متوقع بالانكماش، كما لو كان الحشيش قد فجر شيئًا ما بداخلي؛ تحوُّل بسيط غيّر وجهة نظري تمامًا، جعلني أرى كل شيء من زاوية سفلى تصاعدية، كأن الأشخاص والأشياء المحيطة بي، بل وحتى العوالم بأكملها، بدت فجأة كبيرة، أو على الأقل، ممددة بشكل غير مستحب.

كان ماركو يعرف هذه الحالة، كان قد مر بتجارب مماثلة عدة مرات، مع أنه يشعر في كثير من الأحيان أثناء تلك الحالة، أو كما قال لي، بأنه يكبر حجمًا في حين ينكمش كل شيء آخر.

لم نستطع أبدًا أن نعرف: ما إذا كانت تلك الحالة، سواء حالتي

أم حالته، هي عبارة سؤال عن التجربة الأصلية، أم إذا كان أحدنا قد مر بها؟ ثم أخبر الثاني بما حدث، فأصبح لدى الآخر انطباع بأنه قد مر بنفس التجربة؛ فكلانا لا يستطيع أن يتذكر من خاض هذه التجربة أو من لم يخضها، والتي أطلقنا عليها اسم "أليس"، وذلك بعد حلقة المسلسل الكرتوني "أليس في بلاد العجائب"؛ حيث تقضم عيش الغراب، أو ربما الكعك، وبالتناوب تصبح أكبر أو أصغر حجمًا.

سأقول: لقد أصبحت "أليس"، والتي أصبحت - بصفة خاصة - في متناول اليدين عندما كُنا في جماعة أو في مكان عام؛ وذلك لأن "أليس" يمكنها في بعض الأحيان أن تكون عنيدة وثابتة.

في ذلك اليوم، في هذه اللحظة بالضبط كنتُ أصف ما حدث في الليلة التي تركت فيها مقهى "ماجيستك"، وعبرتُ الشارع، أصابتني موجة "أليس"، وعلى الرغم من أنني في قصتي ظللتُ عند مستوى الرصيف إلا أنني بدأت أغرق، وعندما نظرتُ إلى الطابق العلوي، وهو ما كان مظلمًا أيضًا، نظرتُ - أيضًا - إبان موجة "أليس" إلى أعلى، ورأيتُ وجه ماركو يحلق فوقي، في فضاء ليس مُضاءً وليس مُظلما.

لا أعرف: ما إذا كنتُ واضحًا بما يكفي أم لا؟

على أي حال، لن يكون التفكير جيدًا بالنسبة للشخص، وذلك عندما أصف تجربة تُسمى "أليس"، وأحاول أن أنسب إليها خاصية غامضة أو دلالة عميقة.

كان وَهمًا بصريًّا ثانويًّا وسخيفًا، سببه تأثير بعض مكونات القنب على خلايا المخ، من يدري أيها، ومثل العديد من الأوهام المماثلة التي تسببها المواد المسكرة، سلّم نفسه بسهولة إلى أكثر التفسيرات تنوعًا.

تلك هي قدرتنا الملحوظة كبشر على أن نُنسب معنًى لكل شيء، تمامًا كما لو أن شيئًا ما لم يحدث فقط لأنه يحدث، كما لو أن كل شيء هو أساس أو مرآة السر، إن لم يكن السر نفسه، مهما يكن ذلك السر.

قال لي ماركو ذات مرة: إن أعظم سر هو أنه لا يوجد أسرار.

ومع ذلك، عدد قليل جدًّا من الناس على استعداد لقبول هذه الفرضية، على الرغم من أنني أشك أن العديد من القراء استبعدوا ذلك.

أحيانًا لا أكون متأكدًا من أنني أكتب ذلك؛ ربما أقوله فقط؛ ربما أفكر في أنني أقول: إنني أكتبه؛ ربما ولا حتى ذلك، ولكن شيء مختلف تمامًا تفاعل بين الصور والأصوات، لغة لا تتبع أحدًا، على الأقل أنا.

انحرفت ببطء عن المسار، وسرعان ما سيتبين أنني أتحدث إلى نفسي، كرجل مسنٍّ يسيل لعابه في زاوية غرفة، متسخ، وغير حليق، يرتدي سروالاً غير مزرر، ولا يرتدي ملابس داخلية، فيتسنى للجميع رؤية قضيبه المجعّد، وخصيتيه المتدليتان.

وهناك، وبمجرد أن ذكرت "أليس"، تلك السلف الغريب للوليتا، عرفتُ أن المطاف سينتهي بنا في رحلة امرأة ما تبحث عن معنى غامض لاسمها؛ السقوط عبر ثقب، قطة خفية، وشرب هيستيري للشاي.

كلا، عالم "أليس" الخاص بنا كان ثانويًّا تمامًا، تجربة تافهة تحت تأثير الحشيش، وَهمًا، نعلم أنه وهم، لا يمت بصلة للوضع الحقيقي للأمور، ولكن يسير بالتوازي معه؛ لذا نظرتُ إلى ماركو من أسفل، ونظرت إليه بشكل عادي، بعينين كانتا على نفس مستوى وجهه، كما يحدث دائمًا في عالم "أليس"، تجربة أراها الآن، قد تجعلنا نفكر في استحضار شيئًا آخرًا.

ومع ذلك، ما أخافني هذه المرة هو الحقيقة، الحقيقة وليس الافتراض.

حلّق على وجه ماركو شيء مرعب للغاية، تعبير يعبر عن الخبث لدرجة أنني شعرتُ بأن قلبي يخفق بشدة.

لقد ذكرني بأقنعة أكلة لحوم البشر في "غينيا الجديدة"، والتي كانت معلقة فوق فراش الفتاة، التي كنتُ أصادقها منذ نحو عشر سنوات.

عندما رأيت تلك الأقنعة لأول مرة تجمد الدم في عروقي.

وفيما بعد تعودتُ عليها، ولكن عندما مارسنا الجماع لم أكن أجرؤ على النظر إلى الأقنعة؛ كنتُ أغمض عيني أو أثني رقبتي، تفزعني فكرة أن تتحرر إحداها وتسحقني.

وفجأة لم أعد أرغب في الحديث، على الرغم من أن ماركو كان يضايقني بالأسئلة، وحتى انتهت حالة عالم "أليس"، واستقرت جميع المشاهد، عندما استطعتُ بوضوح أن أرى كيف اتخذت ملامح وجهه الوسيمة، تحت تأثير القنب، كشرة من الرعب؛ فلم أستطع حتى بعد ذلك أن أجبر نفسي على الاستمرار.

قلتُ لـ ماركو: إنني متعب، وإنني تأخرت مرة أخرى في تسليم مقالتي "للدقيقة"، ورغم محاولته إغرائي بالبقاء من خلال تدخين سيجارة جديدة، توجهتُ إلى المنزل.

في الليلة السابقة، عندما ذهبتُ إلى المعرض، ووجدته مظلمًا في الداخل، لاحظت الباب المفتوح المؤدي إلى المقهى المجاور، وهناك في الجزء السفلي من الباب الزجاجي، كان هناك نفس الرمز الذي وجدته بالقرب من السوق المفتوح بـ "زيمون".

من الصعب أن أصدق أنني رصدتُ ذلك في الضوء الخافت، كما لو كنت طوّرت مستقبلات خاصة في ذهني، والتي تضطلع بمهمة واحدة فقط وهي: رصد الدائرة والمثلثات، كم من الوقت قد انقضى منذ أن رأيت ذلك الشعار لأول مرة؟ في بعض الأحيان يبدو الثامن من مارس كما لو كان بالأمس فقط، وفي أوقات أخرى اعتقدتُ أن كل هذا قد حدث منذ سنوات؛ ورغم ذلك، ذات مرة عندما غفوت، اعتقدتُ أن

هذا كان على وشك البدء، وفي حين آخر، بمجرد أن استيقظت، كان من الواضح أن هذا لن يتوقف، على الرغم من أن الحقيقة، كما يحدث في أغلب الأحيان، كانت أبسط من ذلك: لا نزال في شهر إبريل؛ إبريل يشبه إليوت، أقسى شهر، مما يعني مرور أكثر قليلاً من شهر؛ خمسة أسابيع، ربما ستة، منذ اللحظة التي شهدتُ الحزن فيها، ويجب أن أضيف بسرعة صفعة غير مقنعة على ضفة نهر "الدانوب".

كل ما حدث، وما علمته، لا يزال لا يعني شيئًا بالنسبة لي، لكني علمتُ أيضًا، أو لكي أكون أكثر دقة، لمستُ أن وراء كل ذلك كان هناك شيء سيتكشّف في لحظة ما، في وقت يصعب للغاية التنبؤ به، وحينها فقط، ستكون الريبة فيه أمرًا مؤكدًا تمامًا، بغض النظر عن مدى لا معقوليته.

ولكن على الأقل، أصبحت اللا معقولية أمرًا عاديًّا ومألوفًا، شيئًا اعتدنا عليه خلال هذه السنوات العشر الماضية، في بلدة لا تعد دولة حقيقية تشارك في حرب لم تكن حربًا حقيقية، نُخضع أنفسنا لحكومة طَلَت نفسها بطلاء الحكومة؛ فأصبحنا جزيرة طافية معزولة عن العالم، كمستعمرة يجتاحها الجذام فلا يرغب أحد في لمسها.

وكما سيقول ماركو: هذا تفسيرك، سبب استثمارك لكثير من الأمل والترقب في هذا الرمز، بناء هندسي مجرد، قد لا يخفي شيئًا معينًا، ولكن هذا السبب قويًّا بما يكفي لجذب أفكارك، بعيدًا عن الفوضى والاضطرابات المحيطة بك.

قد يكون ذلك جيدًا؛ فغالبا ما يكون ماركو على حق، بالتأكيد صحيح بشكل غير مريح، وهو سبب كافٍ بألا أخبره بكل ما حدث في الليلة السابقة؛ فعندما رأيتُ الرمز على باب المقهى، لم أكن مستعدًّا في البداية لتصديق أنه هو نفس الشكل الهندسي، الشكل الذي فسّره دراجان ميتشوفيتش، أو على الأقل حاول تفسيره لي.

تشابه مذهل، هذا ما فكرتُ فيه وأنا أقترب من باب المقهى،

openkandl.com

وأنحني لكي أتحقق منه.

لقد تبادر إلى ذهني أنني يجب أن أتصل به وأسأله عن تفسير ذلك التشابه، وما إذا كان هناك في المصطلحات الرياضية مصطلح أرواح شقيقة، وهو المصطلح الذي يمكن للمرء أن يطلقه على الناس.

إذن، أهناك روح في الرياضيات؟ هل الأرقام واعية؟ كنتُ أفكر في هذا، وأي هراء مماثل له وأنا أنحني أمام باب المقهى المفتوح؟ وبينما أنا راكع كادت أنفي تلتصق بالزجاج.

لا يمكن أن يكون هناك أي شك في أنه نفس الرمز، مرسومًا بنفس النسب، حتى ولو كان ظل بعض الخطوط أكثر سمكًا.

غامرتُ بالدخول إلى مقهى بمجرد أن أصبحتُ مقتنعًا في النهاية، وأنا أرفع كل قدم من قدمي عالية كما لو كنتُ خائفًا، قد أتعثر في خيط غير مرئي يربط بين الرمز وأي شيء آخر، وكنتُ آمل في نفس الوقت أن أحصل على تفسير لسبب تواجد هذا الرمز هنا في وسط "بلغراد" بعد العديد من المشاهد في "زيمون".

أصابني خلو المقهى بخيبة الأمل.

كان هناك شخص واحد فقط وراء النُضد؛ كانت رأسه محلوقة بالكامل، وكانت ملابسه كلها سوداء، كما كان هناك قرط ذهبي صغير في أذنه اليمنى.

وأثناء دخولي إلى المقهى، كما يدرج قرص فضي في نظام الصوت وهو يولي ظهره لي.

لمع كل شيء في الضوء الرمادي الخافت: القرص، القرط، والجزء الخلفي من رأسه، وخصوصًا الجزء الخلفي من رأسه، والتي كانت الأشعة الضوئية تنزلق عليه كما لو كانت على قيد الحياة.

وقع نظره عليّ في المرآة، لكنه استدار فقط بعد انزلاق القرص

في مكبر الصوت، وفقط ليقول: إنها بالأعلى هناك، وأشار بإبهامه إلى السقف.

بعد ذلك اجتاحتنا موجة موسيقية من فرقة "مورفين"، صوت ضربات قوية، وتنهيدات الساكسفون.

نظرت في وجهه.

حرّك شفتيه مرة أخرى: لم أستطع أن أسمع أي شيء على الرغم من أنني قررتُ أنه لم يكن يخاطبني، ولكنه كان يتمتم بكلمات الأغنية التي تدوي في المقهى.

ومع ذلك، حاولتُ وصرختُ بأعلى صوتي، من التي تستتر بالطابق الأعلى؟ نظر الشاب إليّ، وعبس وجهه، ثم اقترب، وقال لي وهو تقريبًا يلصق شفتيه بأذني: لا أستطيع أن أسمعك.

داعبت أنفاسه أذني، وجعلتني أضحك.

حرّك رأسه، ووضع أذنه أمام شفتيّ.

تشممتُ رائحة الغسيل الحلوة، ورأيت شعيرات قصيرة بدأت - على غير رغبته - في النمو.

قلتُ: كنتُ أسأل: من بالأعلى هناك؟ ولِمَ لا تخبرني بذلك؟

حاولتُ بعناية ألا ألمسه لكنني فشلت؛ فلمست شفتاي ثنيات أذنه عدة مرات.

غيّر كل منا موضعه مرة أخرى، وملأت أنفاسه أذني.

وصاح قائلاً: لا أعرف شيئًا سوى أنها قالت: إنني يجب أن أرسل من يتبعها إلى الطابق الأعلى، والذي يرتدي ملابس كملابسك.

خطا بعيدًا عني، وأشار إلى شيء ما خلفي، وحينها فقط رأيت أول

openkamdl.com

درجة من الدرج المؤدي إلى الطابق العلوي.

صعدتُ الدرج وأنا أتكأ على الدرابزين، ثم نظرتُ إلى أعلى.

كنتُ أظن أن الظلام الحقيقي يسود هناك، ولكن بمجرد أن صعدتُ وجدتُ أنني كنتُ مخطئًا.

كان هناك مصباح على كل طاولة، وبالتالي فالغرفة كانت ممتلئة بواحات ضوئية صغيرة، والتي فيما بينها يقبع ظلام أكثر كثافة، ولكن بمقدار خطوة أو خطوة ونصف على الأكثر، وهي المسافة بين كل طاولة وأخرى.

ثم رأيتُ يدها.

كانت للمصابيح الموجودة على الطاولات ظلال منخفضة، وبالتالي كانت رؤوس الزائرين والأجزاء العليا من أجسادهم محاطة بشفق شاحب، في حين كانت الأيدي والأذرع المنخفضة تسطع ببريق غريب، وهذا هو سبب رؤيتي ليديها أوَّلاً، والتي كانت بيضاء بشكل غير تقليدي، وحينها فقط، وفوق حافة الضوء، تنقط وجهها بالظلام.

لا يمكنني أن أتذكر كم طاولة أُخذت، وربما لم يكن هناك أحد في الطابق العلوي سواها؛ يبدو أنني أتذكر جزءًا من المحادثة، ضحك خافت وصل إلى مسامعنا عندما اعترانا الصمت، وهو ما دفعني لاعتقاد أن شخصًا ما كان يسخر مني.

في كل مرة كنتُ أسوي شعري، وأمرر أطراف أصابعي على وجهي، وأمسح زوايا فمي، وأضغط على أرنبة أنفي.

أعتقد أنها لم تبعد عيونها أبدًا عني، وبالتالي، كنتُ طوال الوقت أتساءل، وهذا هو سبب في أنني لم أكن مستعدًّا لإخبار ماركو بذلك، كنتُ أشعر من خلال الاسترشاد بالمنطق الرجولي، أنه لن يفهم مثل هذه النقطة الذكية.

كنتُ طوال الوقت أتساءل: عما إذا كان يمكنها أن تشعر بذلك في أطراف أصابعها التي تستقر على الطاولة، بقلبي الذي يخفق بشدة؛ فلقد كنتُ جالسًا في زاوية، وعلى الجانب الأيسر من صدري كانت هناك حافة الطاولة.

ما الذي تحدثنا عنه؟ أو هل تحدثنا بأي حال من الأحوال؟ أم هل تناوبنا قول جمل متقطعة؟ كان كل شيء مقطوعًا مميزًا، كما لو أننا، في حين أننا نجلس على طاولة واحدة، كُنا في مناطق زمنية مختلفة، وأننا نتحدث إلى أنفسنا.

تمكنتُ مرة أو مرتين من ذكر نهر "الدانوب"، ولكنني لم أذكر ما حدث عند ضفة النهر؛ لأنها أوقفتني، ورفعت يدها، أو قَطبت حاجبها.

سألتها: هل لي أن أعرف اسمك على الأقل؟

قالت: بالطبع.

انتظرتُ.

وبعدها قالت: مارجريتا.

كان لديها وحمتان على صدغها الأيسر، ونمش على عظام خديها، وشعيرات حريرية أعلى زوايا شفتيها، وأثر جرح صغير على طرف ذقنها.

قالت: سقطت من على دراجة عندما كنتُ صغيرة، ولمست أثر الجرح بطرف سبابتها.

جزء من ضحكات شخص ما انسابت إلينا؛ فلمستُ خديّ وأنفي بسرعة.

تضاعفت الموسيقى في الطابق السفلي من المقهى، وصعدت الدرج، وكُرر قرع الطبلة بنفس الرتابة، ذلك القرع المنوّم.

كنتُ أشعر بالطابق يهتز.

أحسست بشيء آخر؛ الغثيان مع دخان السجائر الكثيف ونقص الهواء النقي، وعرفتُ أنني سأستيقظ في الصباح التالي بصداع رهيب.

مسحتُ جبيني.

لاحظتُ لمحة من القلق في عينيها؛ ولم أستطع أن أرى شيئًا آخرًا عندما نظرتُ نظرة أقرب.

سألتُها: إذا ما كانت ترغب في السير.

قلتُ: قليل من الهواء النقي سيكون شيئًا لطيفًا.

أشارت بصمت.

فقلت: لكنني أحتاج للذهاب إلى الحمام، وغسل وجهي، إذا لم تكوني لا تمانعين الانتظار قليلا؟

هزت رأسها.

نهضتُ ونزلت بسرعة إلى أسفل الدرج.

وفي مرآة دورة المياه الخاصة بالرجال رأيتُ وجهي شاحبًا.

غسلتُ وجهي، ومسحته بمنشفة ورقية.

كانت الورقة رقيقة وممزقة فالتصقت بأصابعي.

كم من الوقت ظللتُ هناك؟ خمس دقائق، عشر، ليس أكثر من ذلك بالتأكيد، ولا حتى ذلك، ولكن عندما عدتُ لم تكن هناك.

في البداية ظننت أنها ذهبت أيضًا إلى الحمام، لذا جلستُ هناك بهدوء، متصالب الرجلين، أشرب القهوة الباردة.

نظرت في الطاولة، لم تعد مارجريتا، وعلا صوت الموسيقى، وأخذ

obeikandi.com

الشخص الجالس على الطاولة مجاورة لي يسبُّ بحدة، وأخذ شخص آخر يضحك، وفي النهاية أدركت أنها ذهبت.

نهضتُ فجأة، على استعداد للجري، على الرغم من أنني أستطيع السير بالكاد، وهو ما يعد بؤسًا، ثم ضغطت براحتي يديّ على الطاولة، ولاحظتُ قصاصة من الورق تبرز من تحت صحن فنجانها، فجلستُ مرة أخرى، كانت القصاصة، المنتزعة من إضمامة ورق صغيرة، مطوية مرتين، وعندما تشممتُ رائحتها وجدتها بسيطة؛ فلقد مضت فترة طويلة منذ أن نست عطرها، رائحة كرائحة البتشول أو الفانيليا، والتي لم تعد منشرة.

فتحتُ القصاصة، ثم طويتها مرة أخرى، بسرعة والتفت لأنظر حولي، وحينها فقط فتحت القصاصة بسلاسة، وقرأت ما هو مكتوب عليها: "حلم غير مفسر كرسالة غير مقروءة".

كنتُ أعلم تلك الجملة؛ كانت على ظهر المخطوطة التي أعطاني إياها الرجل الأشيب.

قلبتُ القصاصة، ونظرتُ إلى الجانب الآخر: لا شيء مكتوب، لا شيء مرسوم، رغم آمالي بعكس ذلك.

نهضتُ، والتقطت الفاتورة، وبينما كنتُ في طريقي إلى الدرج لاحظتُ كرة متكومة من الورق تحت الطاولة.

ساد صمتٌ رهيب فجأة، وتركزت جميع العيون عليَّ.

في الواقع، لم يكن أحد ينظر مثلي، وأصبح الضجيج أكثر صخبًا، وصعد ضيوف جدد الدرج، وكان النادل يحمل صينية عليها أكواب من الكابتشينو، وزجاجات صغيرة من الكوكا كولا؛ لذا استطعتُ أن أنحني بهدوء، وألتقط الكرة الورقية الغير المستوية.

ومع ذلك، لكي أكون آمنًا فقط لم أفتحها في المقهى، بل وضعتها في

جيب سروالي الجينز، وظلت في جيبي حتى وصلتُ إلى المنزل.

وحتى عندما أصبحت في المنزل لم أفتحها على الفور، ولكن وضعتها على الطاولة الموجودة في غرفة المعيشة، وجلستُ على الكرسي ذي الذراعين، وأخذتُ أنظر فيها.

ولسبب ما كنتُ على يقين من أن هذه الكومة الورقية تحمل الرسالة الحقيقية، وأن الرسالة التي كانت موجودة تحت صحن الفنجان لم تكن سوى فخ، وَهْم بوجود رسالة، إلهاء شخص لم يكن من المفترض أن يعلم أي شيء.

حاولتُ أن أتذكر هيئة الأشخاص الذين كانوا يجلسون على الطاولات الأخرى، لكنهم اختلطوا، كانوا شاحبين وتافهين، يتألق بينهم وجه مارجريتا دائمًا.

تذكرت وجهًا واحدًا فقط في المجمل، وهو وجه شاب في الحانة، يتوهج بضوء ينعكس كالهالة من رأسه الحليقة.

لقد تذكرتُ حتى القرط الذي كان يرتديه في أذنه اليمنى، والذي كان يتدلى قليلاً، على الرغم من شكله الجميل.

ربما كانت أعمال مارجريتا حذر روتيني تطبقه في كل حالة، بغض النظر عمّا إذا كان هناك خطر حقيقي أم لا؟ مددت يدي نحو الكرة الورقية، ولمستُها بطرف سبابتي.

تدابير الحيطة؛ الخطر، قناع، إلهاء.

ما الذي كان يدور بذهني؟ نظرتُ إلى إصبعي الذي لامستُ به طرف الورقة، كما لو كنتُ أتوقع رؤية قطرة دم عليه.

لعقتُه ورفعتُه عاليًا في الهواء، كما اعتدتُ أن أفعل عندما كنتُ صبيًّا، لتحديد اتجاه هبوب الرياح؛ وحيث أصبح اللعاب على إصبعي باردًا كان ذلك هو اتجاه هبوب الرياح.

obeikandl.com

لم يكن هناك شيء يتحرك في الغرفة، بالطبع، وظل الإصبع رطبًا من جميع النواحي.

التقطتُ منديلاً من جيبي، ومسحتُ إصبعي، ثم اتجهتُ نحو النافذة.

نظرتُ إلى اليسار ثم إلى اليمين، واستطلعتُ الشارع الذي يضيؤه ضوء مصابيح الشوارع الوامض، وعلى الانعكاسات المجزأة على زجاج النافذة بحثتُ عن انعكاس الكرة الورقية خلف ظهري.

كان هناك اثنان من المارة في الشارع على الأرصفة المقابلة، ويريدان عبور الشارع في نفس الوقت، كما لو كانا في مسألة رياضية.

افترضتُ أنَّ شخصًا ما في مكان ما يحسب مكان لقائهما.

كان أحدهما طويل القامة للغاية، وهو ما يعني أن خطوته قد تكون أطول، ولكن إذا كان سوداويًّا بطبعه فسيسير ببطء أكثر، وهو ما من شأنه أن يعطي الآخر- الأقصر والبدين والمتفائل بشكل مبالغ فيه - الفرصة، رغم حقيقة أن خطوته أقصر.

ومع عدم الاهتمام بمطالب هذا المهمة التحفيزية التقى الشخصان عند الخط الأصفر على وجه التحديد، وهو الخط الذي يقسم الشارع إلى قسمين متساويين، بل حتى بدا لي أنهم أشاروا برأسهما لبعضهما البعض على سبيل التحية.

انتظرتُ حتى عبر كل منهما إلى الرصيف المقابل، واتجه كلٌّ منهما إلى وجهته، وبعد ذلك كان كل ما يمكن مشاهدته هو إشارة المرور، ولكن سرعان ما أمكن توقع نمط تغيّرها.

قلتُ لنفسي: لم يعد هناك مجال للتردد، ولكني انتظرتُ حتى تعاقبت الألوان الثلاثة واحدة تلو الأخرى.

مرة أخرى توجهتُ إلى الطاولة، وفتحتُ الكرة، ومهدتُ الورقة.

obeikandi.com

رأيتُ الشكل الهندسي المألوف، وتحته عدد من ستة أرقام، وهو بلا شك رقم هاتف.

لم أكن أعرف ما الذي أتوقعه؛ ربما بضع جمل، شيء أكثر تعقيدًا، بدا هذا بسيطًا إلى حد ما، بسيطًا للغاية بالنسبة لقصة عن "القبالاه" والحوادث المبهمة.

التقطتُ الورقة، ورفعتها نحو أنفي، وتشممتها.

لم يكن بها رائحة.

تفحصتُ الجانب الآخر، كان فارغًا، وكذلك الجانب الآخر من قصاصة الورق.

قلتُ لنفسي: اهدأ الآن، اهدأ!!

ربما كان هناك شيء ينبغي القيام به بهذا الرقم؛ عملية حسابية، إيجاد الطريق الصحيح والذي سيوصلني إلى المعنى الحقيقي.

وبعد لحظة، سألتُ نفسي: ما الذي أفعله هنا، لقد كانت البلاد في حالة انهيار، تهديدات بالقصف معلّقة في الهواء كفاكهة ناضجة؛ كان الناس ينكسرون كما لو كانوا مصنوعين من مكعبات الأطفال، أصبح الجنون هو الطبيعة، وهنا كنتُ أشغل نفسي بأسرار "القبالاه" والمؤامرات المعادية لليهود، وأضيع الساعات والأيام لاكتشاف من خلّف آثارًا عند الوحل الموجود عند النهر، والتي جُرفت منذ فترة طويلة.

كان يجب أن ألتفت حينئذ، وأتجاهل كل شيء، وأسير في الاتجاه المعاكس، ناسيًا إليعازار وانتقاله إلى العالم الآخر، وأعود إلى حياتي اليومية الفوضوية، وإلى قصص السياسة، وتحوّلات الحكومة، إلى تدريبات مهارة البقاء على قيد الحياة، ولكن مثلما لم أفعل ذلك حينئذ، لم أستمع إلى نفسي الآن، وحينما رفعتُ سماعة الهاتف كانت

obeikandl.com

يدي تهتز.

لقد دق جرس الهاتف لعدة ثوان فقط، في المرة الأولى بتشويش، ثم أصبح أكثر وضوحًا وأعلى صوتًا، وعقب القرع الخامس أو السادس توقّف.

"مرحبًا"، قلتُها وكان صوتي كصوت حجر أُلقيَ في الفراغ.

ألصقتُ السماعة أكثر بأذني، لم تعد هناك طقطقة، ولكني كنتُ مقتنعًا الآن بأن شخصًا ما كان يقول شيئًا بصوت هامس، أو ربما يهتف من مسافة كبيرة.

"مرحبًا" قلتُها مرة أخرى وأنا أحس بشعور الشخص الذي ينحني على حافة البئر الحجرية، ويتحدث إلى أعماقه.

انتظرتُ للحظة أخرى، ثم أغلقت الخط.

ما الطريق الخطأ الذي سرتُ فيه؟ مرة أخرى تذكرتُ دراجان ميتشوفيتش، ربما تطلب الأمر حسابات رياضية أكثر دقة، عمليات أكثر تعقيدًا، معرفة أكثر تمرُّسًا بعلم الجبر أو أيًّا كان، لم أستطع أن أرى أمامي أي طريق عندما نظرتُ إلى الأرقام المكتوبة على كومة الورق المسحوقة.

رفعتُ سماعة الهاتف مرة أخرى، وطلبتُ الرقم نفسه وأنا أتذكر مشورة السكرتيرة في "الدقيقة"، عندما شكيتُ أنني لم أستطع الوصول إليهم لساعات.

فقالت حينئذٍ: لا تثق أبدًا بهواتفنا، ولا عندما يتحدث إليك شخص ما، أو حتى عندما لا يقول شيئًا، وأيضًا عندما تجد الخط مشغولاً.

في هذه المرة دق الهاتف على الفور.

كان الصوت عاليًا وواضحًا، عاليًا للغاية في الواقع لدرجة أنني

اضطررتُ إلى إبعاد السماعة عن أذني.

وعندما سمعتُ صوتها وجدته هو نفس الصوت.

قالت: "شكرًا لك".

لم أفهم أبدًا ما الذي يعنيه ذلك، ما الذي كانت تشكرني عليه؛ لذا لم أقل شيئًا.

تذكرتُ كيف لمعت يداها في المقهى، وتساءلتُ: ما الضوء الذي كانت جالسة فيه الآن؟

تخيلتُ ثريّا كبيرة من الطراز القديم، مليئة بكرات الكريستال وسلاسل الزينة، وينكسر من خلالها الضوء، فيصبح أقواسًا صغيرة وضعيفة.

قالت: حل الظلام، قد حل الظلام، غرفتي مظلمة.

لم تعد يدي تهتز، كما لم تعد راحتي يدي يغمرهما العرق.

ولهذا السبب لم أخبر ماركو بكل شيء، بسبب قدرة مارجريتا، والتي لا أجد اسمًا آخرًا لها على قراءة أفكاري.

في الوقتُ الذي اعتبرتُ فيه هذا الأمر قدرة، والآن، وعلى الرغم من كل شيء، اعتقدتُ أنه كان مهارة صعبة، ولكن يمكن التقوي فيها، ولكن بقدر ما اعتقد ماركو، لم يتغير شيء حين علمتُ بذلك.

القدرة أو المهارة، أيٌّ من هذين لم يعني شيئًا بالنسبة له، بغض النظر عن أي علامات فارقة؛ لأنه لن يقبلها، بل كان سيبتسم باستهزاء، وربما ضحك بصوت عالٍ.

كان سيقول: إن يودا في حرب النجوم يستطيع قراءة العقول، وأن هذا لا يحدث في الحياة اليومية، وفي الحياة الطبيعية.

كما كان سيضيف: إنه آن الأوان بالنسبة لك لوقف الحياة في عالم الخيال العلمي، والعودة إلى هذا الكوكب مهما كانت درجة فوضويته.

كنتُ سأقول له حينئذ: إنه لا يعي ما يقوله، وإنني لستُ خائفًا من الفوضى، وكلمة تلو كلمة كُنا سنغرق في دوامة الحشيش حتى نصمت ونتلاشى، أو حتى ننقض على علبة من البسكويت المحشو.

وذات مرة، حسب ماركو أننا على مدار سنواتنا العديدة في تدخين الحشيش أكلنا ما قيمته حوالي سيارة شحن من البسكويت المحشو، على الرغم من أنني لم أؤيد تصوراته أبدًا.

ولم يكن البسكويت المحشو فقط؛ فغالبًا ما تناولنا راحة الحلقوم وأهلّة الشاي والزبيب المغطى بالشيكولاتة.

كان ماركو سيقول: إن هذه الأشياء من سيارة الشحن رقم ٢، وبقدر ما يهتم بذلك تكون المناقشة قد انتهت.

تطلعتُ حولي، وكأنني في شقتي لأول مرة، وألصقتُ السماعة أكثر بأذني، وقلتُ: إن غرفتي كانت مظلمة أيضًا.

في الواقع كان مصباح واحد فقط هو المُضاء، وكان ضوؤه يمكن أن يعتبر شعاعًا ضئيلاً من ظلمة الليل، أو المرحلة الأولى من الظلام الحقيقي.

ربما لم أقل ذلك، أو على الأقل ليس من خلال العديد من الكلمات، لم أعد أتذكر، على الرغم من عدم مرور فترة طويلة على ذلك، ولكني، كمعظم الناس، أتذكر التفاصيل التافهة بشكل أفضل، أمّا الظروف التي أدت إلى الهدف، والهدف في حد ذاته، حتى عندما وصلتُ إليه، كل ذلك يميل إلى مراوغة الذاكرة، كما لو كُنا في حلم لا نستطيع فيه، بغض النظر كم مشينا، أو جرينا، أو نركب على حصان أبيض، الاقتراب من حدود الجدران الموجودة في الأفق أو على شاطىء نهر "الزمرد".

obeikandi.com

بالطبع كان ينبغي أن أسجّل كل شيء إلى أسفل، وألا أدع الكتابة تتحول، كما يحدث الآن، إلى حفريات أثرية.

الكلمات هي أسرع السلع التي تفسد، كما قال رئيس تحرير "الدقيقة" ذات مرة، والذي نظرتُ إلي وجهه بدهشة؛ ليس لأنه نادر ما يعلن عن وجهات نظر كهذه؛ ولكن لأن تلك الكلمات أضاءت فجأة العديد من الأشياء بالنسبة لي، وجعلتني أفكر في اللغة بوصفها عنقودًا من الموز.

لا شيء بالتأكيد يفسد بسرعة مثل اللغة، رغم أن الموز المعسول له سحره الخاص.

لا أعتقد أنني قد ذكرتُ الموز في محادثتي مع مارجريتا ذلك المساء.

استكملنا المحادثة التي توقفت في المقهى، على الرغم من أنها لم توضح لي سبب اضطرارها إلى الانصراف فجأة، ومثلما شعرتُ في المقهى، لم تكن في الواقع محادثة؛ لذلك تحوّل هذا التبادل إلى سلسلة من الجزيئات المتفرقة على طريق الصمت.

توقّفنا بعد ذلك عن الحديث، وبعد لحظة، ودون أن تقول: "وداعًا"، أغلقت الخط.

وفي خشخشة الفراغ التي تلت ذلك، ظننت مرة أخرى أنني أسمع شخصًا يهمس من مسافة بعيدة للغاية، فأبقيتُ سماعة الهاتف على أذني لفترة طويلة لدرجة أن أذني أصبحت، كما رأيتها في المرآة وأنا أستعد للذهاب إلى الفراش، حمراء كالخشخاش، كما كانت تؤلمني من أقل لمسة.

في اليوم التالي أخبرتُ ماركو بأمور أخرى، وفي النهاية نصحني بالبقاء بعيدًا عن كل ذلك؛ لأن في وقت قريب جدًّا، ستنتابني رغبة في أن أصبح يهوديًّا، وبعد ذلك، سيجب أن أتطهر روحيًّا.

ثم غمز بعينه وضحك.

يكفى هذا.

يجب أن أعود إلى بضعة أمور أخرى وقعت؛ لأنني لو لم أفعلها الآن فلن أدرك ما يحدث.

لهذه القصة العديد من المواضيع من الخيوط، وربما لن تصبح أبدًا قصة حقيقية.

القصص منظمة، والخيوط في القصص متناغمة مع بعضها البعض، وما أقوم به هنا يعد بشكل أكبر انعكاسًا للحياة الفوضوية، والتي يحدث فيها الكثير في وقت واحد.

سمعتُ أحدهم يقول: إن الحياة مثل مسرح العرائس انقطعت فيه العديد من الخيوط؛ لذا فكل واحد منا هو محرك عرائس بائس، يحاول جمعها وإعادة توصيلها لتصبح شيئًا يمكن تشغيله، ولكنه يظل يقع في أخطاء.

تصبح الحياة عقدًا محلولة، وعند محاولة عقدها مرة أخرى – ولكن هذا العمل البسيط يصبح أكثر تعقيدًا مع مرور السنين – تتضخم الأصابع، وتزداد صلابة، ويضعف النظر، وتسقط الأسنان.

تتمايل الدمى على المسرح، وترفع الأذرع بدلاً من السيقان، وتدور حول نفسها في الوقت الذي يجب أن تنظر فيه بشكل مباشر.

في الصيف تبحث عن الظل، وفي الشتاء تطلب القفازات والأوشحة.

تشكو من أوجاع الغاز، وترتدي زوجين مختلفين من النظارات لتستطيع قراءة الرسائل، وعندما لا يكون هذا كافيًا تقرأ فقط عناوين الصحف، ثم تخمّن المقالات، وهذا يجعل عالمهم بشكل أكثر وأكثر نتاج خيالهم، كما ربما ينبغي أن يكون؛ لأنه بعد أن تأتي اللحظة التي لا يعد فيها شيء مهمًّا، والتي يبقى فيها لمحرك العرائس شيء وحيد

يمكنه القيام به، وهو: ترك الخيط الذي يحمل لوحة الجنازة، ويشاهد نفخة الغبار البسيطة وهي تعلو خشبة المسرح الفارغ.

وينتهي العرض.

إنها النهاية.

ليس هذا ما قصدتُ التحدُّث عنه، ولكني قصدتُ شيئًا لا زال بعيدًا.

كانت جدران الدرج في المبنى الذي أسكن فيه مغطاة ببقع ذات ألوان مختلفة، وأشكال غير منتظمة، والتي كان يستخدمها جيراني، كانوا في محاولة لتغطية الصلبان المعقوفة الكبيرة والصغيرة، والنجوم السداسية التي تقطر بالدم، وشعار معاداة السامية الوجيز، إذا كان من يعادون السامية يصفونه بذلك: (بعدًا لليهود).

أصبحت الرسائل في صندوق البريد الخاص بي متكررة، ورتيبة لدرجة أنني توقفتُ عن الاحتفاظ بها.

وذات ليلة، وجدتُ كومة صغيرة من البراز على ممسحة الأرجل.

انحنيتُ ثم جثيتُ على ركبتي؛ لأنظر إليها عن قرب.

كانت صلبة، متضامة، وأمكنني تصوّر الجهد الذي بذله صاحبها لكي تخرج منه.

وربما كان ذلك مصحوبًا بألم وتمزق وعاء دموي على طول حافة فتحة الشرج، ولكن ضوء الدرج كان ضعيفًا جدًّا؛ فلم أتمكن من ملاحظة أي آثار لدماء متجلطة.

حكمتُ من خلال موقع البراز، الملفوف بشكل مرتب، على الشخص الذي قام بذلك وهو يجثم على ممسحة الأرجل، وافترضتُ وجود شخص آخر يقوم بالمراقبة عند باب المبنى.

وإذا كانا قد جلباه من مكان آخر لكان هذا الشكل الثباني الطبيعي فسد بالتأكيد، أو تشوه على الأقل.

لم أكن حريصًا على حمله؛ لذلك التقطتُ الممسحة بما عليها، وقذفتها في حقيبة تسوق بلاستيكية كبيرة تحمل اسم متجر للأزياء.

اشتريتُ ممسحة جديدة تحمل كلمة مرحبًا، ولكن عندما وجدتها بعد بضعة أيام غارقة في البول، لم أبال بشراء واحدة أخرى.

وهكذا كما قال ماركو: ربما كان هذا انتصارًا للوحش، وأعتقد أنهم جرّبوا ما يكفي، ومع ذلك، أجبتُ بأنني أود أن أفعل ما هو أفضل، أي: إنفاق أموالي على أشياء أكثر فائدة.

يمكنني دائمًا تنظيف حذائي على ممسحة جاري؛ فلا حرج في ذلك.

ثم استمعتُ لصوت العقل: إذا كنتُ أتعرض لمثل هذه الأشياء، فلا بد أن يكون اليهود الحقيقيون قد عانوا من سوء معاملة بدرجة أكبر من تلك بكثير.

وما يدعو للاستغراب أن ياتشا ألكالاي وإسحق ليفي لم يتعرضا لأي حوادث من هذا القبيل، أو ربما، كما ادعى ماركو، أنهما فضّلا عدم الحديث.

وقال ماركو: الخوف هو أعظم رقيب.

لم أرَ ياكوف تشفارك كثيرًا في غضون هذه الأحداث، ولكن عندما التقيتُ به مصادفة في شارع "كنيز ميهايلوفا" أخبرته بالأمر.

وبينما أنحني نحوه لأستمع بشكل أفضل وَسَط في هرج ومرج الشارع، رأيتُ شخصين مألوفين عند مدخل الممر الذي يؤدي إلى شارع "تشيكا ليوبينا".

لم أستطع أن أتذكر في البداية أين رأيتهما من قبل، ولكن بعد ذلك،

obeikandi.com

وكفيض من أنغام من الأكورديون والتي انطلقت من مكان ما، تذكرتُ تلك الليلة الممطرة عندما بادراني عند مدخل البناية التي أسكن بها.

كان أحدهما قد لكمني عند شجيرات الحضانة في مستدقي مباشرة في كليتي.

أمّا الآخر فقد تغير بعض الشيء؛ كان شعره قد نما أو ربما شاربه، ولكن لم يكن هناك أي شك في أن أنفاسه كانت تصطدم بعنقي.

سألني ياكوف تشفارك: هل فهمت الآن، لم هذا هو حاله الآن؟ نظرتُ إلى شفتيه وكأن عليها كلمات لم أسمعها بعد، فلم ألاحظ سوى كسرة من الخبز.

وتابع ياكوف قائلا: قد يتحسن الأمر في يوم من الأيام، وفي الوقت نفسه، فهذا هو حاله.

ثم قال: إنه على موعد مع طبيب قلب في سني، كل ألم حاد مفاجىء يتم تفسيره على أنه إعلان للغياب النهائي لجميع الآلام.

وضرب على صدره في مكان القلب، على اليسار، فنظرتُ مرة أخرى إلى مدخل الممر.

لم يكن هناك أحد.

نظرتُ إلى اليسار ثم إلى اليمين، والتفتُ وظللتُ أسير باتجاه قلعة "كاليميجدان"، وأنا أدور كدوارة الرياح الطائشة.

كان لي تجارب مماثلة على مدار الأيام القليلة التالية، ليس كل يوم بالطبع، رغم أنها كثير من الأحيان تكفي لتصيبني بالقلق تجاه الخروج إلى الشارع.

كان تسلسل الأحداث هو نفس التسلسل تقريبًا هنا وهناك، وحدي أو في جماعة، كنتُ أرى وجوهًا مألوفة، متوارية عن الأنظار

ولكنها حاضرة، وفي اللحظة التي أبعد نظري عنها تختفي.

قال ياتشا ألكالاي: عندما شكوت له من هذا تجاهلها؛ فهي وجوه مشوهة وفاسدة، ومرت بالعديد من التجارب السيئة.

لم أصدقه، واستشعرتُ أنه لا يصدق نفسه.

عندما سألتُه عمّا يجري حقًّا في المجتمع اليهودي تجنب الإجابة، وعندما ذكرتُ تردد إشاعات في المدينة أن المقبرة اليهودية قد تم تخريبها عمدًا، أجاب: إنني يجب ألا أصدق كل ما أسمع، ولكن إذا كان الفضول ينتابني فيمكنني الذهاب إلى المقبرة، واستطلاع الأمر بنفسي.

قال: الموتى، كما تعلم، لا يكذبون.

ولذا ذهبتُ إلى المقبرة.

كانت البوابة المعدنية مطلية لتوّها.

فتحتُها بصعوبة، وخطوتُ إلى داخل المقبرة، وتركتها لتُغلق بصوت عال.

بعد كل ضوضاء وفوضى المرور، كان سكون المقبرة مؤلمًا نوعًا ما.

كان الشارع الواسع الذي تصطف فيه نباتات دائمة الخضرة يؤدي إلى نصب تذكاري كبير يشبه أجنحة الفراشة، أو بتعبير أدق، بوابة السماء، بوابة العالم الآخر.

كان اليوم مشرقًا ودافئًا، وكان المسار تقاطعه الظلال.

مشيتُ ببطء، ثم توقفتُ، وتفحصتُ شواهد القبور، ولكن لم أستطع التخلص من الشعور بأن شخصًا ما يراقبني.

ربما كان هذا هو الحال في كل مقبرة، بحضور جميع الموتى،

واستشعار الصمت، ولكن فقط لأشعر بالأمان التفتُ حولي عدة مرات بشكل مفاجىء، وجلستُ القرفصاء عازمًا على انتظار ظهور شخص ما.

لم يبد أحدٌ.

ظللتُ جالسا القرفصاء حتى شعرتُ بالألم في ساقيّ وفخذيّ، فنهضتُ بصعوبة كبيرة، وجلستُ على أقرب مقعد.

رغم أن الشارع لم يكن طويلاً إلا أن النصب المجنّح بدا كما لو كان بعيدًا في الأفق، كما لو أنني لن أصل إليه أبدًا.

وفجأة، بدأت فروع شجرة الصنوبر فوقي تتمايل، رغم أنني لم أشعر بأي هبوب للرياح.

مرّت ورقتين أو ثلاث ورقات من أوراق شجرة الصنوبر أمامي، واخترقت إحداها، والتي تبدو كالسهم، كُم سترتي.

تجمدتُ في مكاني ثم انحنيتُ.

نظرتُ إلى أعلى.

كان لا يزال هناك حفيفًا، ولكنه يأتي الآن من قمة الشجرة.

اعتقدتُ أن هذه يجب أن تكون هي طريقة تعريف الموتى بأنفسهم.

لم أنظر إلى الخلف ثانية.

خفضتُ رأسي، وسارعتُ نحو النصب.

أردتُ الخروج من نفق الأشجار دائمة الخضرة في أسرع وقت ممكن؛ كي أصل إلى مكان لا يكلمني فيه أحد.

خرجتُ من بين الظلال، وظننتُ أنني رأيتُ شخصًا يمر خلف أجنحة النصب؛ لقد خطا من وراء الجناح الأيمن، واختفى وراء الأيسر.

تجمدتُ في مكاني.

وقفتُ على ممر خرساني في طريقي إلى النصب، وأخذتُ أنظر في المساحة الفارغة بين الأجنحة.

ربما تكون تلك هي أجنحة ملاك، ولكن هذا لم يخفف من الرعب الذي أشعر به.

كان هناك احتمال واحد فقط، فسرتُ ببطء؛ خطوة تلو الأخرى، على طول الممر الذي يؤدي إلى النصب.

حبستُ أنفاسي واستمعتُ، كان الصوت الوحيد الذي أمكنني سماعه هو صوت تدفق الدم في أذني.

نظرت بعينين نصف مغمضتين في المساحة الفارغة على الممر وأنا أحمي رأسي بذراعي، وأرفع قدمي عاليًا.

وعندما فتحتُ عيني كنتُ وجهًا لوجه أمام جدار المقبرة.

التفتُ حولي.

بين جناحي النصب كنتُ أرى البوابة الحديدية في الطرف المقابل من الممر.

خمد القصف في أذني، ولكن قلبي كان يخفق بشراسة.

لم يكن هناك شيء أكثر غباءً من مجيئي إلى مقبرة، واستعراض عجزي.

تحركتُ ببطء بين شواهد القبور.

كان بعضها يقف بميل، وتآكل بعضها مع مرور السنوات، ولكن لم أرَ في أي مكان حجارة محطمة، أو جرافيت مرسومًا على عجل.

في إحدى الزوايا رأيتُ إبر حقن مهملة، وأوقية ذكرية متجعدة،

هذا النوع من الشيء الذي يمكن العثور عليه في أي مقبرة، ولا تبدو أنها تحوي أي رسالة معادية للسامية.

مشيتُ عبر جانب آخر، ثم عدتُ إلى الشارع الظليل.

وهناك، عند نافورة متواضعة والتي كانت المياه تقطر منها، لفت انتباهي نصب تذكاري على شكل كومة من الكتب.

انحنيتُ لألقي نظرة فاحصة، ولاحظتُ أن جزءًا من شاهد القبر كان فاتح اللون، كما لو كان غُسل مؤخرًا، أو نُظف ونقي بمطهر قوي.

جلستُ القرفصاء، ورغم الجهود العظيمة التي بذلها الشخص الذي حاول محو الرسالة غير المرغوب فيها، استطعتُ تمييز كلمات (الموت لليهود).

وبدلاً من علامة تعجب بعد هذه الكلمات كانت هناك علامة غريبة، وربما كانت محاولة غير ناجحة لشخص ما للتوقيع على الرسالة.

نهضتُ، ومسحتُ العرق من على جبيني.

لِمَ لم يؤكد ياتشا ألكالاي ببساطة قصة تخريب المقبرة، بل وإرسالي لأتأكد بنفسي؟ لقد قال: إن الموتى لا يكذبون، وبالفعل؛ فالموتى لا يكذبون.

إنهم يقولون الحقيقة في جزء المقبرة القريب من بوابة المدخل.

كانت هناك ثلاثة شواهد القبور ملقاة على الأرض محطمة، وكان من الواضح، رغم أن القطع كانت قد وضعت على اللوحات كما لو كانت تنتظر الإصلاح، ربما تسببت في سقوطها وتحطمها قوى غير طبيعية.

هناك ثلاثة شواهد لم تسقط من تلقاء نفسها.

غسلتُ يدي في النافورة، ونفضتُ عنهما الماء، ومسحتهما بمنديل.

openkandl.com

بذلتُ جهدًا كبيرًا لأفتح البوابة من الداخل، وبينما أجذب المقبض الحديدي الكبير، تساءلت: عما إذا كان هناك شخص ما قد أغلقه ليحبسني داخل المقبرة وحدي؟

ثم أصدرت البوابة صريرًا، وتزحزحت من مكانها، وعندما جذبتها، وخطوتُ إلى الشارع تردد صوت كصوت الرعد.

نظرتُ إلى اليسار ثم إلى اليمين، نظرت في كل اتجاه.

وفي الأيام التالية، كما قلتُ من قبل، كانت هذه الاقتراحات تسبق كل ما أفعله، وأحيانًا، بل حتى اليوم، كنتُ أنظر في كل اتجاه عندما أفتح باب السيارة، رغم أنني في مدينة مختلفة، ولا أحد يتوقع مجيئي.

قبل ست سنوات، كانت كل إشارة، كل مرة يدخل فيها شخص ما بعنف، كل كلمة تُقال بصوت عال، عدم الصفير، كل ذلك كان ذا دلالة على شيء ما مختلف تمامًا عمّا تعنيه هذه الإشارة، أو الاندفاعة، أو الكلمة ظاهريًّا.

ولم يكن الواقع يختلف عن الواقع في "بلغراد" إلا خلال تلك السنوات، ولم يكن هناك المزيد من الإصرار على حقيقة أن هذا الواقع كان فعليًّا هو فقط الواقع الحقيقي.

وهكذا وقفتُ على الرصيف، وشاهدتُ الترام يتدحرج على بُعد، ويجاهد لسماع تمتمات الموتى وراء ظهري، وتساءلتُ: عن كيفية درء باعة الزهر المتجولين العدوانيين السائرين في طريقي.

لم أستطع أبدًا التصرف في مثل هذه الحالات، وعادة ما ينتهي بي الأمر إلى شراء كل ما يُفرض عليّ.

كان السبيل الوحيد للدفاع عن نفسي هو الابتعاد؛ لذا التفتُ إلى الاتجاه المعاكس، وسرتُ بسرعة على طول سور المقبرة، ولكن زاد الباعة المتجولون أيضًا من سرعتهم، وترددت أصداء صيحاتهم في أذني؛

صيحات وجيزة تقدم جميع أنواع الزهر.

"لا تبالي بهم" قالها رجل لي فجأة.

واصلت امرأة عرض الزهر للبيع وهي تدفع الباقات بقوة تحت أنفي.

وحينما وصلنا إلى الزاوية تابع الرجل: توقّف.

ففعلتُ ذلك.

توقفتُ، وقلتُ: ماذا الآن؟

فأجاب الرجل: اشترِ الأزهار الآن.

قالت المرأة: ما تبحث عنه يوجد في الباقة، (ورفعتها) القرنفل ملفوف بورق مبلل.

سألتُها: كم يبلغ ثمنه؟

نظر الرجل والمرأة إلى بعضهما البعض، ثم قالت المرأة في النهاية: ادفع ما تشأ.

سألها الرجل: لن تأخذي منه المال فعليًّا، أليس كذلك؟

قلتُ لنفسي: إنه إذا كان هناك شخص ما يراقبني فسيكون الأمر برمَّته حقيقية.

قالت المرأة: حسنًا، أعطني ورقة، أعطني أي شيء.

دسستُ يدي في جيبي وأخرجتُ إيصالاً مكوّمًا لطرد بريدي مسجل، والذي التقطته المرأة بأطراف أصابعها، كما لو كانت الورقة ساخنة للغاية، وأسقطتها في جيبها، ودفعت باقة الزهر بين ذراعي.

التفتا بعد ذلك، وسارا نحو بوابة المقبرة، حيث كان البائعون

obeikandl.com

الآخرون يصيحون لبيع الزهر والشموع، في حين بقيتُ في الزاوية، وباقة الزهر تستقر على صدري.

قلتُ في وقت لاحق لـ ماركو: وما الذي كان ينبغي أن أفعله؛ هل ينبغي عليّ العودة أم أظل سائرًا، كما لو كنتُ قد قررت أن هذه الباقة تخص من هم على قيد الحياة، وليس للموتي؟

قال ماركو: إنه إذا كان في موقفي كان سيعود إلى المقبرة، وإنه لم يكن ليهمل معرفة ما في الباقة.

فأجبته: مفتاح، أو في الواقع، كيس صغير من البلاستيك به مفتاح.

فقال ماركو: هذا جيد، ولكن ماذا يتبع؟

فأجبتُ: بأنني أيضًا أود معرفة ذلك.

(أريته المفتاح) مفتاح عادي صغير، من ذلك النوع المستخدم لصناديق البريد، أو خزانات الملابس.

شعر ماركو بخيبة أمل؛ فقد كان يتوقع مفتاح خزنة؛ مفتاح عليه علامة غير عادية، شيء يشير إلى صعوبة أي محاولة للفتح.

قال: إذا كان هذا شكل المفتاح فلن يكون ما هو مخفي هناك شيء ذو قيمة.

سألته: ألا ينبغي لنا أولاً معرفة ما يقوم هذا المفتاح بفتحه، ثم الحديث عمّا يوجد هناك؟

فأجاب ماركو: أنت على حق، واقترح علينا تدخين سيجارة من الأعشاب المحلية.

وادَّعى أن الأعشاب من "مونتنيجرو"، وأنها تخلف مذاقًا سيئًا في الفم، وتسبب العطس، وهذا هو سر نجاحها أيضًا، صفعة جانبية بطيئة ومريرة.

بعد مرور بعض الوقت، والذي أمضينا معظمه في النظر في السقف، تساءلتُ بصوت عالٍ: كيف سأجد قفل المفتاح الصغير الذي وجدته في الباقة.

من أين أبدأ؟ أين يجب أن أبحث؟

أجاب ماركو: ربما يكون هناك شيء ما مكتوب على الكيس الصغير الذي كان بداخله.

فقلتُ: إنه كيس شفاف من البلاستيك، لا يوجد شيء عليه.

تساءل ماركو: هل أنت متأكد؟ في بعض الأحيان يكون من الصعب أن ترى أشياءً واضحة للعيان.

تنهدتُ، ونهضتُ بمشقة، وشققتُ طريقي ببطء، واتجهتُ نحو سلة المهملات الموجودة بجوار مكتبي.

وعندما ركعتُ ركعت الغرفة بأكملها معي، وعندما أحنيت رأسي نحو السلة شعرتُ بدماغي تلمس جبهتي من الداخل.

كانت السلة ممتلئة بكومة من الأوراق المكوّمة، وكان الكيس البلاستيكي على القمة.

التقطتُه بين إصبعي الإبهام والسبابة، ولوحتُ به منتصرًا إلى ماركو، وأثناء تلك الحركة أُضيء الكيس بشعاع من الضوء الآتي من المصباح الموجود عند الأريكة، وأصبحت الحروف (K,R,S,Q) والرقم ١٣ واضحة للعيان.

لم ألاحظهم من قبل؛ لأنهم لم يكونوا مكتوبين بقلم حبر جاف أو مُعلم؛ وإنما تمَّ خدشهم على السطح الداخلي للكيس بواسطة شيء حاد، والذي ربما كان طرف مَشْرط.

صاح ماركو عندما أريته الكيس: مربع كارادورد، الرقم ١٣!

obeikandi.com

اقترح علينا الذهاب إلى هناك فورًا، وكان يرتجف من الإثارة، والتي انتابتني بعضها.

استطعتُ بالكاد عقد رباط حذائي، وبدت ملامح وجهي في المرآة وكأنها ترتعش، كما لو كان جسدي يهتز بأكمله.

قال ماركو ونحن نخطو إلى الشارع: هذه الأعشاب ليست سيئة.

وقال: إنه يشعر بأنه يمشي بتثاقل عبر طبقات من الصوف، وأن أخمص قدميه لا تستقر أبدًا على أرض صلبة.

ربما كان هذا هو سبب استغراق سيرنا لوقت طويل نحو البناية متعددة الطوابق.

كان المدخل قذرًا، مغمورًا بالصحف الممزقة والأكياس البلاستيكية، وأغلفة رقائق البسكويت المحشو، وشرائط الشيكولاته.

كانت الجدران مرسومة عليها رسائل وخربشة.

كانت صناديق البريد على الجانب الأيمن، وكان الكثير منها محطمًا، وبعضها محروقًا، وبعضها مطليًا بألوان مختلفة.

بحث ماركو عن الصندوق رقم ١٣، ولكنه كان مفتوحًا على مصراعيه، وبابه يتدلى من مفصلة نصف محطمة.

قال ماركو: شخص ما سبقنا إلى ذلك.

لم يكن أمامي إلا أن أوافق على ذلك.

من يدري كم من الوقت وقفنا هناك محترسين لليأس الذي كُنا نشعر به، حتى رفعتُ عيني مرة أخرى نحو صناديق البريد، وفحصتها بعناية حتى وجدتُ صندوق البريد الذي يتوافق قفله مع المفتاح الذي أحمله.

ope ikandi.com

كان الصندوق يحمل رقم ٢٢، وانزلق المفتاح داخل القفل بسلاسة، دون أدنى مقاومة.

في الجزء الخلفي من الصندوق كان هناك مفتاح آخر، ولم يكن هناك شك هذه المرة؛ فكان من الواضح أن المفتاح الثاني مخصص لفتح وقفل باب شقة.

نظرتُ إلي ماركو الذي أومأ.

ولكي يطمئن قلبنا فقط عدنا إلى الباب الأمامي، وفحصنا المنطقة.

قررنا أن الشقة تكمن في الطابق الرابع أو الخامس، واقترح ماركو أن نستقل المصعد، ولكني صممتُ على صعود الدرج، مُدعيًا أن مزيدًا من الحذر لن يضير، وأن المصعد قد يكون أكثر خطورة؛ فوافق ماركو رغم أنه فعل ذلك بسبب امرأة دخلت المبنى للتو، وليس من أجلي.

صعدنا بسرعة، فكُنا نتخطى درجتين أو ثلاثة في المرة الواحدة، وعندما توقفنا في الطابق الرابع كُنا نلهث بشدة.

وبينما نتكىء على الدرابزين توقفنا لنلتقط أنفاسنا، ثم اتجهنا إلى الباب الذي يحمل رقم ٢٢.

نظرتُ إلى ماركو الذي أومأ برأسه مرة أخرى.

وضعتُ المفتاح في القفل وأدرته مرة، ثم مرة أخرى وأدرتُ مقبض الباب بحذر شديد.

انفتح الباب، وقادنا إلى ردهة مظلمة.

دخل ماركو أولاً ثم تبعته.

أغلقتُ الباب، واستندتُ إليه، ومسحتُ العرق من على جبيني.

قال ماركو وهو لا يخفي تهكمه: لقد دخلتُ شقة في غياب مالكها.

obeikandl.com

وبعد ذلك تحسس الجدار المجاور للباب بحثًا عن مفتاح الضوء.

نقر بإصبعه عليه، ومع تردد صوت كمدى البندقية، سطع الضوء في الردهة.

انعكست وجوهنا في مرآة بيضاوية الشكل.

كان البابان المؤديان إلى داخل الشقة مغلقين؛ فكان أحدهما - وهو المؤدي إلى المطبخ - نظيفًا وأنيقًا بشدة، كما لو لم يستخدمه أحد من قبل.

اتجه ماركو إلى الثلاجة وفتح الباب؛ كانت فارغة.

وقفنا قليلاً أمام الثلاجة المفتوحة، ونظرنا في داخلها كما لو كان يحمل الإجابة على كل أسئلتنا.

أغلق ماركو الثلاجة، وعدنا إلى الردهة، وفتحنا الباب الآخر، والذي كان يؤدي إلى غرفة الطعام، والتي كانت تقود بدورها إلى غرفتين أخريتين.

ومع ذلك، أذهلنا ما رأيناه عندما كُنا واقفين عند مدخل غرفة الطعام؛ كانت جميع الجدران، من الأرض إلى السقف مغطاة بأرفف مكتظة بالكتب.

كانت هناك كتب على الأرض مكدسة في أكوام غامضة مُترجحة.

الشيء نفسه في الغرف الأخرى؛ الأرفف مكتظة بالكتب ولا شيء آخر.

في الغرفة الأكبر كان هناك مكتب صغير، وكرسي مكتبي رسمي ذي مقعد يدور على محوره، وكان هذا هو كل شيء.

قال ماركو: شيء لا يصدق تمامًا، مثل تلك الرواية التي تتحدث عن الرجل الذي عاش في شقة مليئة بالكتب.

لم يستطع تذكر اسم الرواية أو حتى اسم الكاتب، لكنه كان يعلم أن كل شيء انتهى بانفجار كبير، حريق التهم الكتب بلا رحمة.

لم أكن أعرف أي رواية يقصدها، رغم أنه بالنسبة لي، استدعى المشهد أوصافًا لشقة عاش فيها أبطال "سالينغر"، (الأسرة الزجاجية)، أو أيًّا كان اسمهم.

كان لديهم - أيضًا - كتب في كل مكان، على الأرفف، على المقاعد، وعلى الأرض، وحتى في حوض الاستحمام.

قال ماركو: هكذا الأمر دائمًا، تضع كتابًا في مكان ما، وبعد يومين أو ثلاثة تجده قد أصبح كومة، كما لو كانت الكتب تتجمع هناك من تلقاء نفسها.

حدث ذلك له لمرات عديدة، فقرر الاحتفاظ بالكتب في شقته في مكان واحد فقط، وإلا ستنتشر كالعفن، فلا يستطيع شيء جمعها مرة أخرى.

قلتُ: يجب ألا تقارن الكتب بالعفن.

ولكن ماركو اعترض على ذلك، مؤكدًا أن هناك عفنًا جيدًا، وأن كل ما يصيبه العفن لا يحتاج إلى إلقائه بعيدًا.

وقفنا في غرفة الطعام مرة أخرى، ونحن لا نعلم ما الذي يتعين علينا القيام به بعد ذلك؟

لم أكن أرغب في مواصلة الحديث عن العفن.

اتجه ماركو نحو المكتب، وبحث في مقصورة جانبية ثم فتح أحد الجارورين.

قال بصوت أجش: ليس هناك شيء.

ثم فتح الجارور الثاني، ووجد مظروفًا يحمل اسمي.

التقطتُ المظروف، وتشممتُه.

لم أكن أعرف: ما الذي أتوقعه؟ لكنه لم يكن له رائحة مميزة، رغم أنني كنتُ مقتنعًا بأن اسمي قد كتبته مارجريتا، والتي استطعتُ أن أميّز عطرها.

أصر ماركو على أن أفتحه على الفور ولكنني رفضتُ.

انتابه الذهول، وضم شفتيه، ولم يقل شيئًا.

فاجأني رفضي أيضًا، رغم أنه كان يمكنني توقّع ذلك بعد قراري بعدم إخبار ماركو بلقائي بـ مارجريتا.

ومثلما تجذب الكتب مثيلاتها من الكتب، تجذب الثقات غير المتبادلة مثيلاتها، وبعد صمت مبدئي، تبعه أيضًا صمت آخر.

كان ماركو بالتأكيد أقرب صديق لي، وهو شخص عرفته منذ الصغر، لكن في بعض الأحيان يجب أن يكون المرء حذرًا حتى مع مثل هذه الصداقات.

بعبارة أخرى، هناك لحظات يكون من الأفضل فيها للمرء أن يكون بمفرده، وكنتُ أريد هذه اللحظة لقراءة الرسالة التي أخرجها ماركو من جارور المكتب.

قام ماركو بآخر محاولاته؛ كي أغيّر رأيي، وقدّم لي سيجارة، والتي أخرجها من جيب قميصه.

قال: إن قليلاً من مخدرات "مونتنيجرو" ستجعل كل شيء مختلف.

فرفضتُ، وقلتُ: إنه لا ينبغي أن يدخن المخدرات في شقة غريبة، ليس بها طفايات للسجائر، مع احتمال ظهور أي شخص في أي لحظة.

ومع ذلك، لم يهتم ماركو لكلامي وأشعلها، فذهبتُ إلى المطبخ، وفتحتُ النافذة.

obeikandi.com

كان المطبخ يطل على نهر "الدانوب"، والممر الذي يمتد إلى فندق "يوغوسلافيا"، والذي كان مهجورًا، ربما بسبب الغيوم التي تجمعت في سماء "بلغراد".

كان هناك صبية يلعبون كرة القدم في مكان ليس بعيدًا عن البناية الشاهقة.

سمعتُ ماركو يصفّر وراء ظهري، ثم صوت مقعد يصدر صريرًا، وسعال ماركو.

ثم لاحظتُ على منحدر معشوشب عند الفندق؛ حيث دعائم محطة سكة حديد "زيمون" القديمة أن هناك مجموعة من الأشخاص يجتمعون في دائرة مُحزّزة غير مستوية، فبدوا من حيث أقف وكأنهم يستمعون إلى شخص ما يقف في منتصف الدائرة.

قلتُ لنفسي: ثمة أمر ما يحدث.

وناديتُ ماركو الذي ألقى نظرة على ما يحدث على المنحدر، وأطفأ السيجارة على الإطار المعدني للستائر المعدنية، وقال: إن الأمر يبدو له أشبه باجتماع حزب بيئي.

وأضاف: لا يجب أن نضيع وقتنا.

وإلى جانب ذلك، ليس لدينا ما نقوم به هنا، على الأقل بالنسبة لبعض منا.

وأضاف في وقت لاحق بعد أن غادرنا البناية: عليّ الانصراف، والذهاب إلى مركز "زيمون" بسرعة.

شاهدتُه وهو يسير، وفجأة وجدتُ نفسي أظن أنه سينصرف إلى الأبد.

كانت الفكرة مخيفة للغاية لدرجة دفعتني للمشي خلفه.

ناديتُه باسمه.

لم يسمعني، أو ربما تظاهر بذلك، وواصل سيره متعرجًا بين المشاة والسيارات المتوقفة حتى فقدتُ أثره.

لامست الجيب حيث توجد الرسالة المطوية، والتي خشخشت ورقتها بهدوء.

فكرتُ في أنني يجب أن أقرأها؛ لقد بدأت في إدخال يدي في الجيب، ولكن بعد ذلك التفتُ واتجهتُ نحو التل الموجود عند الفندق.

مشيتُ أمام الأولاد الذين يلعبون كرة القدم، وكانوا يشتمون.

كان هناك كلب مربوط في عمود إنارة، والذي كان مستخدمًا كقائم المرمى، وكان الكلب ينتحب ويهز ذيله في كل مرة تطير فيها الكرة تجاهه.

خرجتُ على الطريق، ومررتُ بكشك يبيع الطعام والعصائر.

كانت رائحة السمك المقلي تفوح في طريقي، وكانت هناك سيدتان حبلتان تسيران ببطء، وهما يمسكان بيدي بعضهما البعض.

ذكرَتْ إحداهما رياح "كوتشافا"، رغم أن اليوم لم يكن عاصفًا، ورفعت الأخرى يدها تلقائيًا لتسوي شعرها.

قرعت فتاة صغيرة على دراجة جرسها، ثم طلبت منا السماح لها بالمرور.

وبالأعلى، طارت طائرة عبر السماء، تاركة وراءها ذيلاً أشعث، في حين على طول النهر كان هناك قارب، والذي انعكست صورته على سطح المياه؛ لذا ظننتُ للحظة أن القارب في الأسفل ليس القارب الحقيقي، كان يحمل قاربًا آخرًا أعلاه.

تساءلتُ: أين ماركو، أيكون قد وصل بالفعل إلى المنزل أم لا؟ وهل

سيكون غاضبًا غدًا عندما أذهب للبحث عنه؟

قلتُ بصوت عالٍ: لمَ غداً؟ يمكنني أن أراه الليلة.

نظرت إليّ امرأة عجوز جالسة على مقعد نظرة حادة، ثم هزت رأسها.

كانت تحيك، وكانت المرأة الجالسة إلى جوارها تحيك الكروشيه.

ومن بين عشرات السيارات الكهربائية كانت واحدة فقط هي المستخدمة من قِبل فتاتين صغيرتين، واللتين كانتا تنتظران دورهما.

وعلى الطريق كتب شخص ما بالطباشير: "من يحب فيسنا يجب أن يكون مجنونًا".

مررتُ بزلاقة ضخمة على شكل زرافة بأربعة جوانب، وبالقرب منها كان هناك ضاغط هادر كريه الرائحة، ثم امتد جانب التل بأكمله أمامي.

كان من رأيتهم من نافذة البناية الشاهقة لا يزالون واقفين على المنحدر، بل ربما كانوا مقتربين من بعضهم البعض بشكل أوثق، وكانوا لا يزالون يشكّلون دائرة غير منتظمة.

ظننتُ وأنا أسير باتجاههم عبر العشب أن الفارق الوحيد أنه لم يكن هناك أحد داخل الدائرة.

في الواقع، "الدائرة" ليست الكلمة الصحيحة.

تبين لي وأنا أقترب، عكس ما كان يبدو من بعيد من نافذة البناية الشاهقة، أن الدائرة المحززة غير المنتظمة هي في الواقع عبارة عن تنظيم معقد من الرجال والنساء، شريط بشري مطوّقًا للتل الصغير بأكمله، ويتفرق ببطء.

كان أفراد المجموعة يتركون أماكنهم تدريجيًّا وبشكل متأنٍ

obeikandi.com

وبكفاءة لدرجة أنني عندما وصلت إلى قمة التل لم يتبقَ هناك أحد.

الزوج المتبقي، وهو رجل أشيب وامرأة شابة تشبهه، مر بي أثناء صعودي للمنحدر.

وقفتُ عند الركائز المعدنية القديمة بمفردي، وكانت أذناي مليئتان بأصوات مختلفة كما لو كنتُ واقفًا عند سفح برج كنيسة.

ولعدة دقائق، أمكنني تتبُّع الأشخاص وهم يبتعدون عن التل، ومع ذلك، بعد دقائق قليلة بدؤوا في الاختلاط مع السائرين، وبحلول الوقت الذي تطلعتُ فيه حولي، كانت الأسطح العشبية قد أصبحت فارغة.

لمستُ جيبي مرة أخرى، وقلتُ لنفسي بهدوء من بين أسناني: عد إلى منزلك، عد إلى منزلك.

التفتُ ونزلتُ إلى أسفل التل، وتوجهتُ نحو ضفة نهر "الدانوب".

وحينما كنتُ أعبر الطريق التقيتٌ صدفة بفتاة صغيرة على دراجة، ربما كانت نفس الفتاة في طريق العودة إلى البنايات الشاهقة.

وصلتُ إلى الدرجات، وجلستُ على أولها، فكانت قدماي تقريبًا في المياه.

أخرجتُ الرسالة من جيبي، وفتحتُ المظروف.

كانت الرسالة قصيرة، قصيرة إلى درجة مخيبة للآمال، تحتوي على ثلاث جمل.

أعرف أولها جيدًا: (حلم غير مفسر)، والمكتوب بأحرف كبيرة مستوية كرسالة غير مقروءة.

كانت الجملة الثانية كالتالي: (حينما تقرأ الرسالة فذلك يفتح الطريق للأحلام).

openkandil.com

والجملة الثالثة: (إن لم تكن الأحلام أحلامًا، فما هي؟)

ظننتُ أن الهدف من هذا التوقع هو فقط أن أجد نفسي في مواجهة مع سؤال آخر.

هل يجب عليّ أن أسحق الرسالة وأن ألقيها في الماء؟ كنتُ غاضبًا، غاضبًا حقًّا، وهو بالتأكيد أمر مضحك؛ لأن الشخص الذي يتلقى رسالة لا يحدد أبدًا مضمونها، ولكن بمجرد أن يفتحها لا تكون هناك رجعة؛ لأنه بغض النظر عن مدى صعوبة محاولته لحشو هذه الرسالة مرة أخرى في المظروف، لن تعد كما كانت، حتى ولو أعاد غلق المظروف بإتقان خادع للعين المجردة.

لم أسحق الرسالة، رغم أن فكرة طيها على شكل قارب ورقي ظلت تداعبني لفترة أطول.

رسالة من راسل مجهول متوجهة إلى اتجاه غير معروف، والغموض المضاعف أصبح فجأة مصدرًا للراحة بالنسبة لي.

طويتها بعناية، وأعدتها إلى المظروف، ثم وقفت ودسستها في جيبي.

تناثر رذاذ موجة على الدرجات على حذائي الرياضي.

عندما صعدتُ إلى أعلى درجة، ونظرتُ إلى الخلف رأيتُ آثار أقدام رطبة متوجهة بشكل مباشر إلى قدمي.

اعتقدتُ أنَّ شخصا ما يتبعني، ثم انفجرتُ ضاحكًا.

كنتُ أضحك في كل مرة أتذكر فيها هذه الفكرة، وخصوصًا وأنا أسير أمام المرأة العجوز التي تحيك.

وعندما سمعت ضحكتي المكتومة نظرت إلى أعلى وهزت رأسها؛ أمّا المرأة التي كانت تحيك الكروشيه فلم تتحرك.

obeikandl.com

ظننتُ أنها صماء، ولكن بعد ذلك، عندما وصلتُ إلى البناية الشاهقة، أدركتُ أن شخصًا ما كان يتبعني بالتأكيد.

أصبحتُ فجأة واثقًا من أن شخصًا ما خلفي كان يبذل جهدًا؛ لأظل في مرمى بصره.

كنتُ مجاورًا لأول البنايات الشاهقة، بمسافة ليست بعيدة عن المكان الذي بدأ فيه كل شيء، وكنتُ أستطيع أن أرى الملعب والآباء يتبادلون التحيات، ويشجعون الأطفال في القطار الذي يشبه اليرقة.

فكرتُ في أن هناك رجلاً في مكان ما هنا يرتدي معطفًا أسود واقيًا من المطر، ويقف عند الأرجوحة أو الحصان الخشبي ذي الأذن المكسورة، يراقب امرأة خطت لتوِّها في الماء.

درتُ حولي، ورفعتُ يدي عالية كما لو كنتُ على استعداد لتوجيه ضربة من ضربات الكاراتيه، وقال أحد الأشخاص الذي خرج للتنزه بصوت مسموع للغاية: إنه مجنون.

فقلتُ: لستُ مجنونًا، على الرغم من أنني كنتُ بالكاد مقنعًا.

في هذه الأثناء، كان القطار الصغير قد توقف، وكان الأطفال يهبطون منه، وهم يصيحون ويصطدمون بالأطفال الذين حان دورهم في الركوب.

همستُ لنفسي مرة أخرى: عد إلى منزلك، عد إلى منزلك، وتوجهتُ إلى المنزل، رغم أنني شعرتُ بأن شخصًا ما، والذي يحافظ على مسافة حذرة يركز بصره على الجزء الخلفي من رأسي.

قلتُ لـ ياشتا ألكالاي في اليوم التالي: إن هناك أشياءً يجب على المرء تجاهلها، وتلك هي أفضل وسيلة لتختفي على الأقل للحظة.

فقال ياتشا: سأفترض ذلك دون اقتناع.

ثم نهض، وذهب إلى النافذة، ونظر منها.

كُنا نجلس في مرسمه، وننتظر وصول داتشا، ونتراهن على ما إذا كان سيأتي وهو يرتدي قبعة.

لم أكن قد رأيتُ داتشا العجوز منذ اللقاء في فناء كُنيس "بلغراد"، وهذه المرة على الأقل كما قال ياتشا: إن داتشا هو الذي طلب رؤيتي، رغم أنه لا يعرف السبب.

أخبرته أنني ذهبتُ إلى المقبرة اليهودية، وأنني رأيتُ آثارًا للتخريب، وأنني لم أفهم سبب تردده بشأن ذهابي.

فقال: إنه سيكون من الأفضل بالنسبة لنا أن نشرب بعض البراندي، وتوجه إلى الرف الذي تتراصّ عليه الزجاجات.

ذكرته بأنه قال لي: إن الموتى لا يكذبون، وإن حقيقتهم لا بد أن تُحترم.

فقال: ولكن كي نحترم الحقيقة يجب أن يكون هناك أشخاص يرغبون في ذلك.

في نهاية شهر يوليو من العام الماضي، تم إسقاط العديد من شواهد القبور في المقبرة اليهودية بـ"زيمون"، وتم تشويه بعض، وتلطيخ بعض، ومنذ ذلك الحين، لم تكن هناك نهاية لذلك.

يمكنني التحدث في أي مكان يعجبني، وأن يتم الاستماع إليّ بأكبر قدر من المواساة، ولكن بخلاف هز الرأس وربما بعض الدعاء، لا يحدث أي شيء، رغم وعودهم التي يقدمونها، لن يبذل أي منهم أي جهد.

وأضاف: هذه هي أوقات يكثر فيها الكلام، وحينما يكثر الكلام القليل هو ما يتم تنفيذه.

وضع ثلاث زجاجات على الطاولة، وبدأت في سكب البراندي، ولكن

يده كانت ترتعش بشدة لدرجة أنه اضطر إلى التوقف.

التقطتُ الزجاجة، وملأت الكؤوس تقريبًا حتى حافتها.

قال ياتشا: لكل شيء موسم، والحياة هي في جوهرها، مهارة مطابقة الموسم إلى الشيء.

والآن ليس موسم المقابر، فدعنا نأمل ألا يحملها الموتى قرينة ضدنا.

ثم أعلن فجأة وبصوت مشرق وصول داتشا، وجرع كأسه مرة واحدة.

كان داتشا يرتدي قبعته، رغم أننا لم نستطع أن نتذكر من الذي راهن على ذلك؟ لذا فاستعداد داتشا للانتظار خارج الباب، حتى نتراهن مرة أخرى، لم يعيدنا إلى طيشنا السابق؛ فالبراندي، بأسلوبه الذي لا يمكن التنبؤ به، أغلق كل مسار، وطريق إلى مزاج أكثر إشراقًا، وسرعان ما صمت ثلاثتنا بحزن، ونحن نقبض بإحكام على كؤوسنا.

قال ياتشا: المقابر هي عبارة عن آبار عميقة للغاية، ولو بدأت في الحديث عنها فلن يكون لديك خيار سوى الاستمرار في السقوط.

ابتهجت أذناي عندما سمعت كلمة "آبار".

تأمّل ياتشا رؤيته بالسقوط في البئر، ولكن في رؤيته، أو ربما في حلم قديم، وصل في نهاية البئر إلى عالم مثالي جديد ومشرق، وهو نتاج انبعاثات "القبالاه"، والذي سادت فيه حكمة معصومة.

قلتُ: قد تكون الحكمة معصومة، ولكن إذا كان البئر بلا نهاية فلن يصل سقوط الرجل أبدًا إلى تلك النهاية.

احتج ياتشا بأنني آخذ الكلمات بمعناها الحرفي، أو أنني فهمت كلمة "بلا نهاية" على أنها تعني شيئًا بلا نهاية، ولكن كل كلمة لها معاني لا تعد ولا تحصى؛ لذلك على مختلف المستويات، في عوالم

مختلفة، يمكن لكلمة "بلا نهاية" أن تعني العديد من الأشياء.

وقال: لا يتم أبدًا سبر أغوار أي كلمة؛ فهي تحتوي بداخلها دائمًا كل الكلمات الأخرى، وبالنسبة للغة، أرى أنها سلسلة من الأوعية المكدسة واحدة داخل الأخرى.

لم أفكر في اللغة على أنها أوعية مكدسة، ولكن هذا ليس بيت القصيد.

بالنسبة لي، اللغة حية؛ لذا لا تتكدس في حزم أكبر أو أصغر؛ حيث لا يستطيع أي شيء حي أن يتساهل مع القيود، وإذا كان هناك شيء يعرّف اللغة؛ إذن فهو حرية حركة الكلمات، موضوع وقت آخر ومكان آخر.

وفي هذه الأثناء، بدأ العرق يتصبب من أسفل قبعة داتشا، وحان وقت السماح له بالكلام؛ فلو لم نفعل ذلك فسيذوب تمامًا من كثرة العرق، مخلّفًا قبعته وحذاءه فقط.

قال داتشا: هكذا تتخذ الأشياء موقفًا.

وضع كأسه على الطاولة، وعضّ شفتيه، ثم قال: في يوم السبت عندما التقينا في فناء الكُنيس، في الواقع، في وقت متأخر من تلك الليلة، حلمتُ بـ إليعازار.

كان يقف على ممر مغبّر، مرتديًا حمّالة كتف يتدلى منها إناءان مملوءان بالمياه، وأشار إلى الأفق وقال: اذهب إلى "سريمسكي كارلوفيتشي".

سألته: ماذا سأفعل في "سريمسكي كارلوفيتشي"؛ فأنا مستقر حيث أوجد الآن، لكنه ظل يكرر: اذهب إلى "سريمسكي كارلوفيتشي".

فاضطررتُ في النهاية إلى الموافقة على الذهاب، فتوقف عن الحديث، ولوّح لي واختفى.

ثم استيقظت.

خلع داتشا قبعته، ومسح العرق من على جبينه.

أمعن النظر في القبعة، ثم وضعها على الأرض بجانب المقعد، ثم تابع قائلاً: استلقيتُ مستيقظًا، وحاولتُ أن أفهم: لمَ يرسلني إليعازار إلى "سريمسكي كارلوفيتشي"؟

فقال ياتشا: أمن أجل النبيذ؟

فأجاب داتشا: كلا، من أجل السجلات.

نظر ياتشا إليّ فهززت كتفاي؛ قال داتشا: المرة الأخيرة التي زرتُ فيها "سريمسكي كارلوفيتشي" كنتُ في الصف السابع أو الثامن الابتدائي، ولم أكن مهتمًا سوى بما يحاول المعلمون تدريسه لنا.

توجد سجلات أرشيفية هناك، وعندما أصبحت الأمور أفضل قضيت معظم يوم ما في تلك الغرف.

كان إليعازار على ما يبدو على علم بذلك، وإلا لمَ ذكر ذلك المكان بعينه في "فروتشكا جورا" من جميع الأماكن في العالم؟ ولكن بينما كنتُ مستلقيًا هناك بعدما استيقظت أدركتُ أن إليعازار يعرف شيئًا آخرًا، شيئًا فاته قبل ذلك - قد أو ربما - بدا في وقت آخر لا أهمية له.

لم أستطع العودة إلى النوم، وظللتُ أتقلب حتى بزغ الفجر، وبعد ذلك، ذهبتُ إلى محطة القطار، وركبتُ القطار المتجه إلى "سريمسكي كارلوفيتشي".

عندما دخلتُ الأرشيف رمزت أمينة أرشيف أول ما رأيتها بالصليب، وتعجبت من أنني أبدو كالشبح.

سألتني: ما إذا كان أي شخص قد تسبب لي في بعض المتاعب، أم ما إذا كنتُ قد تزوجت أخيرًا؟ الجميع يعرفونني هناك كعازب ملعون،

وهو صحيح بلا شك، ولكن لِمَ حولني الزواج إلى شبح؟ لم أستطع أن أفهم، وهكذا، وقفتُ أمام مكتبها وأنا غير متأكد ما إذا كان يجب أن أبدأ بمحادثة حول تقلبات الحياة الزوجية، أو أبدأ بالبحث عما أحضرني إلى هناك، ولم أدرِ كم من الوقت كنتُ سأستغرق في الدوران حول قبعتي لو لم تضرب أمينة الأرشيف جبينها، وتقول: إنها معجزة أنني أتيت ذلك الصباح، فلو أتيتُ في يوم لاحق أو حتى في وقت لاحق بعد ظهر ذلك اليوم لم أكن لأجدها في مكتبها.

قالت: لم يكن لأحد أن يعرف أن في انتظارك مظروف وصل من "زاجريب"، من يدري كيف كان مختومًا بخاتم أرشيف المدينة؟ لم أرسله لك؛ لأن لا أحد يعلم ما آل إليه حالي.

توقفتُ في حجرة القراءة، ولم أترك عنوان إعادة توجيه، أو رقم هاتف، أو اسم شخص يستطيعون الاتصال به حتى يظل المظروف معها، غير مفتوح بالطبع.

قالت: إن أحدًا لم يفكر في فتحه حتى لو كانوا قد علموا أن أسوأ شيء في الوجود، لا قدر الله، قد وقع له.

فأجبتُ: إن هناك أشياءً أسوأ من الموت على سبيل المثال؛ الخيانة، أو الخداع.

فاحمر وجه أمينة الأرشيف التي تعرف السبب، وسرعان ما انحنت، وسحبت مظروفًا أبيض صغيرًا من الدرج الأسفل.

أعترف أن حجم المظروف أصابني بخيبة أمل؛ فلقد توقعتُ رسالة أكبر وأضخم، ربما بسبب المقدمة المطولة لأمينة الأرشيف.

وضعتُ قبعتي على مكتبها، والتقطتُ المظروف وتشممته، أشارت أمينة الأرشيف بإصبع سبابتها المتجعد إليه.

فتحتُ نهاية المظروف، وأخرجتُ ورقة مطوية من أوراق الأعمال

المكتبية، في أعلاها: "سيدي العزيز".

ثم تابعت الرسالة: "لقد تصادفتُ في الآونة الأخيرة مع المطبوعة المرفقة، وتذكرتُ أنك كنت تبحث عن هذه المعلومات منذ وقت طويل".

لا أعرف: ما إذا كنت لا تزال مهتمًّا بهذا الموضوع، ولكنني اعتقدتُ أن هذا قد يكون مثيراً للاهتمام.

وفي نهاية الرسالة: "هناك محفوظات أخرى عاملة الآن، ولكن آمل ألا يتم نسيان المحفوظات القديمة، أو وهو الأسوأ من ذلك، تدميرها".

قال ياتشا: يبدو هذا لطيفًا، ولكني لا أفهم شيئًا منه.

قال داتشا: أنت لم تفهم شيئًا أبدًا، ونظر إليّ كما لو كان يبحث عن مساندة، رغم أن كل ما أمكنني فعله هو أن أرفع يدي بطريقة بائسة.

قال ياتشا: ستقول لنا الآن: إن هذه الرسالة أتت من "زاجريب" من شعلتك القديمة.

"هراء"، (قالها داتشا بدون ابتسامة على جانبي فمه).

وتابع قائلاً: إنها صديقة جيدة، هذا كل ما في الأمر، امرأة كنتُ غالبًا ما أراها عندما كنتُ أتصفح الوثائق منذ سنوات عديدة في الأرشيف الكرواتي، وأنا أبحث، من بين أمور أخرى، عن معلومات حول إليعازار.

وهنا تطلّع في وجهي مرة أخرى.

ولكن يجب أن أخبرك بشيء آخر.

ثم أغلق عينيه وانحنى؛ فاعتقدتُ أن النوم قد غلبه.

ثم قال: لستُ نائمًا، كنتُ فقط أتساءل: أين قبعتي؟

فأجاب ياتشا: أسفل المقعد، أين يمكن أن تكون خلاف ذلك؟

تابع داتشا: في ذلك الوقت، كنتُ مهووسًا بالعلقيات.

كان يعرف أن هذا قد يبدو غريبًا.

ثم أكمل حديثه: ولكن العلقيات اعتادت على أن تكون سلعة ثمينة.

من الصعب تصديق، على سبيل المثال، أنه خلال عام واحد فقط، وهو عام ١٨٣٣م، استورد الأطباء الفرنسيون أكثر من أربعين مليون علقة، وإذا وضعت جميع البلدان الأخرى في الاعتبار، تم تبادل أكثر من مائة مليون علقة خلال ذلك العام.

أصبحت العلقيات شائعة جدًّا في القرن التاسع عشر في أوروبا، لدرجة أنها أصبحت جنسًا معرضًا للخطر، وكانت على حافة الانقراض.

كان يجب على شخص ما بالطبع أن يذهب، ويجمع كل تلك العلقيات، وعلى عكس العديد من الوظائف الأخرى التي كانت محظورة على اليهود في ذلك الوقت، أو مقتصرة على النخبة، لم يكن أحد يتصارع بشأن جمع العلقيات، لذا كان هناك بين اليهود عدد قليل جدًّا من جامعي العلقيات، ومن يخرجون ويجمعونها من المستنقعات، ولكن كان هناك أيضًا أولئك الذين ينظمون شراءها، وإعادة بيعها.

ورغم الطبيعة المنفرة لذلك العمل، كان هناك آخرون يحتجون، كما كان الحال مع معظم المهن، على إصدار تصاريح لليهود لذلك النوع من العمل، ومن بعض أكثر الاحتجاجات صراحة كانت من التجار الصرب والألمان الذين كانوا ينظرون إلى اليهود باعتبارهم منافسين مزعجين.

قاطعه ياتشا قائلاً: يا إلهي! من يمكنه أن يعارض جمع العلقيات؟ العلقيات، أشعر بالاشمئزاز من مجرد الفكرة.

صاح داتشا: شخص واحد أيضًا، وصفق بيديه.

ثم تابع: شخص واحد أيضًا لا يعرف شيئًا عن العلقيات!

قال ياتشا: كل ما يهمني هو أنها مثيرة للاشمئزاز، أمّا الباقي، فلا يهم.

فعلّق داتشا قائلاً: يجب أن تهتم، ولكن كما هو الحال دائمًا، تفضل أن تخدش السطح، تمامًا كلوحاتك.

قال ياتشا: إن لم تصمت سينتهي أمرك دون قبعتك.

فعبس داتشا، وانحنى، وأمعن النظر تحت مقعده.

وعندما اعتدل كان وجهه أحمر.

ثم سأل ياتشا وهو يلمس قبعته: أنت لن تجرؤ، أليس كذلك؟ لم يُجب ياتشا.

فتابع داتشا: هل تعلمون ما يقوله التلمود؟ إنه يقول: إن من يأخذ قبعة رجل آخر قد يفقد روحه.

فأجاب ياتشا: هل أنت جامع للعلقيات أم واعظ؟

فقال داتشا: أم أنك مجرد صانع للقبعات؟ استمع إليه، من فضلك، والتفت إليّ، وكل ذلك بسب أنه لم يتغلب أبدًا على رهاب طفولته، خوفه من العلقة التي التصقت به عندما كان ينثر قطرات المياه في البرك، رغم أن العلقيات تفعل كل ما بوسعها؛ لتمنع ضحاياها من الشعور بالألم، وهو ما لم يكن يعرفه آنذاك، وجنبًا إلى جنب مع مانعات التخثر، والتي تسمح بسريان الدم دون عائق، فتلك العلقيات تفرز مسكنًا للألم، مما يساعد الضحية، أو المريض، على عدم الشعور بأي شيء.

نظرتُ إلى ياتشا الذي كان غاضبا، ولكن لم أكن متأكدًا مما إذا كان ذلك العبوس علامة على غضب حقيقي، أو مجرد فعل في أداء مُتَدرب

عليه بشكل جيد.

بنمط معين، ربما كان يجب أن يعتريني الغضب؛ لأن ادّعاء داتشا عن العلقيات غير المؤلمة ذكّرني بالكلمات الافتتاحية في كتاب نابوكوف عن جوجول؛ حيث يقدم نابوكوف وصفًا مقنعًا لعذاب جوجول عندما قام الأطباء بتصفية دمه؛ فأصبحت العلقيات تتدلى من أنفه الأسطوري.

في كل مرة أقرأ فيها تلك الكلمات أشعر بالاشمئزاز من فكرة قوة هذه العلقيات، والتي لا تختلف، كي أكون صادقًا، عن اشمئزاز ياتشا الذي كان يتحدث عنه منذ لحظة، ودائمًا ما فكرتُ كم كان ألم جوجول مبرحًا، وكم كان يشعر بالفزع والبؤس والذل، وفجأة دمر داتشا الصورة أمام عيني بكون العلقيات مسكنة للألم، مما جعلني أشك أن جوجول، ذا الأنف الحقيقية، ونابوكوف كان ينبغي لهما أن يحذراني في مكان ما بغياب ذلك الألم.

تحدث داتشا بصوت عالٍ قائلاً: لكي أقنعكم بأنني أخبركم بالحقيقة، يجب أن أضع علقة على ساقي كل منكم.

فصاح ياتشا: أنت مجنون! أنت حقّا مجنون!

فانتابت داتشا نوبات من الضحك، إلا أنه لم يصفق هذه المرة، بل أخذ يضرب على فخذيه.

توجهتُ إليه، ولامست كوعه، وقلتُ: لمَ لا تخبرنا بما كان في الوثيقة؟ فكل شخص لديه الحق في أن يخاف مما يشاء.

أعرف امرأة تفقد وعيها كلما ترى صورة أي نوع من أنواع العنكبوت، بل إن حتى مرأى رسم لعنكبوت يصيبها بصداع لا يُحتمل.

إذن: لمَ لا يحق لشخص أن يشعر بالاشمئزاز من العلقيات؟

وافقني داتشا قائلاً: حسنًا، ولكني أرغب في أن أرى علقة على

obeikandi.com

طاولة العمليات الجراحية لـ بيروجوف، الجراح الروسي، الذي يمكن أن يلصق ما يصل إلى مائتي علقة على مريض.

سألته: الوثيقة، ماذا تقول الوثيقة؟

فكرر داتشا قصة اهتمامه بالوظائف غير العادية التي قام بها اليهود في "زيمون" و"سريم"، مثبتًا كيف سيخبرنا في المرة القادمة عن جمع الخرق، وهي: التجارة المربحة للغاية؛ لأن الخرق كانت المادة الخام اللازمة لإنتاج الورق.

ثم تابع داتشا حديثه قائلاً: ومع ذلك، لم تجذب العلقيات انتباه التجار الصرب والألمان، بغض النظر عن الطلب الكبير، والأرباح الجيدة.

وبينما كنتُ في أرشيف "زاجريب" وجدتُ العديد من الوثائق حول جامعي العلقيات اليهوديين، والذين بشأنهم وكذلك بشأن المواد في المهن الأخرى صدرت مجموعة متنوعة من التصاريح والحظر، وكذلك كان هناك دعم وشك؛ واستدعاء للوائح القانونية، وتحاشٍ واضح لنفس هذه اللوائح.

وحيث إنه لم يكن مسموحًا لليهود بالإقامة بشكل دائم على الحدود العسكرية، استخدموا كل فرصة، حتى أصغر الفرص، بحجم العلقة على سبيل المثال؛ ليجدوا وسيلة كي يستقروا - ولو لمقدار قدم واحدة على الأقل - على أرض صلبة.

في حالة العلقيات، بطبيعة الحال، سيكون من الأفضل قول كلام قذر بدلاً من أرض صلبة، ولكن حتى الطين يمكن أن يوثق به أحيانًا.

هناك شيء حول الطين في التلمود، لكن لا يمكنني تذكر مكانه الآن.

توقّف عن الكلام، وبدأ في الإشارة برأسه.

نظرتُ أنا وياتشا لبعضنا البعض.

فقال داتشا: لا تنظران إلى بعضكما البعض؛ فلستُ نائمًا، فقط أحاول أن أتذكر اسم جامع العلقيات في فوج «برود».

اعتدل بعد ذلك، وفتح عينيه، وقال: إن اسم المشتري كان ماركو فيلنر، وإنه كي يصبح مشتريًا كان يدفع أكثر من ألف فورنت سنويًّا، في حين يعطي الجامعين عشرة كراكارات فضية لمكيال موحد، والذي اتضح أنه حوالي كوب وأكثر قليلاً.

لم يجرؤ أحد على صيد العلقيات دون الضوء الأخضر من فيلنر، وكان ذلك الشرف الذي حظي به مؤيدًا من قِبل القيادة العسكرية، وهو ما كان بالطبع مفارقة؛ لأن الجيش كان ينبغي أن يقوم بعكس ذلك تمامًا، أي: إنه كان ينبغي أن يشجع اليهود على أن يتركوا منطقة الحدود العسكرية.

من الواضح أن الجميع اهتموا أكثر بكسب مبالغ قليلة من المال، حتى لو كانت من تجارة العلقيات؛ لأن أزمة جامعي العلقيات برزت فجأة في مراسلات القيادة العامة السلوفينية، على سبيل المثال، هناك إشارة لقضية اثنين من اليهود تسكّعا حول مدينة "سلوفينيسكي برود" لأكثر من شهر في عام ١٨٣٣م دون الحصول على تصريح، وهو ما كان أمرًا غير مقبول على الإطلاق وفقًا للوائح آنذاك، وسُمح لهما أن يكونا في "برود" فقط في أيام مرور المعدّيات، وحتى في هذه الأثناء، فقط طوال المدة اللازمة لهم لاستلام العلقيات المرسلة من البوسنة، شريطة ألا يتم التورط في أي تهريب، في هذه الحالة لن ترحمهم السلطات، أي: اليهود، وليس العلقيات، وستطردهم من الحدود العسكرية على الفور.

والآن، وهنا تكمن المعلومات الإضافية التي وصلت من "زاجريب"، مقتطف من وثيقة راوغتني، أو كانت مدرجة تحت تاريخ لاحق؛ حيث تبلغ القيادة العامة السلوفينية مكتب قاضي "زيمون" أن الشاب اليهودي الذي كان يقوم بتهريب العلقيات قد تم اعتقاله بالقرب من

مدينة "سلوفينيسكي برود"، وعندما تم استجوابه بشأن اسمه ومنشئه أجاب: اسمي فولف إينوخ، ناقل للمياه من "زيمون".

لم تصدقه القيادة، وسعت للحصول على تأكيد من القاضي بوجود شخص بهذا الاسم في سجلات يهود "زيمون"، وفي الوقت نفسه طلبت من القاضي حال تبيّن صحة ادعاءات المعتقل توضيح سبب السماح له بترك مهامه في "زيمون"، والإتيان إلى مدينة "سلوفينيسكي برود" وخاصة؛ حيث إنه لم توجد لديه أي كمية كبيرة من العلقيات، ولكن العديد من المخطوطات والزجاجات في حقيبته، والتي كانت تحتوي على مجموعة متنوعة من السوائل والمساحيق، التي أثارت مزيدًا من الشك، واستحقت الخصوصية والحذر.

لم يتم الاحتفاظ برد قاضي "زيمون"، ولكن رغم ذلك يمكننا أن نرى بوضوح أن هذا الشخص لم يكن هو فولف إينوخ؛ لأن الوثيقة تشير لشاب، في حين أن فولف إينوخ، إذا كان شخصًا واحدًا والشخص نفسه أيضًا، كان يبلغ من العمر آنذاك حوالي ثمانين عامًا، ولم يستطع أحد أن يصفه بأنه يهودي شاب، إلا إذا كان في الحقيقة هو فولف الذي نعرفه، ولكنه تغيّر أو استعاد قوته على نحو ما رغم تقدّمه في السن.

وعند هذه النقطة كان ياتشا يشير بيديه بحماس.

ثم تابع قائلاً: وكما ترون، يقتبس المقتطف جزءًا من رسالة من الأمر المؤرخ يناير ١٨٣٤م، والذي ينص على حتمية بذل مكتب قاضي "زيمون" جهدًا لإيجاد معلومات إضافية حول فولف إينوخ؛ لأنه اختفى من الزنزانة التي كان معتقلاً بها، وعندما يقولون اختفى فهم يقصدون المعنى الحرفي للكلمة.

كان هناك أشخاص آخرون في تلك الزنزانة، وعندما استيقظوا ذات صباح لم يكن فولف بينهم.

لم يسمع أو يرَ أحد شيئًا، ولم تكن هناك آثار لنفق محفور أو

قضبان محطمة، كما اختفت حقيبته من المكتب؛ حيث تم التحفظ عليها، رغم عدم وجود أحد في المكتب في تلك الليلة، ووجود المفتاح في جيب أحد حراس السجن الذي قضى الليل بأسره في سريره، كما أكّدت زوجته.

وأوضحت الوثيقة ختامًا: إن هذا الاختفاء ينقص من قدر عمل الشرطة، والقسم المقابل للقيادة العامة السلوفينية، وطلبت منهم بذل الجهد بأقصى سرعة ممكنة لمعالجة قضية جامع العلقيات اليهودي، الذي لا يمكن أن يكون قد ذات ببساطة في الهواء.

إلا إذا كان - وغمز بعينه لي - عزيزنا إليعازار، والذي - كأحد القبالانيين - لا يمثل له الانتقال إلى أي مكان آخر- مهما كان بعيدًا - أي مشقة على الإطلاق.

انحنى بعد ذلك، والتقط قبعته، ووضعها على رأسه، وقال: لقد حان الوقت.

ثم قرع جرس الباب، فنزع قبعته على الفور، ونهضتُ أنا، وقال ياتشا: إنه لا ينتظر قدوم أي شخص.

وحينما فتح الباب لم يكن هناك أحد بالتأكيد.

أخبرت ماركو عندما قمتُ بزيارته في وقت لاحق أن الأمر لم يقتصر فقط على عدم وجود أحد، ولكن الدرج كان مظلمًا؛ لذلك تراجع ياتشا خطوة سريعة إلى الوراء عندما فتح الباب، وتمامًا كما كان سيفعل حال رؤيته لشخص غير عادي أو مشهد غير متوقع عند الباب، وحيث كنتُ أنا وياتشا على اقتناع بأن ذلك هو سبب تراجعه إلى الوراء، مشينا نحو الباب، ثم تراجعنا نحن أيضًا إلى الخلف والظلام في مواجهتنا.

أطلنا النظر لفترة أطول قليلاً في الظلام، ثم أغلق ياتشا الباب، وسألنا: عمّا إذا كُنا نرغب في الشراب.

أضاف بعد ذلك قائلاً: إن الظلام يجلب العطش.

فأشار ماركو برأسه كما لو كان يوافق على ذلك، رغم أنني يمكنني أن أرى أنه لم يكن يستمع بعناية كما كان يفعل في الأيام السابقة.

أخبرته بما حدث على التل القريب من فندق "يوغوسلافيا"، وهنا بدا أنه أكثر استعدادًا للاستماع، بل إنه سأل بعض الأسئلة حول ملابس هؤلاء الأشخاص، وما إذا كان أي منهم حافي القدمين، وما إذا كان عدد الشقراوات فيهم أكثر من أصحاب الشعر الداكن، ولكن لم يكن لدي أي إجابات دقيقة.

لم أكن في الواقع واضحًا لدرجة أن ماركو سألني في النهاية: ما إذا كنت قد ذهبت إلى التل بأي حال من الأحوال؟

لم أجب على الفور؛ كُنت متعبًا، كنتُ أريد أن أستلقي، وأن أنعم بنوم هادىء، وكنتُ مستاءً من نفسي لشعوري بالانزعاج من تأنيب ماركو؛ فيجب أن أعترف أن كل شيء بدا مُبررًا وفقًا لسلوكي بالأمس.

قلتُ في النهاية: إنني ربما نسيتُ بعض الأشياء، ومع ذلك، أذكر أن حركتهم، والتي بدت اعتباطية في البداية، كانت منظمة، حتى عندما بدؤوا في التفرّق؛ لذلك قررتُ أن هناك رسالة مخفية في: الأشكال، الترتيب، الأشكال الهندسية، أطلق عليها ما تشاء، وأن الحركة هذه العبور خلال مسارات متخيلة ذهابًا وإيابًا، بعبارة أخرى كل شيء حتى مغادرتهم كان يمثّل كلمات لغة مرسلة إلى شخص يعرف كيف يستمع.

فقال ماركو: كيف يشاهد؟ لأنه إذا كانت تلك هندسة فلن يكون الاستماع ذا فائدة كبيرة.

لفّ سيجارة كبيرة ضخمة، وعرضها عليّ كأنها غليونًا.

وبينما ندخنها، تحدّث ماركو عن المساعي الهندسية الكبرى؛ مثل الرسومات الأرضية الواسعة في أمريكا الجنوبية، أو التلال التي أحياها

obeikandi.com

هنود أمريكا الشمالية، وفي كلتا الحالتين، كان يشعر، كما يمكن للمرء أن يتحدث عن اللغات البصرية، أن الأهرامات هي عناصر هذه اللغة، وآمن بذلك للغاية، سواء تلك التي في مصر أو الأهرامات التي بناها "الأينكا" للوصول إلى الشمس، وبعد ذلك لفّ سيجارة أخرى، وبالتالي اكتسبت اللغات البصرية بُعدًا آخرًا، مثلنا تمامًا، وهامت المحادثة أكثر وأكثر، وعبرت طريقًا غابيًا متعرجًا، وعند نقطة معينة أردتُ أن نصل إلى أرض مقطوعة الشجر، وأن نجلس ونلتقط أنفاسنا.

وعلى العكس، ودّعتُ ماركو، وانصرفتُ عائدًا إلى المنزل.

وفي رواق المبنى الذي يسكن فيه، بينما كنتُ أنزل الدرج، اضطررتُ إلى أن أمسك بالدرابزين؛ فلقد وجدتُ أنه من الصعوبة تقدير ارتفاع وعمق كل درجة بشكل صحيح مما جعلني أتعثر، فخشيتُ من السقوط.

وفي النهاية، كنتُ أقبض على الدرابزين بيدي اليمنى، في حين أتأرجح أنا ويدي اليسرى كما لو كنتُ أمشي على حبل مشدود، عاليًا فوق وادٍ.

وفي الشارع، رفعتُ يدي اليمنى عالية في الهواء، وحينها فقط شعرتُ بسهولة التوازن.

اعتقدتُ أنني أستطيع أن أذهب إلى أي مكان أرغب في الذهاب إليه، واتجهتُ إلى حديقة المدينة، ولكن عندما وصلتُ إلى الطريق الرئيسي دفعني نباح كلب، والذي جاء من أعماقه المظلمة، إلى اتخاذ مسارًا مختلفًا، مرورًا بالمستشفى، ثم شارع "دوبروفاتشكا" حتى وصلتُ إلى الشارع الرئيسي.

نظرتُ إلى اليسار ثم إلى اليمين.

كانت إشارات المرور تومض، وكان العديد من الناس ينتظرون في محطة الأتوبيس أمام المتجر الشامل، وكان مطعم "ماكدونالدز"

obeikandi.com

يتلألأ، وكان سائقو سيارات الأجرة يجلسون على المقاعد ويدخنون، وكان غناء الرجال السكارى يأتي من مكان ما، وبعد وقت قليل انضم إليه صوت امرأة، ثم تحدّث رجل عن النجوم، بل وربما ذكر أسماءها، وفجأة عرفتُ أين أذهب؛ فتوجهتُ إلى شارع "زماي جوفينا".

مررتُ مرة أخرى بسائقي سيارة الأجرة، وعبرتُ إلى الجانب الآخر من الشارع، ونظرتُ إلى نافذة القرطاسية، ثم حوّلت عيني على المسرح، والذي بدا مهملاً في الظلام، بل وربما بدرجة أكبر من النهار.

مشيتُ بحذر، كما لو كنتُ أخوض في مياه ضحلة، وعندما رأيتُ البوابة الخشبية الكبيرة مواربة اعتقدتُ أنه سيكون من الأفضل أن أكمل سيري حتى أصل إلى ضفة النهر؛ حيث بدأ كل هذا، وحيث سيكون الماء أعمق.

لكنني توقفتُ.

فلم أرَ ملصق دورات "تاي تشي"، رغم أنني ظننتُ لوهلة أنني رصدتُ بقعة ضوئية في مكان الملصق.

نظرتُ إلى اليسار ثم إلى اليمين.

لم يكن هناك أحد.

تسللتُ ببطء إلى ممر مظلم، وخطوتُ خطوتين أو ثلاث ثم توقفتُ، وحدقتُ في المضخة التي توهجت كما لو كان ضوء القمر ينصب بالكامل عليها وحدها، ووحدها فقط.

كل شيء آخر كان شديد السواد: أوعية الزهر ذات البرباريس، والجدار الجانبي للمبنى المقابل، والمنحدر، والباب الأمامي.

لم أستطع حتى أن أميّز المقعد؛ فربما غلّفه الظلام، كما غلّف كل شيء آخر.

خطر لي بعد ذلك أن شخصًا ما يجلس هناك.

لا أعرف: من أين خطرت لي هذه الفكرة؟ ولكن بمجرد أن خطرت لي، لم أستطع التخلص منها، وسرتُ بخطوات حذرة نحو الفناء منحنيًا قليلاً، كما لو كنتُ أخشى مما سأرى.

وببطء شديد اقتربتُ من نهاية الممر، واستندتُ إلى الجدار، وأخذت أشهق وأزفر بعمق.

وبطرف عيني اليسرى كنت لا أزال قادرًا على رؤية المضخة الفضية، ومقبضها الطويل، والحوض المزين، الذي تتدفق بداخله المياه والأساس ذي الطلاء المفتت جزئيًّا.

أخذتُ نفسًا عميقًا آخر، ولكنني لم أخرجه، بل على العكس سارعتُ الخطى فجأة على الممر، بعيون مفتوحة عن آخرها، ومستعدة لمفاجأة الشخص الذي يجلس على المقعد.

كان المقعد خاليًا.

خشخش شيء ما في الظلام خلف البرباريس، وعندما التفتُ وجدتُ المضخة مظلمة.

لقد اختفى ضوء القمر، هذا ما إذا كان ضوء القمر فعلاً، وأصبح كل ما كان واضحًا على المضخة عبارة عن بقع من الطلاء القديم، وطبقات من الصدأ.

اتجهتُ نحو المقعد، وجلستُ، ووضعتُ يدي على فخذيّ، وأغمضتُ عيني.

لم يحدث شيء، لم يغلفني صمت، لم يبدأ عزف أي موسيقى، لم أسمع صوت أي شخص.

فتحتُ عيني، ونظرتُ إلى الجدران حولي.

لم يتغير شيء، كما لو كان الواقع هذه المرة قرر أن يظل دون تغيير.

نهضتُ، ثم جلستُ مرة أخرى.

أغمضتُ وفتحتُ عيني عدة مرات، بل وحتى حدقتُ بعينين نصف مغمضتين، وحاولتُ أن أحبس أنفاسي لأطول فترة ممكنة، ولكن لم يفلح شيء.

خطر لي بعد ذلك أنني أجلس دائمًا على المقعد خلال النهار، وأن الأمور قد تكون مختلفة في الليل، وهو ما كان خاطرًا مطمئنًا، رغم عدم كفايته حتى يعيد لي المزاج الجيد الذي كنتُ أشعر به وأنا أتجه إلى شارع "زماي جوفينا".

نهضتُ وأنا على استعداد للذهاب، وحينها فقط سمعتُ الموسيقى التي بدت مختلفة عن الموسيقى السماوية التي سمعتُها قبل ذلك، وعندما أصغيتُ كي أسمع على نحو أفضل أدركتُ أنها صدى موسيقى منبعثة من مقهى قريب، أو ربما من العوّامات الموجودة على طول النهر.

لم يكن هناك أي سبب، جنبًا إلى جنب مع الإيقاع الصاخب وصوت الكمان العالي وقرع الطبول، للبقاء في الفناء!

كان المقعد يغرق في الظلام الحالك للغاية؛ فبدا الأمر كما لو أن الظلام يقصد إخفاء المقعد.

ثم بدا نفس الظلام وكأنه يتجسد، أي ربما يكون هناك شخص ما، ولكن عندما تحركتُ والتفتُ أدركتُ أن هذا الأمر كان مجرد تفاعل الظلال الكثيفة والضعيفة.

نزلتُ إلى أسفل الممر، واتجهتُ نحو المدخل، ثم توقفتُ، كانت البوابة مغلقة، ولم يكن هناك أي أثر لضوء من الشارع.

كنتُ على يقين من أنني لم أغلق البوابة بعد أن دخلتُ.

openkandl.com

ولكي أكون أكثر دقة فلم أقم حتى بلمسها؛ فلقد بذلتُ قصارى جهدي لأتسلل من خلالها بدهاء.

كنتُ على يقين - أيضًا – من أنه لم يأتِ أحد إلى الفناء بعدي، فلو حدث ذلك لكنتُ رأيته بالتأكيد؛ فلم تجذب المضخة أو المقعد انتباهي للدرجة التي تمنعني من عدم إدراك ما يجري من حولي.

ولكن لو لم يدخل أحد، فهل هناك من خرج؟ ربما كان الشخص ينتظر في ظلام الممر؟ أو ربما كان يقف خلف البوابة؟ أو يجلس في زاوية؟ وعندما ابتعدتُ بما يكفي، أو عندما ذهبتُ لأجلس على المقعد تسلل خارجًا، وأغلق البوابة الثقيلة وراءه؟ أمسكتُ بالمزلاج الكبير بيد، وفتحتُ البوابة بالأخرى، وخرجتُ إلى الشارع.

نظرتُ إلى اليسار ثم إلى اليمين.

لم يكن هناك أحد.

قلتُ لـ ماركو ونحن نتحدث في الهاتف: إنني لا أزال أشعر أن شخصًا ما يراقبني.

توقعتُ تعليقه الساخر، ولكن كل ما جاء عبر سماعة الهاتف كان عبارة عن صوت قرمشة.

لقد اتصلتُ به في منتصف الليل تقريبًا، واستمر حديثنا نحو ساعتين، وعند نقطة معينة، بينما كنتُ أنتهي من روايتي لأحدث مغامراتي قال ماركو: إن عليه أن يأكل تفاحة.

فكررتُ قائلاً: إنني لم أرَ أي شخص، ولكن شعوري بأن شخصًا ما كان يراقبني عن قرب، كان حقيقيًّا للغاية ومزعجًا أيضًا.

فقال ماركو مجددًا: أنت أيضًا ينبغي أن تتناول المزيد من التفاح.

واستمر في الحديث عن الصفات المفيدة للتفاح، وأشار بعد ذلك،

ودون أن يتوقف، أنه لا يزال يفكر في تقرير صحفي قرأه، والذي كان يتحدث عن رجل قتل نفسه بلا سبب، في سيارة متوقفة أمام عيادة طبية، ولم تكن حتى سيارته الخاصة، ولكن سيارة أخذها من صديق له، زاعمًا أنه سينقل تليفزيونه القديم إلى حماته.

وتابع ماركو قائلاً: إنه لم يتضح سبب توقفه أمام العيادة، والتي لا تقع بالقرب من شقة حماته، ولكن في جانب مختلف تمامًا من المدينة، وإلى جانب ذلك، لم يتضح من أين جلب البندقية؟ فأحيانًا يبدو أنه من الأسهل الحصول على بندقية مقارنة بالأجهزة المنزلية.

ولكن من الواضح أن العصر الذي نعيشه قد قتله، فهل هناك شيء آخر يمكن أن يكون قد فعل ذلك؟

وواصل ماركو حديثه قائلاً: بالمناسبة، لم يكن هناك في العيادة من يعرف هذا الرجل، وهو ما لم يمنع الموظفون من ادعاء جميع أنواع التصريحات، كما لم يمنع الحماة من قول أن هذا التلفزيون سيبقى تذكارًا من زوج ابنتها، رغم أنها يجب أن تبذل جهدًا كبيرًا لمحو كافة آثار الدماء من على الشاشة والأزرار.

كان من المفترض أن أضحك عند هذه النقطة، ولكن لم يكن هناك وقت؛ لأن ماركو واصل حديثه عن محو الدماء وإزالة الآثار، ثم انتقل من قصة الانتحار والحماة إلى تقديم المشورة بشأن الاتجاه الذي يجب أن تتخذه المحادثات بين السلطات في "بلغراد" والزعماء الألبان في "كوسوفو".

كانت الصحف تنشر باستمرار تقارير بشأن هذا الموضوع عن الجهود التي تبذلها الحكومة لإقامة حوار مع الألبان، وبالتالي ترسم صورة أكثر إيجابية لنفسها أمام الرأي العالمي، وإذا كان هناك موضوع لا أرغب على الإطلاق في الحديث عنه؛ فلقد عثر عليه ماركو.

أدرك الآن أنني في الحقيقة أتجنب الحديث عن الواقع، وأن كل ما حدث لي خلال أشهر الربيع منذ ست سنوات من الانغماس في العالم المبهم للظواهر الغامضة لَهْوٌ، شكل من أشكال خداع الذات، شكل من أشكال العزاء، أو على نحو أكثر دقة، هروب من واقعنا في ذلك الوقت.

كانت اللقاءات مع المؤمنين بالقومية الجامحين سريالية للغاية، لدرجة أنني لم أشعر حتى بأنهم يشكّلون جزءًا من ذلك الواقع.

كنتُ مخطئًا بالطبع لأن الشباب الذين يتسمون بالعنف كانوا حقيقيين تمامًا كالضربات التي وجّهوها لي وحقيقيين اليوم؛ ربما أصبح عددهم أقل، ولكنهم بالتأكيد أعلى صوتًا وأكثر جرأة.

وعلاوة على ذلك، لا زالوا يحتفظون بمكانهم في المكان الذي يشعرون أنه ملكهم وحدهم، بينما أنا في مكان آخر، لا يهم أين، وكل ما تبقى لدي هي الكلمات، وهذه المحاولة لتشكيلهم من شيء سيمتلك على الأقل مظهرًا من مظاهر الدوام.

ربما كان إليعازار، لو كان موجودًا هنا سيتخلى عن الكلمات، رغم أنني لست متأكدًا تمامًا من ذلك؛ لأن القبالاه، كما هي عادة جميع اليهود، تستند إلى الكلمات، والصمت عالم لم يحرص تابعو هذا المذهب على المغامرة بالدخول فيه.

ولكن ما الذي أعرفه حقًّا عن القبالاه؟ ما تعلمته من ياتشا ألكالاي، وسمعته من داتشا، عندما نجحتُ في تحرير نفسي من الحركة المنوّمة لقبعته، والتي بالكاد تعدّ من حيث المعرفة الحقيقية قطرة في بحر.

سيقول ياتشا: إن قطرة واحدة تكون أحيانًا أكبر من بحر بأكمله، إن حبة الرمل تكون أحيانًا أكثر وعورة من صحراء، إن كسفة جليدية تكون أحيانًا أكثر تهديدًا من انهيار جليدي.

وعند قول تلك الكلمات سيخلع داتشا قبعته، ويضيف قائلاً: إن جهل الجاهل أكبر من معرفة خبير، وإن الخبير لن يبلغ قدر معرفته

أبدًا قدر جهل الجاهل.

ثم سيرتدي القبعة، وربما سيميلها، لدرجة أنك سترى عينيه بالكاد أسفل الحافة المخفضة.

عيناي أيضًا مرئية بالكاد، ولكن السبب في حالتي هو الإنهاك، وكذلك مونولوج ماركو اللا منتهي، والرتيب، والممل.

في البداية، حاولتُ أن أجد فرصة للحديث، ثم تلفظتُ فقط بموافقتي أو رفضي بطريقة حلقية، وفي النهاية صمت تمامًا، وانتظرتُ النهاية بينما أسعى جاهدًا لدرء النوم.

ثم قال ماركو في النهاية: المجانين فقط هم من لا يمكنهم أن يروا أن حل الأزمة يكمن في تقسيم "كوسوفو".

قلتُ: بالتأكيد، يسهل قول ذلك لي، ولكن الخروج وقول ذلك بصوت عالٍ في "تيرازي"، يعني: سلخك حيًّا.

نظرتُ إلى الساعة، والتي كانت حوالي الثانية.

كنتُ على وشك إنهاء المحادثة، ولكني لم أفعل؛ لأنني شعرتُ أنني يجب أن أظهر لـ ماركو بعض علامات الإخلاص؛ حتى أستطيع إصلاح ما فسد نتيجة سوء الفهم غير المقصود عند البناية الشاهقة.

حوّلت عيني عن الساعة، وألصقتُ سماعة الهاتف أكثر بأذني.

تابع ماركو قائلاً: هل تظن أنني لن أفعل ذلك؟ وليس فقط في "تيرازي" ولكن في أي مكان آخر؟

فقلتُ: حسنًا.

كان حلقي جافًّا.

فسألني: هل تعلم كيف سينتهي كل هذا؟

أجبتُ: كلا، لا أعرف.

فتابع: هؤلاء البَلَه سينسفوننا، وربما لن يبقى أحد منّا على قيد الحياة.

سألته: أيُّ بله؟ الأوروبيين أم الأمريكيين ؟

فأجاب: كلاهما.

لم أعلّق، ولم يقل ماركو شيئًا أيضًا.

حاولتُ تخيّل كيفية ذلك القصف، وتمكنتُ من تذكّر صور من لقطات أرشيفية عن قصف "بلغراد" في إبريل ١٩٤١م؛ جناح طائرة، وقنابل تسقط كقطع الأشجار، ثم يدور الطيار، ويبتسم ابتسامة كبيرة بأسنانه الجميلة.

أستطيع سماع صوت أنفاس ماركو، والذي يتنفس بعمق وانتظام، كما لو كان نائمًا.

ثم قال فجأة: شيء محزن عندما لا تجد من يحبك.

لم أكن أعرف ما الذي يتحدث عنه، كيف يأتي الحديث عن الحب بعد القنابل؟! وواصل قائلاً: نحن الآن أحشاء العالم، وأخشى أننا سنظل كذلك لفترة طويلة قادمة.

كانت الصورة مثيرة للاهتمام، رغم أنني لم أحاول تخيّلها؛ فلدي ما يكفي مع رائحة البراز والبول الكريهة التي لا أزال أجدها، على فترات غير منتظمة، أمام باب شقتي.

كان الإناء والمكنسة متمركزين الآن بصفة دائمة في الردهة.

وكان لدي قفاز من المطاط وكومة من الصحف القديمة، ولا زلتُ بحاجة لشراء مطهر.

obeikandi.com

قال ماركو حينما عثر بالمصادفة ذات مرة على كل مواد التنظيف الخاصة بي: مستقبلك مضمون، ستستطيع دائمًا إيجاد عمل في تنظيف المراحيض.

ألصقتُ سماعة الهاتف بأذني مرة أخرى، لم يكن هناك صوت.

فقلتُ: ماركو، أين أنت؟

فأجاب في النهاية: أتعرف، أود أن أكون في مجرّة أخرى، ولكن هيهات، أعيش في "بلغراد"، وليس هناك ما يمكنني القيام به حيال ذلك.

لم أعرف ماذا أقول، سواء لتعزيته أو لطمأنته، وتنفستُ الصعداء عندما تمنى لي قضاء ليلة جيدة، وأغلق الخط.

أغلقتُ الخط من عندي وبعد ذلك، وبينما ألتفت، اصطدم كوعي بدفتر العناوين، والوسادة الصغيرة التي توجد بجانب الهاتف.

سقطا على الأرض، وحينما انحنيتُ لألتقطهما، رأيتُ الوسادة فتحت الصفحة التي دوّنت فيها على عجل رقم هاتف دراجان ميتشوفيتش قبل عدة أسابيع.

هذا يعني أنني يجب أن أتصل به، ولم يكن لدي أي شك في ذلك.

ظننتُ أنه ربما ينبغي لي أن أكتب عن ذلك.

مقالتي المقبلة في "الدقيقة" مطلوبة في أي يوم، ونظرًا للظروف التاريخية، وخاصة تهديدات القصف والجهود التي تبذلها السلطات لتصوير التهديدات على أنها هجوم غير شرعي على شؤون البلاد الداخلية، تبدو مقالة عن المصير جذابة.

لكن ما الذي يمكنني الكتابة عنه؛ فما قيل لا يمثل فرقًا؛ لأن ما يتوقع حدوثه محدد منذ فترة طويلة؛ فأي عمل من جانبنا الآن

سيكون مضيعة للوقت، وهذا بالطبع عكس ما تقوله الحكومة للأمة عن أن الشعب، أي: جميعنا نقرر ما سيحدث، وإذا قلنا: «لا» لأي شخص أو لأي شيء فسنصبح إذن نساجين لمصيرنا.

بعبارة أخرى، إذا تبيّن عدم كون النساج حقيقية، وبدأت القنابل الحقيقية في السقوط على رؤوسنا، سنقول ببساطة أن هذا ليس صحيحًا، وسنتظاهر بأننا نعيش في واقع آخر، فيه العالم مخلوق وفقًا لمواصفاتنا الخاصة.

تفهّمتُ تمامًا رغبة ماركو في الذهاب إلى مجرة أخرى، رغم أنني كان يمكن أن أكون سعيدًا بوقت فيه نوع من التوازن، بواقع تلعب فيه الأحداث بطريقة أكثر هدوءًا.

اتجهتُ نحو النافذة، ونظرتُ من خلالها.

كانت الأضواء في العديد من شقق المباني المقابلة.

ومع ذلك، لم يكن هناك أحد في الشارع، رغم أن إشارة الدوران كانت تومض في سيارة متوقفة أمام نافذة عرض الصيدلة.

كانت تومض وتنطفىء بإيقاع بطيء ومتقطع، وبعد قليل قررتُ أنها ترسل إليّ رسالة؛ رسالة صغيرة كشفرة مورس.

ظللتُ أتابعها لفترة أطول في محاولة للتنبؤ بإيقاع التكرار، لقياس الوقت بين الومضات، ولكن بعد ذلك تعبتُ من كل ذلك؛ بدأت أجفاني في التدلي، وذهبتُ إلى الحمام.

وعندما عدتُ لم تكن إشارة الدوران تومض.

نظرتُ إلى اليسار ثم إلى اليمين.

لقد كانت المدينة في غفوة، وفجأة شعرتُ بإرهاق بالغ.

جلستُ على الكرسي ذي الذراعين.

وسواء بسبب الوقت المتأخر أو إرهاقي، اعتقدتُ أنني ينبغي أن أنسى كل هذا أو أتخلى عنه؛ فلقد بدأ الأمر يبدو كالأجزاء المترابطة بضعف في مسرحية هزلية، تبدو الفكاهة فيها على نحو قد يؤخذ على محمل الجد.

حتى المخطوطة التي حصلتُ عليها بدت فجأة وكأنها خليط أبهى، مزيج مرقّع، لعبة تلعب مباريات مع نفسها.

صحيح أنني لم أطالعها لعدة أيام، ولكن ربما لا يكون تصفحها أثناء الحالة التي أشعر بها الآن فكرة سيئة.

استلقيتُ أكثر في الكرسي ذي الذراعين، وقبضتُ ردفاي ثم فردتهما، وبعد ذلك أغمضتُ عيناي، وتوقعتُ التثاؤب.

استيقظتُ على صوت ضوضاء الشارع.

فتحتُ أجفاني، ورأيتُ صباحًا غائمًا.

اعتدلتُ وتمددتُ، ومررتُ لساني على أسناني، ثم غطيتُ وجهي بيدي.

كان حلقي جافًّا، يمكن ترطيبه بكوب من الماء.

نهضتُ، واتجهتُ نحو النافذة.

كانت السماء تمطر رذاذًا.

كانت هناك امرأة تقف في محطة الأتوبيس، وتقيها مظلة حمراء من المطر.

لم تعد السيارة متوقفة أمام الصيدلية.

فتحتُ الستار، وتراجعتُ إلى الوراء، وفتحتُ النافذة.

كان الناس يتنقلون من كشك إلى كشك، يشترون الصحف،

ويحملون الخبز من المخبز، وشخص ما يصفّر، والحافلات تهدر، وصبي وفتاة يقبّلان بعضهما البعض، والعصافير تحط على الفتات، وبعد ذلك اعتقدتُ أنه لن يكون هناك شيء يصلح اعوجاج الحياة، لا يمكن لأي حكومة أو نظام أن ينسل هذا النسيج تمامًا؛ وفي أسوأ الأحوال، يمكن أن ينتهي المطاف بخيط ما إلى كرة غير منتظمة، ولكن ستظل الكرات الجديدة في النماء، حتى لو كانت فقط الخيوط التي تزيحها أحد الأقدار من مغزلها، أحيانًا يكون هذا كافيًا: خيط الحياة الممتد في الفراغ.

فكرتُ على الفور في القدرين الآخرين: الأول الذي سيحدد طول الخيط، والثاني الذي سيقصّه.

يظل الشخص مربوطًا بمغزل قدره طوال عمره، وعندما يتحرر منه في النهاية يخطو بذلك نحو الموت، كما لو كان يكسب - بفعل الموت - حقه في الحرية.

ارتجفتُ من الفكرة، فأغلقتُ النافذة بسرعة، واندفعتُ نحو الحمام لأغسل وجهي، وأحلق ذقني؛ فلا شيء يُنعش الرجل بقدر حلاقته لذقنه، حتى غسيل شعره لا يملك مثل هذا التأثير الجيد، على الأقل ليس بالنسبة لي؛ لذلك، بمجرد أن انتهيتُ من ذلك، شعرتُ وكأنني رجل جديد.

اتصلتُ بعد ذلك بـ دراجان ميتشوفيتش.

لم تكن هناك حاجة هذه المرة بتذكيره بي.

فسألني: عمّا حدث مع العلامة المكوّنة من الدائرة والمثلثات، وما الذي وصلتُ إليه في حل المعادلة ذات المجاهيل المتعددة.

فأجبته: لم يتغير شيء؛ فلم تتكشف حقيقة تلك العلامة، وظلت المجاهيل في التكاثر.

فقال دراجان ميتشوفيتش: ولديك الآن سؤال جديد، وتظن أنه سيساعدك على فهم السؤالين الأخريين؟

فأجبتُ: نعم.

فتابع قائلاً: ألا تعتقد أن الأسئلة التي لم يُرد عليها ستصبح عقبة كبيرة جدًّا، والتي ستصبح، في الوقت المناسب، تعجيزية؟ لا أحب أن أتلقى محاضرات، ولو لم أحلق، وهو ما جعل مزاجي جيدًا، لكنتُ قد أغلقتُ الخط.

أجبتُ: بالتأكيد.

هذا ما أقوله دائمًا عندما لا أفهم شيئًا، أو لا أتفق مع شيء.

لم يعلّق دراجان ميتشوفيتش.

يمكنني أن أشعر أنه شعر بعدم إخلاصي، تمامًا كما يمكنني أن أشعر أنه أحس بأنني أشعر بذلك.

قلتُ: آسف.

فقال: فلننسَ ذلك، مررنا جميعًا بلحظات تمنينا فيها لو لم تمر علينا.

ثم سألني عن السبب الحقيقي لاتصالي به؛ فلا يمكنه أن يتصور أنني اتصلتُ به لأطمئن عليه، وحتى لو كان الأمر كذلك، فهو لا يجيب مطلقًا عن هذه الأسئلة.

قلتُ: حسنًا.

وأخذتُ نفسًا عميقًا، ثم تابعتُ حديثي: أود أن أعرف ما إذا كان يمكن للهندسة أن تحل محل اللغة؟

فأجاب دراجان ميتشوفيتش: الهندسة لغة.

obeikandi.com

فقلتُ: لا أعني لغة العلامات.

فقال دراجان: وأنا أيضًا.

قلتُ: قرأتُ في مكان ما، أن الجسم يجد طريقه عبر الفضاء، سواء كان فضاءً هندسيًّا أو عاطفيًّا، من خلال رسم خرائط عقلية باستمرار، وبهذه الطريقة يتواصل الفضاء والشعور مع الجسم؛ لذلك، إذا أخرجنا هذه الخريطة الآن من الجسم، إذا جاز التعبير، فهل ستتحدث إلى الآخرين بالطريقة التي تتحدث بها إلينا؟

فأجاب دراجان: أتساءل أحيانًا كيف تأتي بمثل هذه الأسئلة؟

فأجبتُ: أود أن أعرف ذلك أنا أيضًا.

قال دراجان: وإلى جانب ذلك، لست متأكدًا مما إذا كان سؤالك ينتمي بالفعل إلى عالم الرياضيات؛ لأن هذه الخرائط العقلية، رغم إمكانية تمثيلها بنماذج هندسية، تُرسم عند التفاعل المعقّد بين العوامل الجسدية والعقلية.

شيء آخر هو أن الهندسة تنطوي على عالمية معينة، في حين أن الخرائط العقلية فردية بدرجة كبيرة، فردية لأن كل منا يختلف عن الآخر، وهنا، أخشى ألا يكون هناك لغة.

واصلتُ بعناد: ولكن إذا تصورنا مجموعة من الناس على شكل نفس الخريطة العقلية لأجسادهم، على سبيل المثال، خريطة مشاعر الحب أو الصفاء، ألا يمكن لشخص آخر، والذي يرى ذلك، تطوير نفس هذه المشاعر؟

فأجاب دراجان ميتشوفيتش: ربما، رغم أنني لستُ متأكدًا تمامًا مما تقوله؛ فلستُ خبيرًا في المشاعر.

فقلتُ: لا أتحدث عن المشاعر، ولكن عن انتقال المعلومات، وهي العملية التي تحدث مع كل ممارسة لفعل القراءة، على سبيل المثال،

obeikandi.com

عندما تقرأ وصفًا لمشهد حزين في رواية ما، وتبدأ في البكاء.

فقال دراجان: لا أعرف؛ فلا أقرأ الروايات.

تغيّرت لهجته فجأة، كما لو لم يعد مهتمًّا بالمحادثة أو، وهو ما لم يخطر على بالي إلا في وقت لاحق بكثير، كما لو أن شخصًا ما يقف بجانبه، ويستمع إليه.

طلبتُ أن يفكر في الأمر على أي حال، وبينما يبدو غامضا وغير مقتنع وعدني بالاتصال إذا فكّر في أي شيء.

ثم أغلق الخط قبل أن نقول: إلى اللقاء.

نظرت لفترة أطول في سماعة الهاتف، ثم وضعتها مرة أخرى في مكانها.

تساءلتُ: هل حان الوقت لكي أعترف بأنني أقف في طريق مسدود؟ هل اتخذتُ منحنيًا خاطئًا في مكان ما ووجدتُ نفسي في الطريق الخطأ؟ وأن السبيل الوحيد لتغيير أي شيء هو العودة إلى المربع رقم واحد؟ وعليه التقطتُ تفاحة تمامًا مثلما فعلتُ قبل شهر، واتجهتُ إلى رصيف الميناء.

لم يكن اليوم هو يوم الأحد، ولم تكن الساعة الثانية بعد الظهر، ولكن الجو متقلب تمامًا مثل ذلك اليوم؛ فتفرّقت الغيوم بينما أغادر المنزل، ولمعت الشمس من خلالها، ولكن بحلول الوقت الذي وصلتُ فيه إلى المتنزه، بدأ المطر يتساقط.

خفضتُ رأسي، وابتلعتُ القضمة الأخيرة من التفاحة، عدا جذعها، والذي واصلت قضمه وامتصاصه حتى انقسم.

لم يكن منسوب المياه في نهر "الدانوب" مرتفعًا كما كان من شهر؛ لذلك لم أستطع أن أحدد بدقة مكان وقوف الرجل والمرأة، أو المقعد الذي كنتُ أجلس عليه.

كان هناك ثلاثة، واعتقدتُ في البداية أنه كان المقعد الثاني، وهو ما بدا اختيارًا سهلاً، وواضحًا للغاية؛ لذلك جلستُ على المقعد الثالث، أي: أبعد مقعد عن الملعب الصغير البالي.

كان الملعب مهجورًا، ربما كان الوقت مبكرًا جدًّا بالنسبة للأمهات وأطفالهن الصغار، أو ربما كانوا هنا بالفعل وفرّقهم المطر.

اتجهتُ نحو المقعد الثالث، ومن هناك نظرتُ إلى نهر "الدانوب".

نعم، تلك هي الزاوية، هذا بالضبط هو المكان الذي كنتُ أجلس فيه حينما مرّ الرجل أمامي، ومن هناك خطوتُ إلى الأمام، وأنا مستعد وحريص على الذهاب إلى أسفل المنحدر نحو المرأة التي وقفت وإحدى ساقيها في الماء، ولكني توقفتُ حينما رأيتُ الرجل ذا المعطف الأسود.

لِمَ توقفت؟ ما الذي دفعني للركوع والبدء في حل وربط رباط حذائي، مما سمح للرجل ذي المعطف الأسود بالابتعاد؟ نظرتُ إلى الأرجوحة الرطبة، والسيارات الصغيرة والقطار، وكان التفسير الوحيد الذي استطعتُ التوصّل إليه هو أن الرجل الذي كان يقف عند الأرجوحة كان مختلفًا عمّا هو محيط به لدرجة أنه لم يسعه إلا أن يثير شكوكي وانتباهي، وفي النهاية دفعني إلى أن التنازل عن أصلي السامري إلى المرأة التي صُفعت على ضفة النهر.

فكرتُ في أنه ربما لم يكن من المفترض أن أتبع المرأة، إلا أن اكتشافي اللاحق للعلامات يمكن تفسيره كنتيجة لمتابعتي إياها، كشيء قادتني إليه.

ربما لم يكن من المفترض أن ألاحظ الرجل ذي المعطف الأسود أيضًا؛ فهو لم يكن هناك بسببي، ولكن بسبب الشاب والشابة.

ولكن ما العلاقة بين الاثنين، إن كانت هناك علاقة؟ وهل كل ما حدث لي منذ ذلك الحين قد وقع فقط لأن شخصًا ما قد رآني وأن أتبع المرأة؟ ربما لم يكن هنا في المنتزه رجل واحد فقط ذو معطف أسود،

obeikandi.com

ربما كان هناك اثنين؟ ولمَ لم تكن هناك مجموعة كاملة.

لو أخبرت ماركو بهذا كان سيسألني: لمَ أنت متواضع؟ ويجب أن أعترف أنه سيكون على حق، بغض النظر عن الدور الذي قام به في اللعبة كلها.

من هذه المسافة أستطيع أن أرى بوضوح؛ كوضوح النهار، ولكن بعد فوات الأوان الآن، لقد قلت ذلك من قبل لتغيير أي شيء؛ فالحياة في النهاية ليست سوى حفنة من الذكريات، ولا شيء أكثر من ذلك.

ظلّ المطر يهطل بشكل عنيف ومستمر، كما لو كُنا في فصل الخريف، وليس الربيع، وبللت قطرات المطر شعري، وشقّت طريقها بدقة بين رقبتي ولياقة القميص.

عدتُ إلى المنزل، وجففتُ شعري بمنشفة، وتناولتُ تفاحة أخرى، وترجمت بعض الأشياء، وكتبتُ لفترة من الوقت، وشاهدتُ التليفزيون، وفي النهاية تهاويتُ على الفراش.

وبعد يومين، وبينما كنتُ مُسلّحًا بلوحة وعدة أقلام ملونة، قمتُ بفحص مفصّلٍ للشوارع الواقعة حول السوق المفتوحة بـ زيمون.

أردتُ العثور على آثار قدر المستطاع، أو علامات، وعمل قائمة لمعرفة ما إذا كانت تقدم في مجموعها مفتاحًا إضافيًّا.

بالأمس، فعلتُ شيئًا مختلفًا؛ ذهبتُ إلى أرشيف صحيفة "بوليتيكا"، واستخرجتُ الأعداد الصادرة ما بين الثامن والخامس عشر من مارس.

لم أكن أعرف: ما الذي كنتُ أبحث عنه بالضبط؟ لكنني تأملتُ وقائع المدينة، والمصنفات، والوفيات.

صادفتُ خبرًا وجيزًا في العدد الصادر في العاشر من مارس مفاده: إنه تم العثور على جثة شاب وسط القصب الموجود على طول شاطىء نهر "الدانوب" على جانب "زيمون"، ولكن لم يكن هناك ما يشير إلى

oberkandi.com

جريمة قتل.

لم تكن هناك متابعة للخبر خلال الأيام التالية، كما لم أجد شيئًا بين الوفيات، والذي يمكن أن يكون مرتبطًا بالشاب.

وبعد ذلك، في العدد الصادر في الخامس عشر من مارس، جنبًا إلى جنب مع خبر عن مقتل رجل في اليوم السابق في "سورتشين"، صادفتُ الإشارة إلى أن التحقيقات قد بيّنت أن الشاب الذي عُثر على جثته بالقرب من فندق "يوغوسلافيا" قد قُتل باليد، بآلة غير حادة.

وبالنسبة لهوية الضحية، فكانت لا تزال غير معروفة.

وضعتُ الصحيفة على الطاولة، وفركتُ وجهي.

كان قلبي يخفق بقوة، كما لو كنتُ قد توقفتُ فجأة بعد جري رهيب؛ شعرتُ بدوار، وتصاعد شعور بالغثيان حتى مرِّيئي.

لا أعرف: كيف خرجتُ من مبنى "بوليتيكا"؟!

كل ما أعرفه: هو أنني رأيتُ نفسي في مرآة نافذة متجر لقطع الزجاج.

الصورة الباهتة المنثنية التي تبتسم بقلق في وجهي يجب أن تكون صورتي، رغم أنه لا توجد إشارة على أنني تعرفتُ على نفسي.

التفتُ، وظللتُ سائرًا في الشارع الذي، كما اتضح فيما بعد، يؤدي إلى "زيليني فيناك".

صعدتُ على متن حافلة متجهة إلى "زيمون"، ولم أستطع استجماع قواي حتى زادت الحشود من حولي.

إذا كان الخبر في الصحيفة صحيحًا، ولو لم يكن هناك سبب للاعتقاد بأنه غير صحيح، وشريطة أن يكون نفس الشاب، إذن فما حدث هو أكبر بكثير من مجرد لعبة.

obeikandl.com

ظننتُ لوهلة أنني المسؤول عن مقتل هذا الشاب؛ فلو كنتُ قد تبعته بدلاً من اتباع المرأة بلا جدوى لربما ظل على قيد الحياة حتى الآن.

ومن ناحية أخرى، أمر آخر كان يمكن أن يحدث؛ كان من الممكن أن أكون ميتًا اليوم؛ فمن الواضح أن الأشخاص الذين محاهم الشاب بطريق الخطأ ربما كانوا قلقين من الشهود؛ لذلك ينبغي أن أشعر بالسرور؛ لأنني اتبعت المرأة؛ ومع ذلك، لم أستطع التخلص من المذاق المرير للتواطؤ أو الخيانة.

عبرت الحافلة جسر "سافا"، واتجهت نحو "زيمون".

في المسافة على طول المتنزه، كان يمكن رؤية راكبي الدراجات والمتجوّلين.

كانت هناك فتاة صغيرة تحمل خيطًا مربوطًا بطائرة ورقية أعلاها.

كانت الكلاب الكبيرة والصغيرة تمرح في العشب الأخضر الزاهي، وكان هناك صبيان يقذفان طبق "فريسبي" ذهابًا وإيابًا، ذلك الطبق الذي كان يتمايل بتكاسل في الهواء كما لو كانت قواه قد استنفدت.

مرّت الحافلة بفندق "يوغوسلافيا".

لم يكن هناك شيء على قمة التل الصناعي سوى دعائم محطة السكك الحديدية القديمة بـ زيمون، والبارزة كأطلال العصور القديمة.

نزلتُ من الحافلة في الميدان، واتجهتُ إلى السوبر ماركت، وقضيتُ نحو خمس عشرة دقيقة في فحص مكونات مختلف الأطعمة المعلّبة والمصنّعة.

لم يهدئني شيء بشدة كالقوائم غير الواضحة، والتي تحوّل الطعام إلى شكل غير جذاب للغاية.

الكعك، على سبيل المثال، أصبح دقيقًا، وسكرًا، ودهنًا نباتيًّا، ومسحوق الكاكاو، ومسحوق الحليب الخالي من الدسم، وبيكربونات الأمونيوم، وبيكربونات الصوديوم، والليستينو ملح الطعام، والألوان الطبيعية، والنكهة الطبيعية.

قرأتُ هذا بلغات مختلفة: الصربية، والألبانية، والسلوفينية، والكرواتية، والمقدونية، والإنجليزية، والمجرية، والرومانية.

ثم اشتريتُ بعض الخبز والزبادي، وعدتُ إلى المنزل.

خلال الأيام والأسابيع القليلة الماضية كنتُ غير متأكد من كيفية التصرُّف في بعض الحالات، ولكن الآن شعرتُ بأنني فشلتُ تمامًا.

يجب أن أعترف بأنه خطر ببالي فكرة الهروب؛ الفكرة التي لا مفر منها في مثل هذه الحالات، ولكن لم أرَ هذا مقبولاً ولو للحظة.

هربتُ في وقت لاحق، هذا صحيح، ولكن الظروف كانت آنذاك مختلفة تمامًا، وكان الهرب ضرورة وليس اختيارًا.

سأتطرق إلى ذلك لاحقًا، هناك وقت.

إذن لم يكن الهروب في تلك اللحظة واردًا.

وكان الخاطر التالي هو: إنني يجب أن أذهب إلى الشرطة.

لم أكن أثق بالنظام، كما لم أنحاز إلى السلطة الحاكمة، مما يعني أنني لا أطمع في شيء من الشرطة؛ فلديها عدد كبير من الجرائم الغامضة، وفي النهاية جريمة أخرى لا تعني شيئًا لهم.

ربما يمكنني أن أكتب شيئًا لمقالي في "الدقيقة"، كان يجب أن أضحك؛ فبعد الحديث لفترة طويلة عن كيفية انفصال ما بعد العصر الحديث عن النهج الأكثر تقليدية من حيث اللغة والشكل، أفكر هنا في نص ليكون مصدرًا موثوقًا به للمعلومات، والمُعَدّ للإيمان بالكلمات.

obeikandi.com

وإلى جانب ذلك، ماذا يمكنني أن أقول في نص عندما لا أكون على دراية بشيء؟ كنتُ قد رأيتُ شخصًا ما، والذي ربما يكون ميتًا الآن، وبخلاف هذه الوفاة غير المؤكدة، لم يكن لدي أي معلومات أخرى.

هذا يعني أنه كان أمامي خيار واحد فقط وهو: عدم انتظار حدوث الأشياء، أو عدم حدوثها، ولكن بدلاً من ذلك التحرك نحوها، وجعْلها تحدث.

قلتُ لنفسي: لقد حان الوقت لتصبح جميع التيارات المتنوعة مسارًا واحدًا، كل شيء يجب أن يصبح شيئًا، مهما كان يبدو غير ذي صلة، أو حتى لو لم يسفر عن شيء في النهاية، وهو ما سيكون حلاً رائعًا من شأنه أن يمنح الحرية الكاملة، والتي تعد – وهو ما يجب أن أقوله على الفور – الاحتمال الأقل.

وعليه، في اليوم التالي، شرعتُ مُسلحًا بلوحة وأقلام ملونة في القيام بفحص مفصل لسوق "زيمون".

كان يومًا ربيعيًّا جميلاً، دافئًا بلطفٍ، وكانت الغيوم تتسابق في السماء، وكان السوق مزدحمًا بالناس عندما وصلت.

نويتُ تغطية أكبر عدد ممكن من الشوارع؛ فبحثتُ بعناية حول السوق لتسجيل جميع المواقع التي رأيتُ فيها العلامة المكوّنة من الدائرة والمثلثات، فضلاً عن جميع تلك الأماكن التي توجد بها آثار محتملة للعلامة.

ينبغي أن أضع في اعتباري احتمال أن معظم العلامات لم يتم رسمها باستخدام مواد ثابتة، فمن المرجّح زوال تلك التي رُسمت بالطباشير أو ربما بقلم التلوين بسرعة.

على سبيل المثال، لم تعد العلامات التي رأيتها فيما سبق في شارع "زماي جوفينا" موجودة، وهو ما لا يعني أنها لم تلعب دورًا في المجموعة الكلية للعلامات.

وبمجرد أن أكملت القائمة نويتُ رسم مواقعها على خريطة "زيمون"، وبالتالي اكتساب بصيرة إضافية أو أي مفتاح لتحركاتي المستقبلية.

لكي أكون صريحًا، لم يكن لدي أي نية لأي تحركات أخرى، ولكن كان لدي أمل أن تتخذ أشكالاً في حد ذاتها، أو تشير إلى نفسها بوضوح في اللحظة التي أصنع فيها خريطة العلامات.

مشيتُ نحو السوق على طول شارع "بيوجرادسكا"؛ حيث لم أجد هناك أي آثار من أي نوع.

اتجهتُ إلى شارع "مورنارسكا"، وخطوتُ خطوتين أو ثلاث، ثم التفتُ، وعدتُ من حيث أتيت.

قلتُ لـ ماركو في وقت لاحق: إنني أحسست شعورًا قاتمًا بأنني لن أجد أي علامات هناك.

لذا عدتُ إلى شارع "بيوجرادسكا"، وخطوتُ إلى ضوضاء السوق.

مررتُ بالأكشاك التي تقدم البضائع الأكثر تنوعًا: الطعام، ومواد النظافة، والأدوات الكهربائية، وأدوات السباكة، والملابس الداخلية الرجالية والنسائية، والملاعق الخشبية، والمقاعد الخشبية ذات الثلاثة أرجل، والقهوة، والمنظفات.

كانت أكشاك الخضروات تقع بالخلف.

انغمستُ لوهلة وسط الحشد، ثم عدتُ إلى صف الأكشاك الأول حيث اشتريت بعض الشيكولاته.

إذا كانت هناك أي علامة منقوشة في أي مكان في ذلك الجزء من السوق سيكون من العبث البحث عنها؛ لذا عندما وصلتُ إلى نهاية القسم الأول من السوق اتجهتُ إلى شارع "جوزبودسكا"، وتوجهتُ نحو الرصيف.

على الرصيف، على الجانب الآخر من "فينيزيا"، رأيتُ بضعة رسومات بالطباشير على الرصيف، والتي تشبه إحداها واحدة منها دوامة، والأخرى كرة متشابكة، وهما ما يكون لهما علاقة بعلاماتي.

علاماتي؟ أشعر دائمًا بالاندهاش بنفس السهولة التي نختار بها الأشياء، حتى عندما لا يكون هناك أي أثر للملكية؛ لأنه إذا كان هناك شيء ليس ملكيًّا، فهو تلك العلامات، وهذا على الأقل واضح بدرجة كبيرة.

نظرتُ إلى اليسار ثم إلى اليمين، ثم التفتُ نحو اليسار نحو زاوية شارع "زماي جوفينا".

هنا، قبل أسابيع قليلة، صادفتُ العلامة الأولى، والتي كانت مخبأة تحت زر.

توقفتُ، وأدرجتُ هذه الحقيقة في المذكرة.

كتبتُ باللون الأسود؛ اللون الأسود للإشارة إلى الغياب، أو بالأحرى غياب الوجود؛ اللون الأحمر لتدوين العلامات المكتشفة حديثًا؛ اللون الأزرق لأي آثار محتملة للعلامات؛ بينما اللون الأخضر للآثار الثابتة، والتي ربما لم تُرسم على أنها أجزاء للعلامات.

لم يكن هناك شيء في المكان الذي كان يرقد فيه الزر الأسود، كما لم يكن هناك شيء على الدرجات؛ حيث رأيتُ العلامة عندما انحنيتُ لألتقط البطاطا، وأعطيها للمرأة.

كان الشارع والآن - أيضًا - مليئًا بالقمامة؛ لذا كان لزامًا عليّ التوقّف عند كل درجة، وشق طريقي وسط الصحف المتكومة، والبحث من خلال أكوام القمامة، ورفع الأكياس البلاستيكية.

في زاوية شارع "جايفا"، عند قاعدة إشارة المرور، رأيتُ مثلثًا غير مكتمل مرسومًا بالطباشير، والذي قد يكون جزءًا من مثلث داخلي

أصغر، والمرسوم بداخل مثلث أكبر.

دوّنت ذلك على عجل في المذكرة، باللون الأزرق هذه المرة.

كان هناك سهم في مكان ليس ببعيد عن بقايا المثلث، مشيرًا إلى الجانب المقابل للسوق، إلى شارع "يدوزي تيجيفا" و"كاراماتينا".

اعتدنا - ونحن أطفال - أن نترك علامات للأصدقاء؛ وباتباع الأسهم يجدون المكان الذي ننتظرهم فيه.

مشيتُ أسفل "جايفا"، وسرعان ما وجدتُ سهمًا جديدًا مشيرًا إلى اليسار، نحو شارع "يدوزي تيجيفا".

ثم رأيتُ سهمًا آخرًا، ثم صبيًّا يرسم سهمًا جديدًا على الرصيف، على مسافة أبعد قليلاً.

مشى عندما رآني.

صاح قائلاً: "شيء ما" دون أن يلتفت، ثم أسرع إلى مدخل.

لم أحاول حتى أن أتبعه.

عدتُ إلى شارع "جايفا"، وبينما كنتُ أمرّ بالمسبك القديم رأيت أخيرًا العلامة الحقيقة الأولى.

وبعد ذلك أصبح الأمر أسهل.

من شارع "جايفا"، ذهبتُ إلى شارع "كاراماتينا"، وسرتُ في جانبه الوحيدة حتى الرصيف، ثم رجعتُ على طول الجانب الآخر إلى شارع "موهار"، ومنه عبر شارع "جلافنا" إلى شارع "زماي جوفينا".

بحلول ذلك الوقت، كنتُ قد سجّلت ستة أو سبعة علامات، والعديد من الآثار الممكنة، بما في ذلك مثلث واحد ذي نقطة في الوسط، والذي شككتُ أنه يمثل شيئًا مختلفًا، ولكن كان من الأسهل

بالنسبة لي أن أعتبره بقايا لعلامة أضاف إليها شخص ما، إمّا عن طريق الصدفة أو عن قصد، نقطة.

ثم مشيتُ عبر شارع "زماي جوفينا".

وعلى السور المحيط بموقع البناء خلف المسرح، في بقعة متوارية، رأيتُ أربعة علامات، كما لو كان أحدهم يجرّب رسمهم.

وعند البوابة الخشبية الكبيرة، موضع ملصق دورات "التشي تاي"، كان هناك ملصق أكبر بكثير خاص بحفل للموسيقى الشعبية.

تفحصتُ الملصق بعناية؛ لم أجد شيئًا؛ جزءًا ملطخًا يحمل أثرًا لأحمر الشفاه، إثر قبلة وضعها شخص ما على خد المغني.

اختلستُ النظر خلال الممر المؤدي إلى الفناء الداخلي، وذهبتُ إلى المقعد، وتفحصتُ مضخة المياه وشجيرات البرباريس.

لا توجد هناك أي آثار.

عدتُ إلى الشارع، وعبرتُ إلى الجانب الآخر، وانتهيتُ إلى الرصيف.

وجدتُ سبع أو ثماني علامات أخرى عبر شارع "زماي جوفينا"، فضلاً عن أثرين عند أكشاك السوق الأولى.

وقبل أن أتجه إلى شارع "جوزبودسكا" درتُ حول مكتب رئيس الميناء.

كان المعرض مغلقًا، نصف مظلم، وعندما ألصقتُ أنفي بالباب الزجاجي على الجدار المقابل بجانب صورة اعتقدتُ أنني يمكنني أن أرى العلامة، ولكن عندما نظرتُ مرة أخرى في لحظة لاحقة، كان الجدار أبيض، ولا تشوبه شائبة.

واصلتُ السير مع التسجيل بأقلام ملوّنة مختلفة، وعندما شعرتُ بالجوع ذهبتُ إلى مخبز، وابتعتُ بعض البوريك، والذي كان زيتي

المَلمس، فكان عليّ لعق أصابعي.

لعقتهم واحدًا تلو الآخر، متجاهلاً المرأة التي تجلس وراء النُضُد.

ثم اشتريتُ قرصًا هلالي الشكل بالمربى، وطلبتُ كوبًا من الماء.

كان الماء فاترًا.

ارتشفتُه، وتصفحتُ مذكرتي.

كان لا يزال لزامًا عليّ أن أذهب عبر ميدان "بوبيدا"، ويجب ألا أنسى شارع "بيليارسكا"، أضيق الشوارع حول السوق، ولكنه مليء بالأماكن التي يسهل فيها ترك العلامات.

وقد ثبتت صحة ذلك؛ فلقد وجدت ما يقرب من ستة علامات في شارع "بيليارسكا"، مرسومة كل سبعين سنتيمترًا على وجه الدقة.

أصبحنا الآن في وقت متأخر بعد الظهر، وأصبح عدد الناس أقل في السوق، وحان وقت العودة إلى المنزل.

كانت السحب تتجمع في السماء، وكان المطر على وشك الهطول.

توقفتُ في القرطاسية، في شارع "زماي جوفينا"، عند بائع الخرائط وطلبتُ خريطة لـ زيمون.

لم يكن لديهم سوى خريطة تجارية للمدينة، مُدرَج فيها المتاجر والشركات، ولكنها كانت كبيرة وشاملة، وكنتُ سعيدًا بها، وخاصة مع وجود مقحمة رائعة لوسط المدينة في الزاوية العلوية اليمنى.

كانت قدمي تؤلمني بشدة بحلول الوقت الذي وصلتُ فيه إلى المنزل.

وضعتُ الخريطة على طاولة المطبخ، وبدأتُ في وضع إشارات على الأماكن التي رأيتُ فيها العلامات.

obeikandl.com

لاحظتُ أن الجزء الواقع حول السوق يتألف من تسعة كتل مختلفة الأحجام، إحداها، وهي تلك التي تؤدي إلى رصيف الميناء ويحدّها شارعيْ "زماي جوفينا"، و"كاراماتينا" على شكل مثلث.

ربما يكون للعدد «تسعة» دلالة خاصة، لكني لم أجرؤ على الاتصال بـ دراجان ميتشوفيتش مرة أخرى.

كان يمكنني الاتصال بـ ياتشا ألكالاي بالطبع؛ ولكن الأرقام هي الأرقام في النهاية، سواء كانت في الرياضيات أو القبالاه.

تصفحتُ المذكرة، ووضعتُ إشارات على النقاط ذات الألوان المختلفة.

كان معظمها باللون الأحمر، وقليل منها باللون الأزرق، وثلاث أو أربع منها باللون الأخضر، وثلاث باللون الأسود.

وبمجرد أن وضعت النقطة الأخيرة، تراجعتُ إلى الوراء؛ لأرى الخريطة من مسافة بعيدة.

لم أكن أعرف: ما الذي يمكن أن أراه؟ لم أكن أعرف: ما الذي أتوقع رؤيته؟ فلم أكن أرى شيئًا في الواقع.

هناك نقاط كثيفة في بعض المواقع، والقليلة في مواقع أخرى تحيط بالتسع كتل؛ فقط الكتلة الموجودة في المنتصف، والتي كانت تقريبًا في المكان الذي يقود فيه شارع "جوزبودسكا" إلى ميدان "أوملادينسكي"، كانت فارغة.

أعترف أنني شعرتُ بخيبة أمل؛ فلقد كنتُ أتوقع أن هذا النمط سيبدي لي على الفور ما أجهله، ولكنه لم يخبرني بشيء، رغم أنه ربما كان يعبر عما يعنيه بطريقة غير مألوفة.

فحصتُ كل شيء بدقة مرة أخرى، وبعد ذلك قمتُ بلف سيجارة، ثم أشعلتها، وسرتُ إلى النافذة.

obeikandl.com

نظرتُ إلى اليسار ثم إلى اليمين، ثم إلى الأمام مباشرة.

كانت نافذة الصيدلية مضاءة بالفعل؛ لم تكن هناك أي سيارة متوقفة أمامها؛ يمكنني التقاط نفس عميق، واستنشاقه بسلام وببطء وبعمق.

وشاهدتُ الليل وهو يغزو السماء، وشعرتُ بتأثير القنب يتصاعد في جسدي؛ فلقد ضعفتُ ركبتاي، وارتخت معدتي، ونبض قلبي بشكل أسرع، وتدلّت أجفاني، وعندما شعرتُ بتأثير القنب وراء جبهتي، ذهبتُ لأستلقي.

في تلك الليلة، رأيتُ حلمًا غريبًا.

يؤسفني عدم تدوينه على الفور؛ فلقد تلاشى بمرور الوقت، والآن، بغض النظر عن مدى صعوبة محاولاتي، أستطيع أن أستدعي التفاصيل فقط، ولكن لا يمكنني، حتى ولو اعتمدت حياتي على ذلك، إعادة بناء كل شيء.

لم يحدث شيء بعينه في ذلك الحلم بقدر ما أذكر، ويمكن للمرء أن يقول: إنني كنتُ أحلم بمشاعر أكثر من أحداث.

أذكر، على سبيل المثال، أنني حلمتُ بأنني كنتُ نائمًا، وأنني كنتُ أستيقظ، لكنني لم أكن أستطيع فتح عيني.

استيقظتُ - في الحلم - بسبب وجود شخص ما يجلس إلى جوار فراشي، ويميل نحوي، وينظر في عينيّ المغلقتين؛ وحيث إنني أحلم بأن أجفاني مغلقة؛ فكل شيء أراه في الحلم مظلم.

إنني مستيقظ في الحلم لكني لا أجرؤ على فتح عيني؛ أخاف مما سأرى، وأذكر أنني أقول لنفسي في حلمي: ربما هذه عيون بشرية عادية.

بعد ذلك قال صوت بجوار أذني مباشرة: ليس هناك شيء مثل

العيون البشرية العادية.

وحينئذ تكون كل عين قصة في حد ذاتها.

ثم استيقظتُ في الواقع، غير متأكد ممن سمعت ذلك الصوت أو من كان يشعر بالخوف.

حلمتُ بنفس الحلم عدة مرات في تلك الليلة، وفي الصباح استطعتُ الوقوف بالكاد.

قلتُ لصورتي المنعكسة في المرآة: عد إلى الفراش.

لم تُجب الصورة المنعكسة، وحتى لو أجابت، فلم يكن ذلك ليجدي؛ ففي ذلك الصباح كان يجب عليّ تحرير مقالي في «الدقيقة».

كان الجميع يتحدثون مؤخرًا عن استفتاء شعبي، والذي سيقرر فيه الشعب، كما تزعم الحكومة، تدخُّل أو عدم تدخُّل سلطات أجنبية لحل أزمة كوسوفو، وقال رئيس التحرير في إشارته إلى أن المواضيع السياسية لا تجذب انتباهي بدرجة كبيرة: إن قراءة ما يجب أن أقوله لا زال يجذب انتباهه.

اخترتُ في النهاية موضوعًا مختلفًا يدور حول: المشاكل التي يسببها تزايد أعداد الكلاب الضالة، بما في ذلك عدد غير قليل من الخيول الأصيلة التي أطلقها مالكوها ببساطة في الشوارع بعد أن أصبحوا غير قادرين على تغطية تكاليف غذائها ورعايتها.

لم أشعر بالطبع أن تقرير مصير كوسوفو يقل أهمية عن الكلاب المهجورة، ولكن يمكن لأي شخص أن يرى أن طريقة التي يُقام بها الاستفتاء لهي عبارة عن مهزلة، وأنه لا جدوى من إضاعة الكلمات في الكتابة عن ذلك.

لن تكون العواقب جزءًا من المهزلة، ولكن شخص آخر سيكتب تلك القصة وليس أنا.

تُرِكت الكلاب الضالة، والمصاعب التي تسببها مسألة الخير، واختبار الولاء.

كتبتُ دون عاطفة، وذلك باستخدام صيغة مبتذلة، كما هاجمتُ فئة من الأثرياء الجدد؛ لتبديدهم ثرواتهم على السلالات النادرة، وباهظة الثمن للكلاب، ثم تحميلهم مشاكلهم على المجتمع.

كتبتُ أن أبسط حل هو قتل الكلاب، ولكن هذا لا يعالج صلب المشكلة؛ فهو يتعامل فقط مع العواقب.

السؤال الحقيقي هو: ما الذي يجب القيام به مع الذين يتركون كلابهم؟ وتركتُ ذلك للقرّاء كي يتوصلون إلى العقاب المناسب.

يا له من عار! أنه لم يخطر على بالي في ذلك الوقت تشجيع القراء على إرسال اقتراحاتهم؛ فربما ينتج عن ذلك موسوعة صغيرة من حسن النية، والوحشية الانتقامية، اقتراحات مثيرة للاهتمام، رغم أنه ربما لم يفت أوان ذلك إذا وضع المرء في اعتباره أنه إذا حكمنا من خلال الأخبار التي تصل إليّ هنا؛ فمشكلة الكلاب الضالة في صربيا لا تزال قائمة.

لم تعد «الدقيقة» تصدر بالطبع؛ فلقد سلكت الطريق الذي اتخذته العديد من الصحف اليومية والأسبوعية الأخرى الغير القادرة على تأمين عدد كبير وكافٍ من جمهور القراء؛ لذا كان لزامًا عليّ الكتابة لمنشور مختلف؛ "إيفروبا"، أو "فريم"، أو أي دوريات تُنشر هناك في هذه الأيام.

لم أستطع تصديق أن رئيس تحرير "الدقيقة" قد أُعجب بمقالتي، رغم حقيقة أنه كان من محبي القطط، وإلى جانب قطته، كان يُطعم ثلاثة أو أربع قطط أخرى في ساحة المبنى الذي يسكن فيه.

اتّضح في وقت لاحق أنه كان يجب عليهم تمزيق المقال؛ لهذا السبب كنتُ في مكتب التحرير في صباح ذلك اليوم مع رئيس التحرير،

obeikandl.com

وقارىء النسخ.

وبينما كُنا ننتظر إدخال النص المُحرر في الكمبيوتر أخبرني رئيس التحرير أنه طلق زوجته؛ لأنها لا تحب القطط.

وقال: إنها حاولت، لكنها لم تستطع؛ فكلّما قفز فيليكس، قط رئيس التحرير القديم، على الفراش كانت تصرخ، وتظل تصرخ حتى يترك فيليكس الغرفة، أو حتى يحمله رئيس التحرير خارجًا.

قال: إنها تحمّلت ذلك لمدة عامين، وهو ما كان مثيرًا للإعجاب، ثم أعطته إنذارًا أخيرًا؛ إمّا فيليكس وإمّا هي، أحدهما يجب أن يغادر المنزل.

وقال: إنه فكّر في ذلك لثلاث ثوان بالضبط، ثم نهض، وأنزل حقيبتين، وبدأ في إلقاء أمتعتها فيهما.

فبكت بينما يعبأ الحقيبتين، وماءَ فيليكس، ودق جرس الهاتف، وأذيعت نشرة الأخبار في التليفزيون؛ فلم يسبق في حياته أنه كان وسط مثل هذه المجموعة المتشابكة من الأصوات، ولكن بمجرد أن غادرت أصبح كل شيء هادئًا، وربما لا أصدقه حينما قال: إن فيليكس لم يموء منذ ذلك الحين.

لم أكن أعرف: ما الذي فعلته كي أستحق هذه الثقة؛ كانت محادثاتنا مقتصرة دائمًا على العمل، وعلى الملاحظات حول أعمدتي ومناقشة المقالات المستقبلية.

قلتُ لـ ماركو عندما التقينا بالمصادفة أمام مركز الشباب: هل كان ينبغي عليّ أن أرد الجميل؟ وأن أخبره بشيء عن حياتي الخاصة؟

فأجاب ماركو: إن الرجل يعاني من الوحدة، وإلى جانب ذلك، مثل أي شخص لديه قدر من السلطة والسيطرة على الآخرين، يحتاج أحيانًا الحاجة إلى إظهار نفسه في شكل إنساني، وخيّر، ولطيف.

obeikandi.com

وتابع ماركو قائلاً: بالرجوع إلى نفس القصة غدًا، لا تتفاجأ إذا طلب منك ألا تتدخل في شؤونه.

انتظرنا تغيّر الضوء، وعبرنا الشارع، وعلى الجانب الآخر من الميدان، توجّهنا إلى "كنيز ميهايلوفا".

توقفتُ عند الزاوية ونظرتُ إلى اليسار ثم إلى اليمين، ثم أسرعتُ خلف ماركو.

وعندما لحقتُ به قلتُ: جيد، فهم ليسوا هنا.

فسألني ماركو: من تعني؟ أم هل تعتقد أن الجميع يعرف؟

ذكّرته بأصحاب قصّة الشعر القصيرة للغاية؛ فلوّح بيده رافضًا ذلك وقال: لا أهمية لهم، وسينتهي أمرهم في خلال عام، ثق بي.

لا أعرف أين ماركو الآن، ولكني أعرف كم كان مخطئًا؛ فلم يختفِ المؤمنون بالقومية، كما لم يكونوا عديمي الأهمية؛ على العكس ازداد حضورهم أكثر من أي وقت مضى، وظهر نفوذهم مرة أخرى، ولم يظهروا أي علامات دالة على التراجع.

هذا هو حال الأمور الآن، وذلك إذا حكمنا من خلال التقارير الإخبارية المتواضعة، ورسائل البريد الإلكتروني النادرة التي أثق بها؛ لأنها تأتي من مصادر موثوق بها، في حين إذا عدنا إلى ذلك الوقت، مع استمرار التوقّع المرهق بالتغيير، يكون يقين ماركو مفهومًا ومقبولاً.

يا إلهي، عندما أفكر في الانتظار، وفي الطاقة المستثمرة، وفي الإيمان، والأمل تنقبض معدتي.

كم كان كل شيء يسير ببطء، وبجهد كبير، وكم هي السرعة التي يتفكك ويتوقف بها كل شيء؟ ثم يغرق في المستنقع.

هناك بعض الأمور التي لا ينبغي للمرء أن يفكر بها، أو ربما يجب

على المرء ألا يتوقف أبدًا عن التفكير بها، لم أقرر بعد أي الأمرين أختار، ولكن أي منهما لن يغيّر أي شيء بعد الآن؛ فالحياة هي: عبارة عن خط يتحرك إلى الأمام نحو نهاية واحدة فقط، في حين أن الأخرى تبقى في مكان ما راسخة، وبغض النظر عمّا نفعل أو نقول، لا نستطيع الاقتراب منها، تمامًا كما قلتُ، أعني ما كتبتُ، رغم أن الفعل الأول لم يكن سيئًا؛ لأنني في كثير من الأحيان أقول الجمل بصوت عال، وأقلّب الكلمات على لساني، وأستمع إليها وهي تصطدم وترتد من الزوايا الفارغة، ولكن على كل حال، لا شك أنني أكرر نفسي، وهو ما لا يجب اعتباره أمرًا سيئًا؛ فالحياة كلها تتكرر، شرائح من حياوات أخرى، نظامها فقط هو الجديد والفريد، مما يعطي عنصر المفاجأة إلى الحياة، والمفاجأة هي مجرد كلمة بديلة للبساطة، تمامًا كما نعتقد دائمًا أن كل جديد بالنسبة لنا، أو أيًّا كان ما لا نعترف به، يعدّ فريدًا من نوعه.

رغم أن الحقيقة قد تكون مختلفة تمامًا، وأن ما نظنه فريدًا من نوعه قد يكون فقط أحد التكرارات المتعددة، وهو ما قصدتُ قوله عندما بدأتُ هذه الجملة، التي انقطعت ومضت في طريقها، دون انتظار، كما توقعتُ، وربما دون توخي الحذر؛ فحتى أواصل أنا وماركو سيرنا على طول "كنيز ميهايلوف"، وعلى العكس، كحيوانات أليفة منزلية متمردة، والتي تم إطلاقها لأول مرة منذ عهود، ركضت الجملة ببطء الآن؛ تارة أمامنا، والتارة الأخرى متلكئة في الخلف؛ لذلك كان لزامًا علينا الالتفات من آن لآخر للتأكد مما إذا كانت لا تزال هناك، ولم تذهب لتتجول بعيدًا، أو عند يد شخص يلوّح لها.

وبمجرد أن التفت لأنظر إلى الخلف رأيتُ مارجريتا.

لم أتعرّف عليها في البداية؛ فلقد غيَرت تسريحة شعرها كما كانت ترتدي كعبًا عاليًا، ومعطفًا واقيًا من المطر معقودًا عند خصرها، وشالاً موضوعًا بعناية على كتفيها.

وعندما التفتُ مرة ثانية، لم أتمكّن من رؤيتها بين المارة.

obeikandl.com

نظرتُ مرة ثالثة، ورأيتها وهي تغادر مكتبة أو قرطاسية، وتتوقف لتسقِط حزمة ملفوفة في حقيبة يدها، وتلتفت لتتجه إلى الاتجاه المعاكس الذي أتيتُ منه أنا وماركو للتوّ.

جذبتُ أحد أكمام ماركو، وأخبرته أنني نسيتُ التحقق من شيء ما في المكتبة، وطلبتُ منه الاستمرار في السير، وقلتُ له: إنني سألحق به خلال دقيقة، إن لم يكن قبل ذلك، بالتأكيد عند مدخل "كالميجدان".

رأيتُ أنه لم يُسرّ بذلك، ولكنه واصل سيره.

انتظرتُ حتى دخل بين المارة، ثم تبعتُ مارجريتا.

لحقتُ بها عند المكتبة الواقعة في الطرف الآخر من الشارع؛ كانت قد توقفت عند نافذة المكتبة، وكانت تبحث بين الكتب المعروضة.

لم أقترب منها، ولكن توقفتُ عند نضد أحد البائعين الجائلين في الشارع، وبحثتُ بين المجوهرات المقلّدة.

لم تتحرك مارجريتا.

كانت تقف عند النافذة، وتنظر إليها كما لو كانت تحاول قراءة كتاب مغلق.

بعد ذلك اتجه رجل طويل القامة ذو شارب نحو النافذة، ووقف بجانبها، وبدأ أيضًا في النظر إلى الكتب.

تداخل المارة بنظري إلى مارجريتا، والرجل ذو الشارب، لكنني كنتُ واثقًا تقريبًا من رؤية شفتيه وهما تتحركان.

لست متأكدًا من ذلك، لكنني لا أستطيع أن أكون أكثر دقة.

وبعد لحظة، كنتُ شبه واثق من ذلك أيضًا؛ فقد تلامست يداهما بسرعة؛ يد الرجل اليُسرى ويد مارجريتا اليُمنى، ومن الممكن أنهما تبادلا شيئًا ما.

obeikandi.com

سألني البائع المتجول بفروغ صبر: ما إذا كنتُ سأشتري شيئًا أم أنني أرغب فقط في تقليب بضاعته؟ لذا اضطررتُ لإعادة السلاسل، والتعويذات التي كنتُ أقلّبها بين أصابعي، وعندما نظرتُ نحو نافذة المكتبة مرة أخرى رأيتُ الرجل وهو يغادر متخذًا الاتجاه الذي جئت منه للتوِّ؛ تجاه الأكاديمية و"كالميجدان".

ظلت مارجريتا واقفة هناك لبضعة دقائق، ثم أعادت شعرها إلى الوراء، والتفتت وسارت في الاتجاه الآخر.

شعرتُ بالرغبة في العويل، كما لو كنت أستدعي فرقة من الملائكة؛ لأنه كان لزامًا عليّ - مرة أخرى - أن أختار بينها وبين الرجل، ولكن هذه المرة، حذرتني التجربة السابقة، وعلى عكس حكمي الأفضل، ذهبتُ خلف الرجل ذي الشارب.

وقبل أن أنغمس وسط أعداد المشاة الكبيرة، تمكنتُ من رؤية مارجريتا مرة أخرى وهي تتجه نحو "تيرازي"، في حين تمايل الشال على كتفيها بمرح كما لو كان يقوم بالتحية.

ملاحقتي للرجل ذي الشارب لم تكن مزحة.

كان يتحرك بسرعة، ويتجنب المارة بمهارة، مما اضطرني عدة مرات إلى شق طريقي خلال الحشد.

افترضتُ أنه بسبب كونه طويل القامة فيمكنه أن يرى ما يستتر أمامه، ويضبط خطوته وفقًا لذلك، بينما أسير أنا ببطء، وحيث إنني لم أستطع أن أرى ما يستتر أمامي، ظللتُ أرتطم بمن كانوا يتوقّفون، ويتحدثون، ويسيرون في الاتجاه المعاكس.

وعندما اقتربنا من الأكاديمية التفت الرجل ذو الشارب فجأة إلى اليمين؛ نحو كلية الفلسفة، وهو ما أجبرني على التوقّف.

قلتُ لنفسي: إذا التفتُ وتبعته فسأغضِب ماركو الذي يجب أن

يكون منتظرًا لي بالفعل أمام مكتبة مدينة "بلغراد"، ولكن لو لم أتبعه، فماذا بعد ذلك؟ من هذا الرجل؟ على أي حال، ولمَ أتبعه؟ ربما أكون قد شاهدتُ حقًّا العديد من الأفلام المثيرة، ربما أكون ضحية لقناعاتي وأوهامي الخاطئة؟ كيف يمكنني أن أتأكد من أن شيئًا ما قد حدث بين ذلك الرجل وبين مارجريتا؟ ولماذا، فجأة، أينما أنظر أرى مؤشرات دالة على السرية، ولغة الإشارات، والهاربين، والمطاردين، والمتآمرين، والمجانين؟

نظرتُ إلى الخلف، وتمامًا كما توقعتُ أن أرى، رأيتُ رجلين من أصحاب قصّات الشعر القصيرة يتبادلان محادثة مرحة، ويغمزان بعضهما البعض، ويضاعفان ذلك بالضحك.

فكرتُ: لن أندهش إذا اتضح أن الرجل ذا الشارب كان متبوعًا أيضًا، ولن أندهش إذا كان شخص ما يتبع هؤلاء أصحاب قصة الشعر القصيرة.

تلك الفكرة جعلتني أتخلي عن الرجل طويل القامة ذي الشارب، والذي كان لا يزال يمكنني رؤيته في النهاية البعيدة لمبنى كلية الفلسفة، والإسراع نحو "كالميجدان"؛ حيث أخبرتُ ماركو بالقصة كلها.

بدأتُ بالحديث، بينما كنتُ لا أزال على بُعد خطوات قليلة منه، لكنه حذّرني برفع سبابته.

ثم همس بأنني يجب أن ألقي نظرة على الجانب الآخر من الشارع، وهناك - عند مدخل "كالميجدان" - رأيتُ رجلاً يرتدي معطفًا أسود واقيًا من المطر، ونظارة داكنة.

لم أكن متأكدًا: ما إذا كان نفس الرجل الذي رأيته على الرصيف في "زيمون".

قلتُ لـ ماركو: لقد كانت مصادفة، فلا يُتبَع الجميع.

obeikandi.com

وأخبرته بما حدث للتوِّ، متجنبًا بالطبع أي ذكر لـ مارجريتا.

وفي تلك اللحظة، التفت الرجل ذو المعطف الأسود والنظارة الداكنة، وسار متمهلاً نحو "كالميجدان".

قلتُ: ما هذا؟ ألا يجب أن يتبعنا؟

فأجاب ماركو: إنه يستدرجنا، وإذا تبعناه سيختفي بطريقة أو بأخرى.

وهذا هو ما حدث بالضبط.

ادعى ماركو أننا فُقناه دهاءً، رغم أنه لم يستطع أن يشرح كيفية ذلك، وأننا لم نفقد أثره في حين فقد هو أثرنا.

قال ماركو: والآن، من يدري إلى أين يتجه، هل سيتجوّل في القلعة؟ وفكّر مليًّا: ربما اتجه إلى الأبراج المحصنة؛ حيث لن يخرج إلى ضوء النهار أو ظلام الليل.

لم أكن على يقين من ذلك، رغم أنني توقفتُ لألتفت، وأنظر إلى الوراء.

خرجنا إلى الشرفة التي تطل على نهري "سافا" و"الدانوب"، و"بلغراد" الجديدة و"زيمون" على ضفة النهر المقابلة.

فكرتُ في فيليكس، قط رئيس التحرير، الذي لم يموء مطلقًا بعد مغادرة زوجة رئيس التحرير.

أكان فيليكس هادئًا؛ لأنه سعيد أم غير سعيد؟ لقد بدا رئيس التحرير سعيدًا بما يكفي، ولكن ربما يكون للقط شعور مختلف.

فكرتُ: ربما كان يجب أن يغادر رئيس التحرير، ويترك زوجته مع القط، ربما كان يجب أن يجدوا حلاً، وكان الخوف والقلق حينئذ سيتحولان إلى احترام وتبجيل، ألقيتُ نظرة سريعة بزاوية عيني على

obeikandl.com

ماركو.

ما الذي كان يفكر به؟ بالتأكيد، ليس قط رئيس التحرير، بالضبط كما لن يخطر بباله أنني كنتُ أفكر بمخلوق زغبي في الوقت الذي يجب أن تنتابني فيه هواجس التآمر.

تعبتُ من كل شيء آخر، من القصص التي تتغذى على نفسها، والتي لا تتحرك أبدًا إلى الأمام، تمامًا كما هو حال النقطة الملونة في دوّامة، والتي تبدو دائمًا في نفس مكانها، رغم أنها تدور باستمرار.

في كل مرة، ظننتُ فيها أنني بصدد الاقتراب من شيء ما أو شخص ما أكتشف أن المسافة بيننا لم تتغير، ولو تغيرت، كانت على العكس تزيد ولا تنقص.

فكرتُ: هذا كثير بالنسبة لشخص كان حتى وقت قريب يحلم بأن يكون كاتبًا، ولا شيء أكثر من ذلك.

كنت أسمع ماركو وهو يتنفس بعمق وبانتظام، كما لو كان النوم قد غلبه، رغم أن عينيه كانتا مفتوحتين عن آخرهما.

امتدت السماء فوق "زيمون" وكانت "بلغراد" الجديدة كستار في مسرح، نشكلّ - نحن الاثنان فقط - جمهور المسرح الذي يخشى حلول الليل قبل الفصل الأخير، كما يخشى من احتمال أن تكون هذه إحدى المسرحيات التي يشارك فيها الجمهور، الممثلون غير المستعدين الذين لعب مصيرهم دور الخاسرين.

انزلقت الشمس عبر السماء كما لو مدهونة بزيت، وبدت وكأنها ستصطدم في أي لحظة مع الأفق، رغم أن اليوم كان لا يزال في أوله.

قلتُ: فترة ما بعد الظهر بدأت بالكاد، وانتهت بالفعل.

التفت ماركو ببطء ليواجهني.

obeikandi.com

سألني: ماذا كان ذلك؟ السطر الأول من قصيدة جديدة؟ كنتُ قد كتبتُ بضعة قصائد قبل عدة سنوات، ولم يغفر لي ماركو ذلك أبدًا.

في ذلك الوقت كان لديه صديقة، والتي كانت شاعرة حقيقية، والتي نشرت مجموعة من القصائد في الطبعة الأولى لكتاب صادر عن دار نشر "ماتيكا سربسكا"، وجاءت حساسيته المفرطة تجاه الأصوات والأشكال الشعرية بعد فراق مفاجىء، ومُحزِن للغاية عندما ضربته على رأسه بقاموس "بنسون" الإنجليزي الصربي الكرواتي، حتى تفجرت أنهار من الدماء على جبهته وعنقه.

الأسوأ من ذلك كله أن ذلك قد حدث خلال أداء مسرحية كتبها ميروسلاف مانديتش؛ في البداية لم يجد أحد ذلك مزعجًا؛ فالكل مقتنع بأن هذا جزء من الأداء.

حتى ميروسلاف مانديتش وقف وهو لا يدري ما الذي ينبغي القيام به.

فقط عندما بدأت الدماء تسيل من رأس ماركو انتُزع قاموس "بنسون" من بين يدي المرأة الثائرة، لكنها ظلت تغمز ماركو.

بعد ذلك، ولا شك، فقدتُ أنا أيضًا تذوقي للشعر، رغم أنني لن أنكر أبدًا قوة الشاعر للتعبير عن جوهر العالم، ووجودنا بإيجاز.

يمكنني الآن استخدام هذا النوع من الفنان، الأستاذ في التعبير عن الجوهر، شخص يمكنه تلخيص ما حدث لي خلال الأسابيع القليلة الماضية في جملة واحدة، أو ربما اثنين.

كان ماركو ينظر في وجهي، منتظرًا إجابة.

قلتُ في النهاية: كلا، ليس هذا السطر الأول من قصيدة، ولكن خلاصة يأسي، الوقت يمر، أسرع وأسرع، ولكني لا أتحرك ولو لقيد أُنملة.

فقال ماركو: اليأس لن يساعدك، خاصة إذا وضعت في اعتبارك أن أحدًا لا يسلب، أو يخدع، أو يتغلب على الوقت.

قاطعته قائلاً: البعض تمكّن من ذلك، ولكن عندما نظر ماركو إليّ متسائلاً، لم أستطع التفكير في أحد.

فأضاف ماركو: ربما يكونوا هؤلاء الذين تحالفوا مع الشيطان، وهو الأمر الذي لن تفعله أبدًا بقدر ما أعلم.

قلتُ: انسَ الشيطان؛ فهذه أمور أكثر خطورة بكثير.

صرخ ماركو قائلاً: كيف يمكنك أن تقول: إن الشيطان ليس مسألة خطيرة؟ رأيتُ على كتفه امرأة عجوزًا، والتي تجمدت في مكانها عندما ذكر الشيطان، والتفتت لتنظر فينا.

قلتُ: لا حاجة إلى الصراخ، إننا بذلك نجذب مزيدًا من الانتباه إلينا.

خطت المرأة العجوز خطوة نحونا، ثم وقفت بالعرض، وبعدها واصلت طريقها.

قال ماركو بنبرة أكثر هدوءًا: سأصرخ إذا ما أردتُ، وأدار ظهره لي، وكأنه طفل متجهم.

نظرتُ إلى يدي، ربما لم تكن أصابعي العشرة كافية لإحصاء المصائب في حياتي، والآن يجب أن أشمل سلوك ماركو غير المعقول.

ربما أصبح سلوكي يستحيل فهمه؟ هل أعزو للآخرين ما ينبغي أن أنسبه لنفسي؟ كم من علامات الاستفهام يمكن للشخص استيعابها وهي لم تتغير بعد؟ يجب أن يكون هناك حد أعلى لهذا العدد، يليه بعد ذلك انهيار.

نظرتُ إلى اليسار ثم إلى اليمين، ثم إلى أسفل ثم إلى أعلى، لكني

لم أجد أي جواب.

أفترض أن الحال نفسه خلفي.

راجعت ليطمئن قلبي فقط، ويزداد يقيني.

لا يوجد أي أثر لأي جواب، تمامًا كما لم يكن هناك أي أثر للرجل ذي المعطف الأسود.

كان ماركو لا يزال يوريني ظهره، وكانت السماء تتخذ ظلاً أدكن، والغيوم تنطلق بعيدًا بلا أي وعود، وفي الأسفل، على نهر "سافا"، كان هناك زورقان يتحركان ببطء تحت الجسر.

لمستُ كتف ماركو الذي قال: سيبقى لفترة أطول قليلاً، ومدّ يده.

لا أستطيع أن أتذكر متى كانت آخر مرة تصافحنا فيها.

أعطيته يدي، وتلاقت يدانا بضعف، فقط للحظة، والتي كانت، رغم ذلك، كافية بالنسبة لي كي أشعر بأن كفَّه كانت باردة كالثلج، كما لو كانت تحمل جليدًا.

والآن، كيف يمكنني كتابة الجملة التالية والتي لا تبدو سخيفة لأحد، بما في ذلك أنا؟ عندما لمستُ كف ماركو الباردة، ما خطر لي أنه على استعداد مرير للدفاع عن الشيطان؛ لأنه، أي: ماركو كان أحد مساعدي الشيطان.

وبينما أسير مبتعدًا عنه رأيتُ أن العبارة واضحة وضوح الشمس في عالم وعيي، أشرقت كلوحة نيون كبيرة، ذات حروف ملوّنة مختلفة، تومض وتنطفىء بإيقاع بطيء.

لو كان الرجل ذو المعطف الأسود والنظارة الداكنة قد ظهر أمامي في تلك اللحظة لكنتُ قد لوّحتُ له بمرح؛ فبالمقارنة مع الشيطان لا يعد شيئًا؛ ومع ذلك فهو لم يظهر، وسرعان ما وجدتُ نفسي في شارع

"كنيز ميهايلوفا"، والذي أصبح أكثر ازدحامًا مما كان عليه عندما بدأنا رحلتنا.

ظننتُ أن الذهاب إلى فناء الكنيس فكرة جيدة، لكنني ظننتُ أيضًا أنني يجب أن أتخلص من أفكار الشيطان؛ لذا غيّرتُ الاتجاه عند أكاديمية العلوم والفنون، وسرتُ نحو الحديقة الموجودة في "توبليتشين فيناك".

لم يكن هناك شيء أكثر تهدئة مثل الجلوس على مقعد في حديقة، والإحاطة بهديل الحمام، وهي تبحث عن فتات الخبز.

سأغمض عيني هنا، وأحاول تهدئة نفسي، والتركيز على الفراغ الذي ينقي الروح.

تلك كانت تدريبات تأمل بسيطة، لكنها تُجدي دائمًا، لدرجة أنه في غضون عشرة دقائق شعرتُ كما لو أنني نزعتُ الطبقة القذرة من الروح الملوثة، واستنشقت نفسًا نقيًّا، أولاً من خلال أحد فتحتي الأنف، ثم من خلال الأخرى.

بحلول ذلك الوقت كان الحمام قد ابتعد عني، وانجذب إلى امرأة عجوز تجلس على مقعد قريب، والتي كانت تقذف إليه بالبذور.

كانت تبدو وكأنها المرأة العجوز التي ظهرت في وقت سابق، التفتت إليّ في "كالميجدان" عندما ذكرتُ الشيطان، ولكن كل المسنّات، بالنسبة لي، يفعلن المثل، سواء كان السؤال يتعلق بالشيطان أو بمجموعة من الحمام الجائع.

الحمام، الحمام، الحمام، لم أستطع التفكير في أي شيء آخر، وهكذا، مع هيمنة تلك الفكرة في رأسي، دخلتُ فناء الكنيس.

لا أستطيع أن أتذكر ما إذا كان اليوم يوم جمعة؟ أو ربما يكون أحد الأعياد اليهودية؟ ولكن كان هناك عدد كبير من الرجال يجلسون

obeikandi.com

على طاولة تحت شجرة وارفة، من بينهم ياتشا ألكالاي، وإسحق ليفي، وداتشا.

لوّح ياتشا لي بيده، وعندما جئتُ أفسح لي مكانًا؛ كي أجلس بجانبه.

قال ياتشا: لقد أتيتُ في اللحظة المناسبة؛ لأنهم كانوا يتحدثون عن كيفية حماية المقبرة من غارات الهمجيين.

تساءل رجل جالس على الجانب الآخر لـ ياتشا: لِمَ الهمجيين؟ إنهم مجرد حثالة.

قاطعه رجل على الجانب الآخر من الطاولة قائلاً: الهمجيون، الحثالة، لا فارق، حقيقتهم لا تهمُّ، ولكن ما الذي يمكننا القيام به ضدهم؟ أخشى أننا لا نمتلك الكثير من الخيارات.

قال الرجل الجالس إلى جوار ياتشا: على أي حال لا يمكننا رسم كتابات على قبورهم، والشرطة لا تهتم بالمساعدة.

ما الخيارات المتبقية أمامنا، حراسة ليلية؟

أجاب رجل يرتدي الطاقية اليهودية: ليست فكرة سيئة، محاربة السم بالسم.

قال داتشا وهو يرتدي قبعته: هُراء، ثم خلعها مرة أخرى، لا جدوى من قضم أكثر مما يمكننا مضغه.

ومن الذي سيقوم بدور الحارس الليلي؟ نحن، وماذا سنفعل؟ هل سنقبل التحدي؟ انظروا إلى أنفسكم، لأجل الله، وأخبروني ماذا ترون؟ نظرنا جميعًا إلى أنفسنا ثم خفضنا أعيننا جميعًا نحو سطح الطاولة، كما لو كُنا متفقين على إجابة واحدة.

قال داتشا وسط الصمت: نحن حفنة من البؤس، ومن لا يستطيع فهم ذلك، أو لا يريد فهمه، عليه أن يسأل نفسه: ما إذا كان يفكر

تفكيرًا سليمًا أم لا؟

ثم أشار إليّ وقال: هو فقط يمكنه أن يفكر بشكل مختلف، ولكن هذا أمر يجب أن يقرره لنفسه.

سألت نفسي: ما إذا كان ينبغي أن أغادر أم لا؟ فربما سيكون من الأسهل بالنسبة لهم الحديث عن مثل هذه الأمور الحساسة في ظل عدم وجود غرباء.

قال ياتشا ألكالاي للجالسين على جانبي الأيمن والأيسر: ذلك لا يجدي، أليس كذلك؟ صاح الجميع مؤكدين ذلك؛ لذلك كان لزامًا على داتشا أن يضرب بيده على الطاولة لتهدئتهم، ثم قال: يمكننا أن نأمل في الحصول على مساعدة من مكان واحد فقط.

فرد إصبعه، وأشار إلى أعلى.

نظرنا جميعًا إلى أعلى، إلى الشجرة.

فصاح داتشا: ليس هنا، أعلى هناك، فوقنا! ومدّ ذراعه، ونظرنا جميعًا في سبابته المرتعشة.

ومضَ شعاع ضئيل من الضوء، والمرئي بالكاد من طرف إصبعه، ومرّ عبر أوراق الربيع، ولمع في السماء.

نظرتُ خِلسة فكان الشعاع قد اختفى.

نظرتُ حولي، ولكن لم يبد أن أحدًا قد لاحظ أي شيء.

قال الرجل الذي يرتدي الطاقية اليهودية في النهاية: ماذا سيقول الحاخام عندما يسمع ذلك؟

فسأله داتشا: كيف سيسمع لو لم نخبره؟

فقال ياتشا: الحاخام هو أقل همومنا؛ فهو يقرر ما يتعين علينا

obeikandi.com

القيام به.

بحلول ذلك الوقت، كان المساء قد احتضن السماء، وكان ينتشر ويتغير تدريجيًّا ليصبح ليلاً.

بدأ داتشا في رواية قصة، فبدا كبير في مبنى البلدية في مكتب الدفاع عن المجتمع، وهو يصف بالتفصيل مزايا حرب العصابات، وأهمية عنصر المفاجأة، فقط ليقول في النهاية: إننا يجب أن ننسى كل ذلك، وأن نركّز على التقاليد الحية.

قال: إذا كان التابعون لـ«لقبالاه" والمتصوفون قد تمكّنوا لقرون من خلق كائنات من التراب الأرضي، وبثّ الحياة فيهم، إذن يجب أن تكون لدينا وسيلة لمحاربة هؤلاء السفّاحين.

قال ياتشا: لا تقل لي أنك تقترح أن نصنع غولم؟

فأجاب داتشا: لا أقترح شيئًا، ولكن إذا كان ذلك هو السبيل الوحيد، فلم لا؟

ساد الصمت مرة أخرى.

كان الظلام يتدلى على وجوهنا، ويضغط على أجفاننا لتتدلى لأسفل، وخشيتُ للحظة أن يغلبني النوم، هناك، أمام الجميع، وأن تستقر جبهتي على الطاولة.

بلغني صوت داتشا من مسافة بعيدة، كما لو كان يصيح من على ظهر سفينة تبحر بعيدًا.

كان يتحدث عن وجود وصفات في كتابات القبالاه القديمة، كان هذا ما يقوله - حسبما أذكر -: إنها وصفات لأشكال مختلفة من المقاومة أو الإخفاء، أو لمجرد التفوق على ذكاء العدو، كل ما كان يتعين علينا فعله هو إيجاد ما يناسبنا، ثم تكييفه لعصرنا والتكنولوجيا، إذ كان من المهم ألا ننسى - وكرر بصوت ناعم - إن هذه الوثائق تعود

إلى العصور الوسطى، وربما يعود بعضها لأوقات أسبق، وأنه لا يمكن زرع شيء من فترة تاريخية في أخرى ببساطة.

ثم همس قائلاً: ولكن، كل شيء سيكون على ما يُرام طالما أننا نعلم ما نفعله.

قال ياتشا فجأة بصوت عالٍ ومباشرة في أذني: هل نعلم أو هل نظن أننا نعلم؟ نهضتُ.

حتى اليوم لا أعرف ما كان يحدث، إنني متأكد من أنني لم أكن نائمًا، ولكن في تلك اللحظة لم يكن هناك أحد يجلس على الطاولة سوانا.

نظرتُ إلى اليسار ثم إلى اليمين.

قال ياتشا: لقد ذهبوا، لا جدوى من البحث عنهم.

سألتُه: والغولم، ماذا حدث للغولم؟

فضحك ياتشا وقال: لم يحضر بعد، ولا جودوت أيضًا.

ثم تحوّلت نبرته إلى الجدية وقال: أنت لا تؤمن بما قاله داتشا، أليس كذلك؟

فأجبتُ: يجب أن أعترف أنه بدا مُقنعًا للغاية.

فقال ياتشا: من السهل أن تكون مقنعًا، يمكن لأي شخص أن يكون مقنعًا، وخاصة إذا كان شخصًا بليغًا كـ داتشا.

كان الظلام قد أصبح كثيفًا لدرجة أنني كنتُ أتمكّن بالكاد من تمييز ملامح وجه ياتشا.

قلتُ: لا أعتقد أنه سيكذب.

فأجاب ياتشا: بالطبع لا، لا أحد يتحدث عن الكذب؛ فكل ما قاله

حقيقة خالصة، من أول لآخر حرف.

سألته: صفات الأسلحة المختلفة، هل هي موجودة؟

أجاب ياتشا: دعنا نفترض أن هذا هو نوع من الترخيص الشعري، ولكن الحقيقة هي وجود تعليمات دقيقة للغاية لصنع غولم، وفي حالة صنع غولم مطيع؛ فيمكن لهذا المخلوق - وبسهولة - إحداث حالة من الذعر وسط صفوف العدو، والذعر هو المرحلة الأولى للهزيمة.

قلتُ: بشكل عام.

فتابع ياتشا: دائمًا.

كل ما تبقى من ملامح وجهه هو بقعة باهتة على شكل بيضة شاحب، وشعرتُ بأنني أتحدث إلى شبح على وشك التلاشي.

قال ياشتا بخصوص غولم: فالشيء الأكثر إثارة للاهتمام هو أنه رغم أصوله في اللغة، وتلاوة الصيغ السحرية، فإنه لا يستطيع الكلام، وهو ما يعد سخفًا واضحًا؛ لأنك تتوقع أن أول ما تصنعه اللغة هو اللغة يليها كل شيء آخر، ومع ذلك، إذا كان الغولم قادرًا على الكلام فسيكون كائنًا مثاليا، وهو ما سيمثل تحديًا مباشرًا، الله الذي يمكنه وحده أن يخلق كائنات كاملة ومثالية.

وواصل صوت ياتشا من وسط الظلام قائلاً: وهذا هو سبب وجوب عدم مثالية الغولم، ولو لم يكن يمتلك القدرة على التحدّث؛ إذن فهو لا يمتلك المكوّن الأساسي للكائن الحقيقي، بعبارة أخرى، لا يمكنه أن يكون خالقًا، ولا أن يخلق العالم من خلال النطق، أي: بنفس الطريقة التي خلق بها الله عالمه - عالمنا - هذا العالم.

لم يعد باستطاعتي رؤيته.

مددتُ يدي، ولكنها لم تصل إلى شيء.

obeikandi.com

ثم سمعتُ صوت البوابة الحديدية وهي تصدر صريرًا، وتتعثر ببطء؛ فانتقلتُ نحو الصوت.

وحتى اليوم، بعد ست سنوات، لا زلتُ لا أفهم ما حدث في فناء كُنيس "بلغراد" في تلك الليلة، أعرف فقط أن كثافة الظلام قد خفّت بمجرد أن عبرتُ البوابة الحديدية، وخطوتُ إلى الشارع.

حينما حاولتُ العودة إلى فناء الكُنيس لم أستطع فتح البوابة الثقيلة.

وقال الرجل الذي كان يمر آنذاك: تلك البوابة يتم دفعها دائمًا بالقوة، وعندما آن الأوان قاموا بتثبيتها بإحكام.

كنتُ على وشك أن أسأله عن كيفية الدخول مرة أخرى؛ فإذا كان يعلم أن البوابة يتم دفعها بالقوة إذن سيعرف كيفية الدخول، ولكنه كان قد سار بالفعل على الرصيف، ولم أحاول اللحاق به.

عبرتُ إلى الجانب الآخر من الشارع، وصعدتُ الدرجات المؤدية إلى "أوبيليتشيف فيناك".

خطر لي أنه يجب أن تكون هناك علاقة ما بين الكُنيس والعلامة التي رأيتها في المقهى الموجود عند معرض الصور الجماعي، بقدر ما توقعت علامة بين العلامات المتروكة حول سوق "زيمون".

بعبارة أخرى، كنتُ مقتنعًا أن كل ما يجب عليّ القيام به هو المراقبة، وحينئذ سأكتشف فيضًا من العلامات الجديدة، ولكني لم أكن أرغب في بدء بحث آخر.

ربما لا يكون مصطلح «بحث» هو المصطلح الأفضل، وإن كنتُ قد شعرتُ حقًّا في تلك اللحظة بشعور مفتش الشرطة المرهق والذي، لدى نهاية حياته المهنية المملة، يصادف حالة مثيرة تغيّر حياته جذريًّا، الفارق الوحيد هو أنني لم يكن لدي أي رغبة على الإطلاق في تغيير

حياتي.

ربما يكون من الغريب أن يصدر ذلك من شخص عاش في مثل هذا البلدة المضطربة المدمرة، والتي نجحت فيها قلة قليلة في الحفاظ على ذرة من الأمل، ولكن إذا حاولتُ تفسير ذلك سأفشل.

هناك بعض الأشياء؛ إمّا يعرفها المرء، وإمّا يجهلها، هذا كل ما في الأمر.

وفي النهاية تغيّرت حياتي، وهو ما أقوله دون أسف؛ فلا معنى للأسف، ولكن أقوله كحقيقة، وخاصة لأنني أشعر أن كل حقيقة هي موضع ترحيب في قصة بها عدد قليل جدًّا من الحقائق، على الأقل تحمل الهيئة التي تعوّدنا عليها، وعندما أقول ذلك فإنني أعني تلك الحقائق التي تحررنا من الشك، وليس الحقائق التي تشجعنا على الشك.

على أي حال، فالجملة التي تتكرر فيها نفس الكلمة أربع مرات لا يمكن أن تكون جملة جيدة، بل تكون انعكاسًا فعالاً للقلق، والشعور بالعجز لدى الشخص الذي كتبها.

لقد شعرتُ بنفس العجز نفسه وأنا أكتب مقالتي في "الدقيقة" خلال الأسابيع الماضية.

وعندما أشير إلى الأسابيع الماضية، فأنا أفكر في الأسابيع التي انتهت خلالها الأحداث التي بدأت بالصفعة على طول ضفاف نهر "الدانوب".

حصلتُ مؤخرًا على تقويم لعام ١٩٩٨م، فأحصيتُ الأيام التالية للثامن من مارس، واتضح لي أن كل ذلك استغرق ما يزيد قليلاً عن تسعة أسابيع.

ما الذي تمثله التسعة أسابيع؟ لا شيء.

ومع ذلك، في ذلك الوقت، بدا أن ذلك استغرق وقتًا أطول بكثير،

بل إنني فكرتُ أحيانًا بيأس أن ذلك لن ينتهي أبدًا، وأنني سأظل مُحاصرًا في تلك الدوّامة التي لا ترحم لبقية حياتي، والتي تبتلع كل شيء في طريقها كالزوبعة.

وفي ظل ذلك التشويش، والذي لا أقوم فيه بوظيفة نقل جيدة، أدرك أن الشيء الثابت الوحيد هو المقالات التي كنتُ أكتبها بانتظام، وأسلّمها كل أربعاء في الثالثة عصرًا على أقصى تقدير.

وبالطبع، ومع مرور الوقت، وتسليم مقال جديد واحدًا تلو الآخر، كانوا يصرخون جميعًا في وجهي عندما آتي إلى مكتب رئيس التحرير والنص في يدي.

أذكر ذلك فقط؛ لأنه بعد المساء الذي قضيتُه في فناء الكُنيس، وبينما أصعد الدرج المؤدي إلى "أوبيليتشيف فيناك"، وأفكر في كتلة العلامات الجديدة، تذكرتُ أنني حينما درستُ خريطة "زيمون" تبيّن لي أن المجاورة التي تحيط السوق - حيث وجدتُ حشدًا من العلامات - تتألف من تسع كتل من كتل المدينة.

لماذا يعد ذلك مهمًّا؟ لأن تسعة رجال كانوا يجلسون حول طاولة خشبية في فناء الكُنيس، وكنتُ أنا العاشر.

بالطبع عند تلك النقطة، لم أكن أعرف بعد أن هذه الأحداث سوف تستمر لتسعة أسابيع، ولكن رغم ذلك كانت المصادفة تكفي لحثي على أن أكتب عن دور الأرقام في حياتنا، وهو ما قلتُه لرئيس التحرير في محادثة هاتفية في اليوم التالي.

لم يتحمس رئيس التحرير، وادّعى أن هذا الموضوع غامض جدًّا بالنسبة للقارىء المتوسط، لكنني تمسكتُ بموقفي، فقد كنتُ مقتنعًا أن هذا بالضبط هو النوع الذي يُشرك القراء، خاصة فيما يتعلق بتخمين ما يمكن أن يسيطر على حياتهم.

بخلاف "سلوبودان ميلوتشيفيتش" بالطبع.

ابتسم رئيس التحرير، ولكننا استغرقنا في الحديث عن فيليكس القط، ومموائه قبل أن يرضخ، مع تنبيهي أنه لن ينشر أي كتابات مفهومة لفئة قليلة من الجمهور.

وقال في نهاية المحادثة: لدينا أكثر مما يكفي من الفئات المعينة التي تنمو من يوم لآخر.

كان أول من فكرتُ به هو دراجان ميتشوفيتش، رغم أنه بعد محادثتنا الأخيرة، والتي لم أنهيها على نحو جيد، لم أكن حريصًا بدرجة كبيرة على التحدّث إليه.

ومن ناحية أخرى، من يمكنه بخلافه أن يخبرني بالمزيد عن الأرقام؟ فهو عالم الرياضيات الوحيد الذي أعرفه؛ لا يهتم شخصٌ آخر بالأرقام، وكما تبدو الأمور في عالم اليوم ستصبح الرياضيات لغة سرية فقط للمبتدئين.

قرأتُ مؤخرًا أنه في العديد من البلدان، لم يعد الأطفال قادرين على القيام بعمليات حسابية في رؤوسهم غيبًا، كما لم تعد جداول الضرب هي أساس المعرفة بالطريقة التي اعتدنا عليها؛ لأن الجميع يمتلكون، أو يمكنهم بسهولة الحصول على آلة حاسبة، وحساب كل شيء في حين أنهم لا يفهمون أساسًا ما يحسبونه.

وفي حين يقول البعض: إن هذا أمر جيد؛ لأن المعرفة لا تلزم أن تكون ملكية حصرية للأقلية المتعلمة، أرى ذلك سيطرة لذوي المقدرة المتوسطة؛ فأصحاب المقدرة المتوسطة يحكمون العالم بلا شك، ومن الطبيعي أن يكيفوا العالم وفقًا لاحتياجاتهم، وقدراتهم الفكرية.

في متجر، على سبيل المثال، هناك أوقات يمكنني فيها جمع أسعار محتويات البقالة التي أشتريها بشكل أسرع من المرأة التي تجلس على آلة تسجيل النقد، وهو ما يحوز دائمًا إعجاب مندوبي المبيعات والعملاء الآخرين.

لن أفاجأ إذا صفقوا لي يومًا ما، لكنني أنحرف عن الموضوع.

من السهل دائمًا وضع الخطط بدلاً من اتباعها، وطالما أزعجني هذا الأمر في أوائل حياتي؛ الحياة التي كان يجب أن أتركها منذ ست سنوات عندما بدأت هذه الحياة الجديدة، والتي لا تشبه الحياة بقدر كبير.

كنتُ معروفًا أحيانًا بقول: إنني حلمتُ بحياة بعيدة للغاية عن الانقسامات التاريخية، وإنني سأشعر بسعادة بالغة لو قضيتُ كل أيامي في القراءة والكتابة والاستماع إلى الموسيقى، والآن، عندما أعيش بعيدًا عن التاريخ، عندما أصبح وقتي كله ملكًا لي، أحاول أن أعيد بناء الأحداث التي أدت إلى ذلك، وأقول بلا خجل - هنا والآن -: إنني لا أستطيع تخيُّل أي حياة أخرى، إنني أتوق إلى ما كنتُ أعتبره رواسب عديمة الفائدة.

لكن بالعودة إلى مسألة الأرقام، فهي محايدة على الأقل؛ لا تعني المشاعر شيئًا بالنسبة لها، لا فارق بين رقم وآخر، ورغم ذلك، ومن ناحية أخرى، كل رقم يعد فريدًا من نوعه.

يبدو كما لو أنني أتحدث عن الناس، وقد يكون ذلك تفكيري عندما اقترحتُ على رئيس تحرير "الدقيقة" كتابة مقال عن: الدور الذي تلعبه الأرقام في حياتنا.

من المدهش أن شيئًا ما غير موجود في الطبيعة، بأي شكل من الأشكال، يلعب مثل هذا الدور المهم في مفهومنا عن العالم.

سيكون بدهيًّا ألا نعرف الأرقام، وربما كان هذا هو الحال منذ فترة طويلة؛ لأن ذلك يقرّبنا إلى البناء الأصلي للكون، وتم تأكيد ذلك في الآونة الأخيرة.

قرأتُ في "بوليتيكين زابافنيك" أنه تم اكتشاف قبيلة في أدغال الأمازون، والتي لم يكن لديها أي فكرة عن الأرقام، كما لا تعرف العد.

إذا اصطاد أحد أفراد القبيلة سمكتين، واصطاد آخر ثلاث، واصطاد ثالث خمس، فلا يمثل ذلك فارقًا؛ فالأسماك هي الأسماك، وهذا كل ما في الأمر.

هناك طريق طويل من هنا وصولاً إلى الأرقام الموشومة على جلود الأفراد في معسكرات الاعتقال، وأردتُ كتابة مقالي في "الدقيقة" عن تلك الرحلة، من رقم لا وجود له للرقم الذي يمثل تذكرة الدخول إلى غرفة الموت.

وعندما كتبتُ المقال بدا مختلفًا، كما يحدث في كثير من الأحيان لنوايانا عندما نكتب، ولقد وجهّتُ معظم الاهتمام إلى الأرقام الموجودة في التقاليد اليهودية، وإلى حقيقة أن أشياء كثيرة في ممارساتهم الدينية مُعرّفة على هيئة أرقام، على سبيل المثال، الصفات الإلهية الثلاث عشرة، والوصايا العشر، والوصايا الثلاثمائة، وثلاث عشرة، أو الميتزفة، المائتي وواحد وثلاثين تبديلاً في ترتيب الحروف الأبجدية، أو التي خُلق العالم من خلالها، وهنا أيضًا يتعين عليّ أن أذكر، وهو ما أراه الآن تفصيلا مهمًّا للغاية، الانبعاثات العشر أو الدرجات التي يتجلى الله من خلالها في العالم.

كان رئيس التحرير يشعر بقلق دون داع؛ فالمقال جذب انتباه القرّاء بالفعل، وبدأت رسائل البريد الإلكتروني في التدفق في نفس اليوم الذي نُشر فيه المقال، تبعتها فترة فاصلة من الرسائل الحقيقية القديمة جدًّا، وبطاقتين بريديتين أو ثلاث، بل وحتى حزمة صغيرة والتي، لأسباب أمنية، لم أفتحها أبدًا، ولكن قذفتُها في أقرب سلة القمامة في طريق خروجي من مكتب رئيس التحرير.

كان معظم الرسائل تعبّر عن الثناء والاحترام للتقاليد اليهودية، وإن كان هناك - أيضًا - بعض التعليقات غير المواتية، بل وحتى هجمات واتهامات صريحة للحب المفرط «للحثالة اليهودية».

كان أحد الخطابات يشبه مجموعة من أطقم الحروف، والمأخوذة

من رواية عن جريمة؛ كان الخطاب يتألف من؛ حروف، وكلمات، وأجزاء من جمل مقطوعة من صحف يومية وأسبوعية.

كان طويلاً، وشعرتُ بإعجاب مشوبٌ بحسد تجاه الشخص المستعد لقضاء ساعات طويلة في مثل هذا القطع واللصق الدقيق؛ ربما كان يرتدي قفازات بلاستيكية كي يتجنب ترك أي بصمات على المقص، وأنبوبة الغراء والصحف.

وبعد الانتهاء من عمله، عندما خلع القفازات في النهاية، يجب أن يكون جلد أصابعه كله مغضَّنًا ومجعّدًا بفعل العرق.

كانت بعض العبارات في الخطاب تذكرني بطريقة لا تقاوم بما سمعتُه في لقاءين مع المؤمنين المتشددين بالقومية، وكنتُ أشعر بأنهم سرعان ما سيظهرون مجددًا، وهو ما كانت تعد به الجملة الأخيرة تقريبًا في الرسالة المُلصقة.

سنرى من هو على حق، هكذا تقول الجملة التي تتألف من ثمانية قطع صغيرة من صحيفة، والتي تعرّفتُ على حرفين منها، تم قصّهما من "بوليتيكا"، وكلمة واحدة من "داناس".

بعد نشر المقال بيوم أو يومين، ظهرت رسوم جرافيتية على مبنى قريب من مكتب رئيس تحرير "الدقيقة"، والتي كانت تقول: ما اليهود إلا أرقام، وأضاف أحدهم أسفل تلك الكلمات في الليلة التالية: قائد معسكر أوشفيتز، واستقبلتني رائحة البراز الكريهة مرة أخرى أمام باب شقتي، والملفوف في صورة للبحر الميت، ولكن أعترف أنني لم أفهم ما يعنيه ذلك.

فلم أكن أجيد تفسير الرموز قط، وطوال حياتي لم أستطع أن أخمّن ما إذا كان البراز إشارة إلى الموت، كما يقترح اسم البحر ذلك؟ أم إلى مقدار كبير من الملح؟ جو خيالي، اكتئاب على سطح الأرض، الأمر الذي ربما يكون مرتبطًا بالجحيم، أو ما إذا كان متعهد البراز، هذا المصطلح

obeikandl.com

الذي ربما يكون أفضل من منتج البراز، ليس لديه صورة أخرى لإسرائيل في متناول اليد، وبالتالي فإن الصورة التي لديه هي المشهد الكئيب لإمبراطورية الملح، يجب أن تكون كافية لدورها كغلاف.

على أي حال، كان الغائط موضوعًا على الصورة كما لو كان يطفو على سطح البحر.

البراز، الكتابة، الرسائل الغاضبة، كل ذلك حذرني من أن هناك أشياء أسوأ على وشك الحدوث، وبالفعل، لاحظتُ خلال الأيام القليلة التالية هؤلاء الشباب الذين يتبعونني في كثير من الأحيان، وحاولتُ تجنّب العودة إلى المنزل في وقت متأخر من الليل، أو السير وحيدًا على طول النهر.

سمعتُ في الليل أصواتًا في ردهة المبنى، الذي أسكن فيه، وكذلك أمام باب شقتي، وهو ما دفعني لوضع أشياء مفيدة في الدفاع عن النفس في جميع أنحاء الشقة: مظلة، لوح من القبو، أنبوب بلاستيكي صلب، مطرقة، ومفتاح ربط.

وبينما أضع تلك الأشياء بشكل استراتيجي اضطررتُ إلى الضحك؛ لأنني كنت أعرف أنني لن أستخدمها أبدًا، ولو استخدمتها سأكون أكثر عرضة لإيذاء نفسي.

لقد سقطت المطرقة على قدمي أكثر من مرة.

ومع ذلك، عندما رن جرس الهاتف في الليلة التالية انتزعتُ الشوبك من أسفل الفراش، واتجهتُ نحو الباب.

وقفتُ هناك في الظلام لفترة، واستمعتُ إلى الصمت في الردهة، وحينها فقط أدركتُ أن صوت رنين الهاتف يأتي من خلفي.

اتجهتُ نحو الهاتف، رافعًا الشوبك إلى أعلى كما لو كان شخص ما سيقفز أمامي بمجرد أن ألتقطُ سماعة الهاتف، ولكن حينما وضعتُ

سماعة الهاتف على أذني، سمعتُ صوت مارجريتا.

تكدّرتُ، وأخفيتُ الشوبك وراء ظهري.

قالت: إنها تعتذر عن الاتصال في وقت متأخر جدًّا، وخاصة إذا كانت قد أيقظتني من النوم، ولكن قرأت للتو مقالي في "الدقيقة"، واضطرت إلى الاتصال بي على الفور.

تلفّظت الكلمات بتقسيمها إلى مقاطع، وتحدّثت كما لو كانت تهمهم.

قلتُ: حسنًا، كل شيء على ما يُرام.

وتساءلتُ: ما الذي يمكن عمله بالشوبك؟ لمَ أقتني شوبك من الأساس، هذا الشوبك الذي يبدو قديمًا وباليًا، رغم أنني لا أخبز أبدًا، وبالنسبة لصنع عجينة الفطائر والتي يُستخدم فيها الشوبك بقدر ما أعلم، فأرى أنها مهمة أكثر تحفيزًا من جهود الكيميائي لصنع الذهب؟! ومع ذلك، قالت مارجريتا: إنها مهتمة بالانبعاثات، ولكن بقدر علاقة الأرقام بذلك؛ فهي لا تعلم شيئًا، وحتى وإن كانت زيارة عادية إلى السوق تمثل عذابًا بسبب الحرج الذي شعرت به عندما أعادت إليها المرأة الجالسة على آلة تسجيل النقد فائض القيمة المستحقة.

فكرتُ أن هناك بعض الأشياء لن نعرفها أبدًا، وبينما كانت مارجريتا تتحدث عن تجوّلاتها عبر الصحاري والغابات البدائية ذات الأرقام وضعتُ الشوبك مرة أخرى أسفل الفراش.

ثم قالت مارجريتا: ولكن، دعنا نعد إلى الانبعاثات.

تساءلتُ: هل خطر على بالها أنني ينبغي أن أخبرها بأن عددها أحد عشر في واقع الأمر، وهل يجب أن أذكر الانبعاث المستتر، وهو المعرفة، والواقع بين الحكمة والتفاهم؟

قالت مارجريتا: هاي، من الأفضل أن نتحدث عن مثل هذه

الموضوعات دون وسيط.

لقد كانت في تلك الشقة في البناية الشاهقة الموجودة عند نهر "الدانوب"؛ حيث عثرتُ أنا وماركو على رسالتها، وكانت تريد أن نواصل حديثنا عن الانبعاثات هناك؛ إذ لم أكن أمانع ارتداء ملابسي بالطبع، والخروج في وقت متأخر جدًّا من الليل.

سألتُها: كيف عرفت أنني لا أرتدي ملابسي؟

فأجابت: إنني أعرف كل شيء، لكنني لا أفشي سرّا.

لم أعلّق، فلقد كنتُ أتساءل: عمّا إذا كانت تعرف شيئًا عن التلويح بالشوبك؟

فلن أفاجأ بذلك.

قلتُ: حسنًا، وبدأتُ في ارتداء ملابسي قبل حتى أن أغلق الخط.

وطوال الوقت، بمجرد أن خرجت إلى الشارع، لم أستطع طرد فكرة الشوبك من ذهني، رغم أن ما أقلقني بدرجة أكبر هو نسيان شيء ما تمامًا بدلاً من الشوبك نفسه.

قلتُ لـ مارجريتا في وقت لاحق: لقد كنتُ مفتونًا دائمًا بآلية النسيان، أو بالأحرى مسألة كيفية التحقق مما إذا كان شيء ما قد تم نسيانه أم لا؛ لأنه إذا كان قد تم نسيانه؛ فلم يعد محلاً للسؤال، وهو ما يعني: إنه إذا كان لا يزال محلاً للسؤال؛ فالنسيان إذن ليس كاملاً تمامًا، كما لم يكن كاملاً في حالة الشوبك إذا كان ملكًا لي في الأساس.

قهقهت مارجريتا لدرجة أنني لم أقدر ذلك تمامًا في هذا الوقت من الليل؛ ربما لأن أسنانها لمعت بشكل حاد في ظلام الشقة الموجودة في البناية الشاهقة.

لم أذكر أنني عندما دخلتُ البناية، ووجدت مصباح الدرج منطفئًا،

ندمت أنني لم أحضر الشوبك، وخاصة عندما بدا أنَّ شخصًا ما كان يتنفس في الظلام، وعلى مقربة مني.

لم أجرؤ على صعود الدرج؛ فلم أكن أرغب في الارتجاف في كل زاوية، فاستدعيتُ المصعد، وصعدتُ به إلى الطابق الرابع.

فتحت مارجريتا الباب قبل أن تتاح لي فرصة دق جرس الباب، أو استخدام مفتاح صندوق البريد.

كانت حافية القدمين، وبينما أحاول عدم النظر إلى قدميها، أو إلى صورتي الشاحبة في المرآة البيضاوية بدأتُ في التحدّث عن الشوبك، في حين كُنا لا نزال في الردهة.

كان هناك العديد من المصابيح في الشقة بحيث إنها بدت، وهي منقّطة بالظلال، مدفونة وسط الكتب.

كان هناك المزيد من الكتب الملقاة على الأرض مقارنة بالمرة السابقة؛ سقط بعضها، والذي كان مكدّسًا عاليًا، لدرجة أنه في بعض الأماكن كان يمكّن التنقل بالكاد عبرها.

كان هناك مصباح مضاء – أيضًا - فوق المكتب الصغير، وكان ضوؤه مسلّطًا على مجلد من موسوعة، وإلى جانبه كانت هناك صفحات مكتوبة.

عرضت عليّ مارجريتا تناول الشاي، وعندما قبلت ذهبت إلى المطبخ لتشغيل الغلاية.

اتجهتُ إلى النافذة، ونظرتُ إلى اليسار ثم إلى اليمين، كان الليل في كل مكان.

حتى أضواء العاصمة كانت تغمض عينيها نصف إغماضة، كما لو تستعد للذهاب إلى الفراش.

obeikandl.com

التفتُ عندما سمعت صوت خشخشة؛ وجدت مارجريتا تضع الصينية على الأرض، ثم جلست بجانبها.

كانت تنورتها تتراجع من لحظة لأخرى كاشفة عن فخذها الذي يحمل بياضًا مبهرًا، وهو ما أجبرني على النظر لأعلى، وتفحّص السقف.

قالت مارجريتا: شاي الياسمين، وأعطتني كوبًا.

قالت: إنها شربت العديد من أنواع الشاي، ولكن شاي الياسمين هو المفضل لديها.

أضافت: على أي حال، لا يوجد شيء جيد في الحديث عن الخير والشر.

قلتُ: إذا كنت تفكرين في الشوبك الذي أمتلكه فسيكون ذلك تجسيدًا للخير، ولن تكون له علاقة بالشر، إلا إذا هبط على جمجمة شريرة.

أجابت مارجريتا: لا يوجد شيء جيد أو سيىء على الإطلاق، حتى الشوبك، رغم أنني أعتقد أن هناك شوابك تدفع بالشر إلى حافة شكلها الإسطواني.

ضحكتُ وقلتُ: لا أستطع أن أصدق أنك أيقظتني في الثالثة صباحًا حتى نتحدث عن الشوابك الجيدة والشريرة.

فقالت مارجريتا: هذا يرجع إلى أنني اعتقدتُ أنني تركت شوبكي في المنزل، بينما لا يزال معي.

أشعر أن العديد من الناس لا يفهمون أن الأمور تتحكم بنا فقط؛ لأننا لا نبالي بها.

عندما تترك شيئًا فيجب أن تتركه داخل النفس وخارجها.

مدت يدها، والتقطت كتاب من أقرب كومة، ورفعته ثم وضعته

على الأرض، ثم قالت: سأتركه هنا، لكنني سأتركه أيضًا بداخلي.

لامست بطنها، كما لو كانت قد ابتلعته.

قالت: لو كنتُ سأخرج الآن - ووقفت فجأة - سيبقى الكتاب، في الداخل والخارج على حد سواء، وعندما أعود - ثم جلست مرة أخرى - سأمسكه كما لو لم أتركه أبدًا، في الغرفة أو في نفسي.

وبينما كانت جالسة سطع بياض فخذها مرة أخرى.

ارتشفت مارجريتا كوب الشاي الخاص بها.

قلتُ: في المرة القادمة، سأكون أكثر حذرًا.

فقالت مارجريتا: كلا، ليس للأمر علاقة بالحذر، وقد لا تكون هناك مرة قادمة.

تطلعت بثبات إلى وجهي، وكان عليّ بذل جهد كبير لتحمّل نظرتها؛ فلم أكن أدري ما هو المتوقع مني.

كانت تمتلك عينين تجمعان بين اللونين الرمادي والأزرق، بل كانت تميل أكثر إلى اللون الرمادي، أفكر في الأمر الآن، رغم أنني لستُ على يقين من ذلك أيضًا بعد كل هذه السنوات.

قالت: حسنًا، استمع الآن.

كنتُ أفترض أنها تحدثت لأكثر من ساعة، ثم ذهبت لتصنع الشاي الطازج.

ما الذي تحدثت عنه؟ عن القبالاه، نظام الانبعاثات، انبثاق الجوهر الإلهي، عن نظام كل شيء في الوجود، مفهوم الخير والشر، هجرة الأرواح، انسجام الدنى، تأثير الكواكب، الصلاة والصمت.

كان بعض من هذه الأشياء مألوفًا، في حين أن البعض الآخر كنتُ

أسمع عنه للمرة الأولى.

نهضتُ، ورفعت ذراعي، ومددتهما، ثم بدأتُ أحركهما ذهابًا وإيابًا نحو الرفوف المثقلة بالكتب.

مررتُ من أمام المكتب، ونظرت في صفحات الكتابة، ولكني لم أجرؤ على التوقف، وفحصهم عن قرب، رغم أن الأصوات القادمة من المطبخ تؤكد أن مارجريتا لا تزال مشغولة بإعداد الشاي.

ومع ذلك، تعرّفتُ على الكتاب المفتوح؛ لقد كان مجلد الموسوعة اليهودية المخصص للأبواب التي تبدأ بحرف «غ»، ويؤكد ذلك لقب الباب الذي يحمل عنوان «غيلغول»، والذي نجحتُ في إلقاء نظرة عابرة عليه.

خطوتُ إلى الأمام لمسافة أطول قليلاً، ونظرتُ في زجاج النوافذ المظلم، وحملقتُ في كتابين أو ثلاثة كتب، وتصفحتُ دراسة موشيه إيدل عن غولم، ووعدت نفسي بأنني سأقرأها بالتأكيد في مرحلة ما.

ألاحظ أنني أفتعل أسبابًا في كثير من الأحيان، الآن كي أنحرف عن القصة، أو أبطىء من إيقاعها، أو حتى كي أتجنب روايتها، كما لو كنتُ أحتفظ بسجل يمكن تسميته رواية القصص، وكما لو أن كل هذا لا يبدو قصة لأحد سواي.

ومع ذلك، ما هي القصة؟ سؤال لن أجيب عليه بالطبع، لأن تلك الإجابة لن تكون إلا شكلاً آخرًا من أشكال التأجيل، على عكس الإجابة التي حصلت عليها من مارجريتا عندما سألتها وأنا أشير إلى مجلد الموسوعة المفتوحة: ما إذا كانت تستعد للسفر أم لا؟

كان من المفترض أن يكون السؤال فكاهيًّا، ولكن مارجريتا أجابت بكل جدية: إن الاستعدادات لا تعني شيئًا هنا؛ لأن الأرواح تسافر طوال الوقت، وأنه من المؤكد أننا لا نتخذ مثل هذه القرارات.

obeikandl.com

قالت وهي تسكب الشاي: القرار الوحيد الذي نتخذه هو الهيئة التي سنكون عليها في هذه الحياة؛ لأن الأرواح الطيبة تسعى إلى الصالحين، تمامًا كما تبحث النفوس الشريرة عن الفاسدين.

هذا هو أحد أسباب في أن يصبح الشخص الصالح أفضل في بعض الأحيان، أو لما يشعر الشخص الشرير فجأة بإلحاح الشر.

ارتشفتُ كوب الشاي الخاص بي.

وتابعت مارجريتا قائلة: هناك أرواح تطوّق العالم لعدة قرون، وتفعل ما بوسعها لتساهم في انتشار الخير جيدًا؛ لأن ذلك هو السبيل الوحيد كي يحتشد الشر بشكل تدريجي بعيدًا عن وجه الأرض، كي تجعل العالم كله مرآة للخير.

كانت تتحدث بحماسة، والتي يمكن سماعها فقط في تلك السنوات في سياق مختلف تمامًا، بالطبع في الخطب المسهبة العنيفة للمحرضين السياسيين في الأخبار التليفزيونية، وكان من المذهل بالنسبة لي أن أجد تلك الجدية لا تزال موجودة في عالم آخر من عوالم الروح.

توقفت مارجريتا فجأة عن الكلام، وأمالت رأسها على جانب، وتطلعت في وجهي باهتمام، وقالت: آمل ألا أكون قد أثقلتُ كاهلك بأمور لا تشغلك؛ فليس هناك أسوأ من إجبار الناس على سماع ما لا يعني شيئًا بالنسبة لهم.

بدت للحظة وكأنها اكتشفت ظل الملل في ملامح وجهي.

لامستُ وجهي بأطراف أصابعي، كما لو كنتُ أتحقق من وجود مثل هذا الظل، ولكن الشيء الوحيد الذي شعرتُ به هو أطراف أصابعي الخشنة على ذقني وخدي.

قلتُ: لو رأيت شيئًا على وجهي إذن فهو التعب؛ لأنني لو كنت شعرتُ بالملل لكنتُ قد غادرتُ منذ فترة طويلة.

قالت مارجريتا: في هذه الحالة، أود أن أسمع تفسيرك لوجود الشر في العالم.

هززتُ كتفي، وقلتُ: إنه هنا، شأنه شأن أي شيء آخر، وإذا كان هناك تفسير لأمور أخرى؛ فالشيء نفسه ينطبق على الشر.

رفعت مارجريتا الكوب إلى شفتيها، وارتشفت رشفة صغيرة، وابتسمت ثم قالت: لقد لاحظتُ بالفعل مهارتك في التحدث دون أن تقول شيئًا، في حين تركت مساحة لمزيد من الدهاء، لتأكيد أو إنكار أو الانسحاب تمامًا من أي محادثة أخرى.

حان دوري الآن كي أبتسم، وأرفع الكوب نحو شفتي.

قلتُ بعد ذلك: لقد لاحظتُ أنك لم تستخدمي أبدًا كلمات أكثر من اللازم؛ فنحن نكمل بعضنا البعض بدرجة ما؛ لأنني استخدمت أكبر عدد من الكلمات، في حين استخدمت أنت أقل عدد ممكن، مما يعني، من الناحية الإحصائية، أننا استخدمنا في المتوسط نفس عدد الكلمات.

قالت مارجريتا: لن نصل أبدًا إلى أي شيء إذا تراجعنا في الألعاب اللغوية.

وافقتُها على ذلك، وأخذتُ رشفة أخرى من شاي الياسمين.

قالت: مشكلة الشر أن وجوده يشكك في تأكيد أن الله جيد، وقادر على كل شيء؛ لأنه إذا كان ذلك حقًّا؛ فلمَ يحتاج إلى خلق الشر بأي شكل من الأشكال؟

أجبتُ: ربما لم يقصد، وبدلاً من ذلك، حوّل الشر نفسه بنفسه إلى قوة معارضة للقوة التي قصدها الله للعالم والناس.

قالت مارجريتا: هناك مثل هذه التفسيرات في جميع الأديان، والعديد من الحاخامات، ومن بينهم تابعو القبالاه مثل موشيه حاييم لوزاتو، يرون أن الشر خُلق

openkanal.com

حتى يدفع فعل التغلب عليه الناس لفهم وحدانية الله.

تابعو القبالاه يحددون المكان الموجود داخل نظام الانبعاثات حيث يكمن مصدر الشر، هذا في انبعاثات "شيزيد" و"جيفوراه"، كما بيّنها الحاخام إسحق الأعمى.

مدّت يداها لتذكرني أن هذه الانبعاثات تتخذ عوالم يمين ويسار جسم الإنسان، وأن اللونين الأبيض والأحمر ملك لها، وهما ما تُطلق عليهما مارجريتا، لسبب ما، اللونين الغاضبين، وأضافت أن الفضة والذهب، أو الماء والنار، وجميعهم من الأضداد، ربما يشجعون التركيز على الشر من خلال احتكاكهم ببعضهم البعض.

قالت وهي تخفض يديها: عمومًا، مهما كانت مصادر الشر لا أحد يستطيع أن ينكر وجودها؛ لذلك فليس هناك جدوى لقضاء وقت طويل جدًّا ليعرف: من أين تأتي؟ وخاصة، إذا أُخذ المصدر كآدم، أو تذوقه لثمرة شجرة معرفة الخير والشر في جنة عدن.

وحتى لو أردنا ذلك، فلا نستطيع العودة في الوقت المناسب، ومنعه من فصل شجرة الحياة عن شجرة معرفة الخير والشر من خلال عمله، وبالتالي كان قطفه لثمرة الفاكهة بمثابة قطعه للخيط الذي يربط الفاكهة إلى مصدرها الأصلي، مما أدى، وفقًا لتابعي مذهب القبالاه، إلى خلق نوايا خبيثة في قلبه.

وبعد ذلك، وبعد تفكيك ما ينبغي أن يكون مترابطًا، أمكن للشر وبسهولة استخدام القناة المشكّلة حديثًا؛ ليتدفق إلى العالم، حيث واصل نموه بعد ذلك، وأنشأ نفسه كقوة مقابلة للخير، وقدّم نفسه، دون خجل، للجنس البشري، وحقه في الاختيار الحر.

قلتُ: لن أفهم أبدًا كيف يقوم شخص ما في مواجهة الاختيار بين الخير والشر باختيار الشر؟

أجابت مارجريتا - وأنا أيضًا -: لا يمكنني فهم ذلك، ولكن تبقى

obeikandi.com

حقيقة أن التاريخ البشري هو عبارة عن سلسلة من الخزي تنبع من الخيارات الخاطئة.

ارتشفت قليلاً من الشاي، ثم مسحت فمها، وكررت قائلة: إنه مهما كانت مسألة الشر مثيرة للاهتمام، ما يهمنا جميعًا في الواقع هنا هو: كيفية الرد عليه؟ وكيفية مواجهته؟ وأخيرًا، كيفية التغلب عليها.

سألتها وأنا أنظر في قدميها: عمّن تفكر فيه عندما قالت: «جميعًا هنا»؟

صمتت مارجريتا للحظة، وارتشفت رشفة أخرى من الشاي، وقالت: لنتحدث عن ذلك الأمر في وقت آخر.

رأيتُ خلف رأسها من خلال النافذة السماء، والتي بدأت تُضاء شيئًا فشيئًا.

تابعت مارجريتا قائلة: هناك من يرون أنه لا جدوى من الصراع مع الشر، والشعور بأن التركيز على القيام بالأعمال الصالحة هو فقط المطلوب، مما يؤدي إلى زيادة في كمية الخير، وتحرّر كامل من الشر، ويؤدي ذلك بالتالي إلى إنشاء عالم لا يوجد فيه سوى الخير، ولكن لا يحتوي حتى على الإرادة الحرة؛ فلن يعد الإنسان بحاجة إلى الاختيار.

لن يكون هناك مجال للاختيار؛ لأن كل ما سيفعله المرء سيكون خيرًا، وكل شخص سيكون شخصًا صالحًا، والعالم كله كذلك.

ثم تنهدت، وقالت: للأسف، في العصر الذي نعيش فيه إننا لا نملك رفاهية انتظار مجيء ذلك اليوم بصبر؛ لأن جنون الشر يزداد، ولم نعد نملك سوى الصراع مع الشر، ليس فقط بشكل فردي، كلٌ بقلبه، ولكن على نطاق أوسع، كما يتصارع أبناء الضوء مع أبناء الظلام.

سألتها: وماذا بعد؟ ألهذا علاقة بي؟

ترددت مارجريتا للحظة، ثم هزت رأسها كما لو كانت تقنع

نفسها بشيء ما، ثم قالت: لم يحن الوقت المناسب بعد للإجابة على هذا السؤال، ولكن سرعان ما ستأتي هذه اللحظة.

لم تذكر متى، لكنها وعدتني أنني لن أنتظر طويلاً.

تمسكتُ برأيي وقلتُ: إذن، هل يعني ذلك أن هناك تفسيراً لكل شيء يحدث لي؟

فأجابت مارجريتا: هناك دائمًا تفسير، لا يحدث شيء خارج الفيضان الأكبر للأشياء.

فقلتُ - بفروغ صبر -: أعرف ذلك، ولكن هناك طرق لتوجيه ذلك الفيضان، لتوجيه المرء إلى مسار حدده شخص آخر؛ ما يهمني هو حقيقة المسار.

لامست مارجريتا شفتيها المضمومتين بإصبعها، ثم واصل إصبعها طريقه ليلامس شفتي، ثم قالت: سيكون هناك وقت لذلك، فعليّ أولاً أن أختتم وصف الصراع بين الخير والشر الذي بدأته، ويجب عليّ إنهاؤه قبل البزوغ الكامل للفجر.

نظرنا إلى السماء الباهتة من خلال النافذة.

قالت مارجريتا: أيًّا كانت حقيقة الشر، مهما أصبح، فهو يتزايد باستمرار، مما يهدد بسحق كافة أشكال الخير الموجودة في العالم.

وفي خلال هذه العملية يتغذى الشر، إذا كان يمكن للمرء استخدام هذا المصطلح، على الأعمال الشريرة التي يقوم بها الناس، حتى ولو كانت أفكارهم الخبيثة، وخاصة أفكار ارتكاب الخطايا، وكلّما اكتسب الشر قوة انقطعت الرابطة بين أقل الانبعاثات والمُسماة بالمالخوت، أو المملكة، والانبعاثات الأخرى، ويؤدي ذلك إلى إعادة توجيه الانبثاق الإلهية لإشباع وزيادة الشر، في حين أن تُهدد الطبيعة الأنثوية، والمشار إليها بالشيخناة، وتُدفع بالقوة إلى المنفى، وعندما يتم ذلك نصبح

وحيدي الجانب، مجردين من ميزان المعارضات، كما نصبح فريسة سهلة للشر المندفع بقوة.

يصبح نظام الانبعاثات بأكمله مهددًا من القمة وحتى القاعدة، أو بعبارة أخرى، ينحرف العالم من قمة رأسه حتى أخمص قدميه.

ولمنع حدوث ذلك يجب على الشيخناة أن تصبح مرة أخرى جزءًا من نظام المعنى الإلهي؛ فيصبح للوجود المؤنث للواقع دور مساوي للوجود المذكر.

التفتت، ونظرت إلى السماء التي أصبحت مشرقة الآن.

قالت مارجريتا: حتى بالنسبة لنفسي أصبحت مثل شهر زاد، ولكن قصتي يجب أن تنتهي بطلوع الصباح.

قلتُ وأنا أنهض بصعوبة: إذا أمضينا ليلة أخرى ونحن مستيقظون، ستكونين بالفعل شهر زاد؛ فلستُ من النوع الذي يرغب في قطع رأسه، النوع الذي يجب أن يُصرف بعيدًا عن السيف.

لم تُجب مارجريتا؛ فالصباح على ما يبدو قد ساهم في تغييرها؛ فلم تعد ثرثارة، واختفت ابتسامتها، وغسلت الأكواب والملاعق على عجل، كانت تبدو كما لو أن جسدها كله قد أصبح متيبسًا، أصبحت رسمية.

وبينما أواصل حديثي بعد ذلك بقليل، ارتدت جوارب بيضاء.

وعندما رأيتُ اضطراب محاولاتي لإبقاء حديثنا مستمرًّا صمت أيضًا، وكان الاندفاع السريع نحو المصعد أمرًا محرجًا للغاية.

ليس هناك أمر غير طبيعي أكثر من شخصين يقفان بجانب بعضهما البعض، ويتلامسان تقريبًا، ولا يقولان شيئًا، ولكن يبحثان عن شيء ينظران إليه.

كم من الأماكن التي يمكن النظر إليها يمكن أن توجد في مقصورة

مصعد قذرة، وضيقة، ومغطاة برسومات الجرافيت؟! لم أستطع فهم التحول غير المتوقع لـ مارجريتا، رغم أنني قررت على الفور؛ لأن كلانا على ما يبدو كان يحدق في نفس الزاوية العليا لمقصورة المصعد، أنني لن ألقي بالاً لذلك.

حقيقة الأمر هي: إن عدد المجاهيل في معادلتي لم يقل عمّا كان عليه، ولكن ذلك لا يعني أنني تجرأت وسمحتُ له بالازدياد؛ ولذلك، ودون أن أبيّن أي شيء، ودّعتُ مارجريتا، رغم أنني لم أستطع مقاومة الالتفات لمعرفة الاتجاه الذي اتخذته لتبتعد عن الرصيف.

خطرت لي فكرة ملاحقتها، ولم يكن ذلك صعبًا، وربما تساعدني متابعتها على حل المشكلة التي لم ترغب مارجريتا في الحديث عنها، أي مسألة علاقة كل هذه الأحداث بي؛ ولكن بعد الهجوم الذي شنّته علي في تلك الليلة كانت متابعتها أمرًا مُهينًا للغاية.

فكرتُ، إذا قمت بذلك الآن؛ فيمكن أن أبقى لفترة أطول قليلاً؛ لذلك عدتُ إلى المنزل.

لو كنتُ أعرف فقط كم كان تقديري لاستمرارية ذلك بعيدًا لكنتُ قد انطلقتُ خلفها، مهما يكن.

أمّا الآن، بالطبع، فلقد فات الأوان، كما قلتُ، أو كتبتُ، لستُ متأكدًا؛ لأنني لاحظت في عدة مرات أنني كنتُ أتحدث إلى نفسي، حتى وأنا أجلس على الطاولة منكبًّا على الورق.

قرأتُ في مكان ما أن ذلك يُسمى باختلاط المستويات الحقيقية والخيالية، وأن هذا التنقّل بين ما هو حقيقي وما هو خيالي هو أكثر شيوعًا لدى الأطفال، مع عدم وضع المختلين عقليًّا في الحسبان.

إذا كان ذلك صحيحًا، آمل أنني أصبح طفلاً، وليس شخصًا ذا وعي مشوّش، رغم أنه لا يوجد فارق في كلتا الحالتين؛ فلا يوجد أي تغيير يمكنه أن يغير الماضي الذي جاء قبله.

اعتدتُ أن أفكر في ذلك بدرجة أكبر، وخاصة في الوقت الذي كرستُ فيه نفسي لدراسة كتاب التغيرات الصيني، وفعلت ما بوسعي كي أجد ترتيبًا للنجوم سداسية الشكل، والتي ستعدّني لاستقبال التغيّرات المستقبلية، بحيث إنها عندما تقع فلن أواجهها كتغيّرات ولكن كاستمرارية.

لا أذكر: ما إذا كنتُ قد وجدتُ أفضل ترتيب للنجوم سداسية الشكل أم لا؟ وعلى الأرجح لا؛ لأنني في الواقع لم أفهم أبدًا نظام الخطوط؛ الخطوط المتقطعة والمستقيمة تمامًا، كما لا أفهم انتظام الانبعاثات بشكل تام.

إذا كانت النجوم السداسية الصينية تمثل صورة للعالم، وإذا كانت انبعاثات مذهب "القبالاه" تمثل العالم أيضًا، فهل النجوم الصينية والانبعاثات تعكس نفس العالم؟ أم هل هذه العوالم مختلفة بحيث يمكن للمرء أن يقول وهو متأكد: من أن كل منا لديه العالم الخاص به، العالم الفريد الذي لا يتكرر في أي مكان؟ أعلم أن كل شيء في النهاية سيهبط، ويأتي إلى النقاء الأخلاقي، وأن بين التزاديك اليهودي والرجل الصيني المتفوق يمكن للمرء وضع علامة متساوية، ولكن ماذا عن جميعنا الذين لا ينالون هذه الفضائل العليا؟ لم تتح لي الفرصة أبدًا لمناقشة هذا مع مارجريتا؛ عندما ذهبتُ لتوجيه نفس السؤال إلى ياتشا ألاكالاي، علمتُ أنه يستعد لمعرض فني.

أخبرني في مرسمه بأن اللوحات التي سيعرضها هي التي قام برسمها خلال الأشهر القليلة الماضية، وأشار إلي أن معظمها مكرّس لموضوع سوء الفهم، والتحيّز العنصري.

حتى تلك اللحظة لم أكن أهتم اهتمامًا خاصًّا بعمله؛ لأن ما رأيته سابقًا لم يجذبني بشدة، وكان لا يزال مقتنعًا بأن انتماءنا للأجيال المختلفة، والمسترشدة بشاعريات مختلفة يجعلنا لا نمتلك شيئًا لنقدّمه لبعضنا البعض.

كان يرفض دائمًا ما بعد العصر الحديث بهز كتفيه، وبينما كنتُ مستعدًّا في أي لحظة لأقسم بما بعد العصر الحديث، سمعتُ، بنفس التعصب، مواقفه تجاه المشاركة السياسية والاجتماعية للفنان.

وبالتالي، لم تضل مناقشاتنا عن مذهب القبالاه والتصوّف الطريقَ إلى عوالم الفن والسياسة.

كان المعرض الفني شيئًا مختلفا للغاية، تمامًا كما كانت اللوحات التي عرضها علي مختلفة تمامًا عن انطباعاتي الساذجة، ومفاهيمي سيئة التصوّر.

وعلى عكس اللوحات السابقة، والتي كان الكثير منها تجريديًّا، والتي لا تشتمل على لوحات القبالاه القماشية التي رأيتُها خلال زيارتي الأولى، عانقت اللوحات الجديدة، والتي عرضها عليّ ياتشا واحدة تلو الأخرى، تضمنت التأثيرات والأنماط الأكثر تنوعًّا بشكل واضح إشارات مباشرة لأعمال أخرى، بدءًا من الانطباعية وصولاً إلى موسيقى البوب.

وبدلاً من الاتصال من خلال التعبير الأسلوبي، كانت اللوحات مترابطة بشكل واضح بواسطة الموضوع السياسي.

كانت لوحتان أو ثلاث عبارة عن إشارات إلى لوحات شهيرة للرسام ميتشا بوبوفيتش، في حين ظهر سلوبودان وميرا ميلوتشفيتش على هيئة اقتباس مباشر من أعمال وارهول التي تصوّر ماو ومارلين مونرو.

ما هو أكثر إثارة للاهتمام، بالنسبة لي على الأقل، هي اللوحات التي تستخدم تقنيات الإفراط في الواقعية، لستُ متأكدًا من المصدر للرد على التصاعد الأخير لمعاداة السامية.

أفترض أنها تستند إلى صور فوتوغرافية، رغم أنني لم أرَ الصور الأصلية أبدًا، عدا صورة واحدة.

على سبيل المثال، مجموعة من القوات شبه العسكرية تقف إلى

جانب شواهد قبور يهودية تم تخريبها، وتُمسك إحداها برأس بشرية مقطوعة.

لمستُ أن شواهد القبور المدمرة تم تصويرها في المقبرة اليهودية بـ»زيمون“؛ لم أكن أعرف: من أين أتت القوات شبه العسكرية؟

فلم تكن ترتدي شارات على ملابسهما أو زيها الرسمي، ولكن بغض النظر عن حقيقة شخصياتها في الصورة الأصلية، أشارت تهمة العنصرية والتعصب إلى العديد من القوات غير النظامية التي اشتركت في الحرب من مناطقنا.

صوّرت إحدى اللوحات الأخرى جزءًا من شعار مرسومًا على جدار المقبرة اليهودية بـ «بلغراد“، وأمامه مجموعة من الشبان أصحاب الشعر المقصوص جدًّا؛ بعضهم كان يهزأ بكراهية، ورفع آخرون أيديهم على سبيل التحية الشبيهة بتحية النازية، في حين لوّح آخرون براية، والمرسوم عليها علم القراصنة في الاتجاه المعاكس: جمجمة سوداء، وعظام فخذ متقاطعة على خلفية بيضاء.

كانت الصورة تبدو مألوفة؛ فلقد كانوا جماهير نادي لكرة القدم في مباراة في نهائيات الكأس، أو ربما مباريات تأهيلية لكأس العالم.

في هذه اللوحات، وفي غيرها أيضًا، كانت هناك رموز من رموز مذهب ”القبالاه“ هنا وهناك، وحروف عبرية وإضاءات من كتب قديمة، ونجوم سداسية، ومنورات، وميزوزات.

وفي الوقت نفسه، سكب ياتشا البراندي في كأسين، وشربنا النخب، ورفعناهما نحو اللوحات التي أصبحت، على حد قوله، جزءًا من العالم من خلال المعرض الفني.

شربنا على شرف المعرض، وعلى شرفه.

أضاف ياتشا: إنه مع كل لوحة من لوحاته نقصت قطعة من

نفسه، وبالتالي أصبح جزءًا من العالم يتضاءل شيئًا فشيئًا.

قال: إنه حينما جمع كل ما فعله حتى ذلك الحين، كان كل ما تبقى منه بعض الفتات، حفنة من الكسرات.

وتابع قائلاً: لا ينبغي أن ينادونني بـ ياتشا بعد الآن، ولكن ياتشا الصغير؛ فالمتبقي مني قليل للغاية.

ضحكتُ، لكنه كان جادًّا.

سألتُه: ماذا حدث؟ فمع اقتراب موعد المعرض ألا يجب أن تكون روحك المعنوية عالية؟ اتجه ياتشا نحو الطاولة، ونحَّى الأوراق والصحف جانبًا، وأعطاني ظرفًا مطويًّا.

كانت هناك رسالة مختصرة بداخل الظرف على ورقة حمراء بحروف مقطوعة من ورق الصحف: "لم يعد لديكم الكثير من الوقت، يهوذا!" لاحظتُ أن كل علامة من علامات التعجب الثلاث كانت مختلفة؛ فالعلامة الوسطى كانت أكثر سمكًا، أمّا العلامة اليُمنى فكانت أطول.

ليس من السهل العثور على علامات الترقيم الصحيحة في الصحف، كما سيؤيد أي شخص ذلك، باستثناء خرق القيل والقال مع تلك العناوين الطنانة، منجم ذهب من علامات الاستفهام والتعجب.

وإلى جانب ذلك، كان حجم الحروف في الرسائل غير مناسب على أي حال.

قلبتُ الورقة، لم يكن هناك شيء في الخلف، فقط نقط متفاوتة من الغراء في عدة أماكن.

قلتُ في البداية: إن هذا أمر مثير للسخرية.

ثم قلت: يجب أن نذهب إلى الشرطة.

فقال ياتشا: هراء، ماذا الذي يمكنها فعله تجاه ذلك؟

لم أجب؛ فيمكنني - بالكاد - الثناء على الشرطة التي كانت مهتمة فقط بدعم النظام الحاكم، وبدافع بقائها فقط، ولو فعلتُ ذلك سأخالف بذلك أفعالي.

عمومًا، لم أذهب إلى الشرطة عندما تم الاعتداء عليّ بالضرب، كما لم أتصل بها لتفحص ممسحة الأرجل المقرفة الملطخة بالباب أمام باب شقتي، وحرصتُ على أن أثني جاري من الاتصال بها من أجلي.

وفي المقابل، أرغب أحيانًا في غسل الدرج بأكمله؛ فالنظافة دائمًا مريحة للأعصاب.

سألتُ ياتشا: عمّا إذا كان أي من معارفه قد تلقى تهديدات مماثلة، إسحق أو ياكوف، أو ربما داتشا العجوز؟ ولكنه هز رأسه وقال: إذا كنتُ قد التزمتُ الصمت بشأن هذا الموضوع فلمَ سيقولون أي شيء؟

سألته: وماذا بعد؟ أريد أن أعرف.

هز ياتشا كتفيه، ثم قال: تهديد واحد بالقتل ليس نهاية العالم.

تُجرى استعدادات المعرض الفني بشكل سريع، والدليل تتم طباعته، وكذلك الدعوات، الحياة تستمر وليس هناك معنى لإيلاء اعتبار لذلك؛ فهكذا كان الحال دائمًا، وسيظل كذلك دائمًا.

وتابع ياتشا قائلاً: لقد كتب إسحق ليفي نص الدليل، ومن المقرر بدء المعرض يوم الثلاثاء القادم في المتحف التاريخي اليهودي.

ربما لا يكون ذلك المكان أفضل مكان ممكن.

ولكني سأتفق معه بالتأكيد على عدم وجود مكان أكثر ملائمة لمثل هذا المعرض.

وافقتُه، ثم ألهتنا كؤوسنا الممتلئة عن آخرها بالبراندي، وشربنا نخب ازدهار المتحف، ونجاح المعرض، والنقد الجيد، من أجل السلام على الأرض والتغيير السريع لحكومة بلادنا.

ومن أجل هذه الأمنية الأخيرة ملأ ياتشا كأسينا للمرة الثالثة، واعتبارًا من تلك اللحظة بدأت ذكرياتي تتلاشى، وبغض النظر عمّا أقوم به، لا يمكنني تركيز الاهتمام عليها.

أتذكر، وبصعوبة كبيرة، اللحظة التي غادرتُ فيها المبنى الذي يسكن فيه ياتشا لانتظار سيارة أجرة؛ نظرتُ إلى اليسار ثم إلى اليمين، ورغم أنني فعلتُ ذلك ببطء شديد؛ فالنظر على جانبي جعل رأسي يدور؛ فاضطررتُ إلى الجلوس، وجلستُ على أعلى درجة.

ظللتُ أعتقد أنني أسمع صوت حفيف أوراق الأشجار، رغم أنني كلّما نظرتُ إلى قمم الأشجار أرى الأوراق ثابتة في مكانها.

سألتُ سائق سيارة أجرة في وقت لاحق: هل هذا هو صوت الكحول الذي يجري في دمائي؟ حملق سائق سيارة الأجرة في وجهي بتجهُّم في المرآة الخلفية.

ربما كان خائفًا من أن أتقيأ على المقعد المجاور لي، وهو ما كان واردًا؛ لذلك، وفقط ليطمئن قلبي، فتحتُ النافذة، واستنشقتُ نفسًا عميقًا.

هناك جزء آخر تلاشى من ذاكرتي؛ لأن كل ما أتذكره هو: أنني كيف فتحت عيني فجأة؟ كيف نظرت إلى يد سائق سيارة الأجرة على ركبتي وهو يهزني؟ وكيف استوعبت كلماته شيئًا فشيئًا؟

دفعتُ له مقابل الركوب، وحاولتُ تقبيل يده التي مدها ليتناول المال، ثم خرجتُ من السيارة، وبعد ذلك أفرغتُ محتويات معدتي بجوار كشك يبيع الطوابع البريدية.

وبينما كانت القطرات الأخيرة تخرج من فمي اعتقدتُ أنني يجب أن أحضر معدات التنظيف الخاصة بي، وأن أعيد ترتيب كل شيء.

وظللتُ أكرر لنفسي: يجب ألا تنسَ قفازاتك البلاستيكية.

وبالطبع، وبمجرد أن خطوتُ إلى داخل الشقة، تلاشى كل ذلك من ذهني.

سقطتُ فجأة على الكرسي ذي الذراعين، وكنتُ لا أزال هناك عندما فتحت عيني في صباح اليوم التالي.

كان جسدي كلّه متيبسًا، وكنتُ أشعر بمذاق مثير للاشمئزاز في فمي، وألم في معدتي، وكانت أصابعي لزجة، كما كان هناك صداع يهدد بتفجير جمجمتي، وتحويلها إلى أشلاء.

أيقظتني أشعة الشمس، والتي وجدت طريقها إليّ بفضل نوافذ المباني المقابلة.

نظرت بعينين نصف مغمضتين في أشعة الشمس، وتجشأتُ، وتأوهتُ على أمل أن أبدأ بمعجزة في الشعور بالتحسّن مرة أخرى، ولكن آمالي كانت دون جدوى.

هناك أناس لا يعرفون حتى ما هو الخُمَار، ولكنني من النوع الذي يكون كل خُمَار لديه عبارة عن مرض، وعندما تمكنتُ في النهاية من الوقوف على قدمي ملأتُ زجاجة المياه الساخنة، وخلعتُ ملابسي، وزحفتُ نحو الفراش.

في اليوم التالي، قام ماركو بتوبيخي.

كانت هذه في الواقع محاضرته المفضلة عن استحالة التوفيق بين القنب والكحول، وأن الخُمَار والصداع اللذان أشعر بهما، واللذان جعلاني أفتح له الباب بعينين مغلقتين تقريبًا، هما دليل آخر على أنه على حق.

فوفقًا له، الأرض مقسمة إلى مناطق غير متساوية المساحة، والتي تتحكم فيها وسائل تغيير الوعي المتعددة: الشرق الأدنى، على سبيل المثال، هو منطقة الحشيش، والشرق الأقصى هو منطقة الأفيون، والكوكا في أمريكا الجنوبية، والكحول في أوروبا، والتبغ عند السكان الأصليين في أمريكا الشمالية.

ومع ذلك، لا تتطلب خلفية المرء بالضرورة تبني تفضيل منطقة جغرافية معينة، على العكس، وُلد كلٌّ منّا ولديه نزعة، وإذا كانت تلك النزعة ستوصل المرء بالقنب على سبيل المثال، إذن، فالمواد الأخرى لن تكون مثيرة للاهتمام.

وأوضح ماركو قائلاً: أثناء بحثك عن المادة الصحيحة جرّب موادًا مختلفة من المواد المسببة للهلوسة، وعندما تجد المادة الصحيحة تصبح جميع المواد الأخرى غير جذابة، أو قد تدمرك، مثل رد فعل المسكين تجاه البراندي الذي يقدمه ياتشا.

عرض عليّ علاجه للخُمَار: وكان عبارة عن سيجارة كبيرة من الماريجوانا، ولكني لوّحت بالرفض؛ فمجرد فكرة الدخان جعلتني أشعر باضطراب في معدتي، ولم أكن أرغب في اختبار ما سيفعله الدخان الحقيقي بي.

حلّ الصداع كحجاب على عيني، وشعرتُ أنني كنتُ أنظر إلى ماركو من خلال رموشي؛ فجفوني نصف مغلقة من مسافة بعيدة.

قال ماركو: حسنًا، لو لم تدخنها فسأدخنها أنا.

وأشعل السيجارة، ولوهلة اختفت رأسه وسط سحابة من الدخان.

أغلقتُ عيني، وسددتُ أنفي؛ فهذا هو السبيل الوحيد لحماية معدتي من الإغراء.

بل إنني حتى لويتُ رأسي إلى جانبي، وحاولت أن أجعل فمي

بعيدًا عن الدخان قدر الإمكان.

وفي النهاية، خشية استسلامي، ذهبتُ إلى المطبخ لأصنع بعض الشاي بالنعناع، ولكن بمجرد أن صنعته حدقتُ فقط في الكوب؛ فلم أكن أقوَ على رفعه إلى شفتي.

وفي الوقت نفسه، كان ماركو قد انتهى من سيجارته، وانضم إليّ على طاولة المطبخ.

كان من الواضح أنه قرأ الصحف في صباح ذلك اليوم، وأمطرني بتفاصيل دقيقة حول ما كان يحدث محليًّا وفي العالم.

لقد هدد أعضاء حلف الأطلسي مرة أخرى بقصف صربيٍّ إذا لم يكن هناك حل مقبول لأزمة كوسوفو؛ كان المارك الألماني لا يزال يوازي ستة دنانير، وهو تكلفة لتر من البنزين، وكانت مشكلة الكلاب الضالة تتصاعد؛ وتم العثور على جثة رجل غير معروف في شقة يرتادها المشردون في قلب "بلغراد"؛ وكانت استعدادات الاستفتاء جارية؛ ولم يكن الطقس مستقرًّا؛ وكان التجار الصينيون محتشدون في أسواق "بلغراد"، وطالب سائقو سيارات الأجرة بمرتبات أعلى، وكان هناك تهديدات بحدوث إضراب، والذي من شانه أن يشل المدينة، كما لو أن المدينة، كما قال ماركو، غير مشلولة بالفعل.

تمتلك الأخبار المحبطة أحيانًا تأثيرًا منعشًا، إن لم يكن لأي سبب آخر سوى أنك تدرك كم أن مشاكلك تافهة مقارنة بكل تلك المآسي والنكبات؛ لذا رفعتُ رأسي وارتشفتُ بعض الشاي، واستطعتُ في النهاية أن أرى ماركو بوضوح.

عرض ماركو بالطبع لف سيجارة أخرى، ولكن إصراري على الرفض فاجأني.

قال ماركو: حسنًا لقد جئتُ لأريك شيئًا، أو لكي آخذك إلى حيث أريك شيئًا؛ شيئًا أشعر أنك لا بد أن تراه؛ فهو مرتبط بشكل مباشر،

obeikandl.com

أو على الأقل قدر اعتقادي، بالأمور التي حدثت لك في الآونة الأخيرة، وحتى لو كان اعتقادي خاطئًا، وهو ما لم يكن مستحيلاً؛ فيمكن لأي شخص أن يخطىء، يهمني ما سأريك إياه، وعلينا أن نذهب في أقرب وقت ممكن.

ثم نهض ماركو، وهو ما كان أمرًا جيدًا؛ لأن الجمل المتشابكة - كالتي قالها - تستنزفه استنزافًا رهيبًا.

قلتُ: حسنًا، وذهبتُ إلى الحمام، واغتسلتُ، وتأكدتُ من أنني أبدو منهكًا، وغسلتُ أسناني، ووضعتُ غسولاً على خديّ، ثم عدتُ إلى المطبخ.

قلتُ لـ ماركو: أنا مستعد.

فنظر إليّ ببطء، وفجأة، وبمجرد أن رأيتُ عينيه المحتقنة بالدماء، فكرتُ أنه ينبغي ألا أثق به.

إنها لحظة رهيبة عندما تشك في شخص تعتقد أنه صاحبك المفضل، وخاصة عندما لا تكون أنت الذي يشكك في الحقائق التي يقولها، ولكن شيئًا ما بداخلك، إشارة صغيرة تحذرك، فتريد في البداية تجاهلها، وإقناع نفسك بأن كل ذلك خطأ، دائرة كهربائية قصيرة، اضطراب يرسلك إلى صورة خاطئة كالصورة التي تظهر بالمغايرة.

ولكنني كنتُ قد قررت بالفعل عدم إخبار ماركو بكل شيء، وخصوصًا عندما يتعلق الأمر بـ مارجريتا.

كان حدسي الآن يؤكد فقط شيئًا عرفه عقلي الباطن منذ فترة طويلة، كما يعرف كل شيء آخر، سواء ما حدث بالفعل، وما سيحدث.

لا أتحدث هنا حول المصير؛ فلا أؤمن به؛ فلقد كنتُ أفضل دائمًا فكرة الإرادة الحرة، وحرية الاختيار.

يقضي الأكفّاء حياة في كتابة مصير لن يتغير؛ فلم أجد مثل هذه

obeikandl.com

المفاهيم جذابة، لقد قلصتني إلى إنسان آلي يخوض الحياة ببساطة؛ ليعترف أنه ليس سوى حبة رمل تُزيحها الأحداث، والمجردة من أي معنى.

هناك عالم من علماء الأحياء، لا أذكر اسمه، أصاب كبد الحقيقة عندما قال: إن المصير لا وجود له، ولكنه محتوم بقضاء وقدر؛ فنحن خالقو مصيرنا، ولكن ما نختار فعله، لدى استعادة الأحداث الماضية، يصبح حتمية، ليس بسبب التدخل الإلهي، ولكن لأن الماضي لا يمكن تغييره.

يكفي ذلك.

انتظر ماركو بصبر حتى أستعد، ثم فرغ صبره؛ فظل يستعجلني، ويحثني على السير بشكل أسرع، كما أصبح عصبيًّا ومهتاجًا كما لو كان قد تشمم الكوكايين.

كان يأخذني مباشرة إلى عرين الأسد، أتذكر أنني كنتُ أفكر في ذلك آنذاك، رغم أنني يجب أن أضحك الآن؛ فلم يكن هناك أسود، ولم يكن المكان الذي ذهبنا إليه يشبه العرين.

كنتُ لا أزال مُصابا بالخُمَار، وكنتُ أشعر بأن معدتي كالبالون المنفوخ الذي أحمله على وتر فوق رأسي، وكان رأسي يرتج كلّما واجهنا ضوء الشمس الساطع.

أعترف أنني في الوقت نفسه كنتُ أفكر في كيفية الهرب لدى ظهور أدنى بادرة للخطر، وظللتُ أتخلّف بضع خطوات خلف ماركو.

أزعجه ذلك بالطبع، فكان يقبض على كوعي، ويجذبني إلى الأمام وهو يشتمني، رغم أنه لم يوضح ولو لمرة واحدة سبب هذه العجلة.

ومع ذلك تقدمنا، ومررنا بكلية الزراعة، ودخلنا حديقة المدينة، ثم غادرناها بالقرب من المستشفى، واتجهنا إلى شارع مؤدٍّ إلى الكُنيس.

ذات مرة منذ فترة طويلة، عندما أنشىء ملهى في ذلك المبنى ذهبتُ أنا وماركو للرقص هناك، وكما اعتدنا أن نقول آنذاك، وإيقاع فتاة في شباكنا.

خلال السنوات القليلة الماضية، كان هناك جدل عام بشأن الكُنيس؛ فلقد اتُّهمت السلطات المحلية في ذلك الوقت بالاستيلاء بشكل غير قانوني على المبنى، ولكن اتضح بعد ذلك أنه لم يكن هناك أي انتهاك للقانون، رغم أن قصة الفضيحة كانت تعود إلى الظهور من وقت لآخر، وهي مشوبة دائمًا بمعان سياسية.

لدى اقترابنا من المبنى تساءلتُ: ما الذي كان يدور بذهن ماركو؟ وهل عاد حنينية إلى الملهى؟ حيث اعتادت زوران مودلي أن تدير الدِّي جي، لو لم أكن مخطئًا، أم هي محاولة لجذبي إلى مناقشة سياسية ناهضة، ولكن اتّضح شيء مختلف تمامًا.

خطونا إلى داخل الفناء، ورغم أنه لم يكن مكانًا مغلقًا شعرت فيه باختلاف عن الشارع، كما لو أن الهواء أصبح أكثر كثافة، كلا، كما لو كان هناك شيء في الهواء، والذي لا يمكن الشعور به خارج تلك الرقعة، قدسية عظيمة، كما وصفها ماركو في وقت لاحق.

لقد فوجىء ماركو بأنني لم أشعر بذلك التغيير عندما دخلتُ فناء كُنيس "بلغراد"، رغم أن ذلك لا يعني شيئًا بالضرورة؛ لأن رد فعل كل من اتجه إلى قدسية مكان ما، على حد قوله، لا يلزم أن يكون متطابقًا دائمًا.

فعندما زار أديرة شهيرة كان نادرًا ما يشعر بشيء، في حين أن ضغط القدسية، من ناحية أخرى سيكون غير محتمل إلى حد كبير في كُنيسة صغيرة جاهزة للسقوط في قرية بعيدة.

قال: إن كل شيء يمكن تفسيره، وإن كل ما أحتاجه هو الإرادة للقيام بذلك.

كُنا نقف في الفناء تحت أشعة الشمس متزايدة الدفء، وكُنا ننظر إلى الكُنيس كما لو كُنا نتوقع مخاطبته إيانا.

كنتُ لا أزال أشعر بخفقان سريع في رأسي، ولكن الألم كان قد هدأ بشكل عام؛ فلقد كنتُ قادرًا على النظر إلى نافذة تعكس أشعة الشمس، ولم يصيبني الوهج بالغثيان.

ناداني ماركو؛ كي أقترب أكثر من المبنى، وأشار إلى صخرة منقوش عليها العدد ١٨٦٣م.

قال: إنه لم يكن متأكدًا مما يعنيه هذا العدد، ولكن ربما كان العام الذي تم خلاله إنشاء الكُنيس.

ركعتُ، ولمستُ العدد، كما لو كان بإمكانه أن يخبرني بشيء لو قمتُ بلمسه.

لم يقل العدد شيئًا، على العكس، لقد حكَّ جلد أطراف أصابعي بحوافه الخشنة.

ذكر ماركو أن مجموع أول رقمين هو تسعة، وكذلك مجموع الرقمين الآخرين، وأنه كان مقتنعًا بأن هناك ارتباط بين هذين المجموعين.

فكرتُ بـ دراغان ميستشوفيتش، ولكن لمَ يكون لكل مجموعة من الأرقام معنى إضافي خفي؟ ألا يمكن أن يكون العدد عددًا، ولا شيء أكثر من ذلك؟ كيف يمكن لكل رقم أن يبدو غامضًا، كما لو كان ممتلئًا برسائل سرية، في حين تبدو الكلمات وكأنها محاكاة ساخرة للواقع، وكلما زادت الكلمات أصبحت أكثر سخافة؟ ربما كان يجب أن أتساءل: كيف اكتشف ماركو ذلك العدد، ما الذي كان يبحث عنه في فناء الكُنيس، أو - من يدري - في المبنى؟ قال ماركو: لقد كنتُ سائرًا هنا ذات يوم، وفجأة بدا لي كما لو أن أحدهم يلوّح لي من وراء زاوية من زوايا المبنى.

obeikandi.com

فقلتُ، وتساءلت: ما إذا كنتُ أنا هذا الشخص؟

أجاب ماركو: بالضبط، كيف أمكنك تخمين ذلك؟

فأجبتُ: من غيري سيلوّح لك من فناء الكُنيس؟

على كل حال، ذهب إلى الفناء، ونظر وراء زاوية المبنى.

لم يكن هناك أحد.

لقد لاحظ الصخرة التي تحمل الأرقام، وانحنى ليلقي نظرة فاحصة عليها، ثم سمع صوتًا من وراء ظهره؛ فالتفت، ورأى امرأة عجوز متَّشحة بالسواد؛ لقد كانت حتى ترتدي قفازات سوداء من الدانتيل، وقبعة صغيرة ذات حجاب أسود قصير.

رفعت يدها، وأشارت إلى قمة الكُنيس، وقالت: هناك، عند المدخنة، يمكنك أن ترى ضوءًا في الليل، ويمكن لأولئك الذين يعرفون كيف يصغون أن يسمعوا قرعًا صخبًا، وكلمات مبتورة.

حاول ماركو أن يسأل عن تفاصيل، لكنها قالت: إن الضوء لا يشبه أي ضوء آخر؛ فهو يُضاء أحيانًا طوال الليل، وتصبح الأصوات عالية للغاية فلا يستطيع أحد النوم.

صمتت فجأة، وأشارت إلى سقف الكُنيس مرة أخرى، ثم غادرت بخطوات صغيرة سريعة.

فقلتُ: ولقد جئت في الليلة التالية لمعرفة ما يحدث، أليس كذلك؟

فأجاب ماركو: نعم، ولكني لم أرَ شيئًا، ولم أسمع شيئًا، بعض الضوضاء وهديل الحمام.

وما الذي يتوقعه مني الآن؟ أردتُ أن أعرف؛ فلدي ما يكفي من الأسرار في هذه اللحظة.

obeikandi.com

قلتُ: لا أعرف ما علاقتي بذلك؛ فلا أريد أن أضيف عبئًا آخر على أعبائي.

وإلى جانب ذلك، أليس هناك حانة هنا تظل مفتوحة حتى وقت متأخر من الليل؟ كل تلك الأصوات؛ الضجة، الجلبة، الضوء المرتعش، ألا يبدو ذلك الصوت وكأنه آت من حانة أو نادٍ يصدر الضوضاء والموسيقى؟ بالنسبة لسيدة ترتدي قفازات من الدانتيل الأسود، قد يبدو ذلك كعمل من أعمال الشيطان.

من الواضح أنني لم أستطع إقناعه؛ فلقد هز رأسه، ونظر بطرف عينيه، ومسح أنفه.

اقترحتُ أن نبحث عن مقهى؛ فوافق ماركو على كره.

حدّق في السقف، ووقف على رؤوس أصابعه، كما لو كان ذلك سيساعده على الوصول إلى العليّة.

انطلقنا عبر شارع "دوبروفاتشكا"، ولكن عند أول الزاوية التقينا صدفة برجل، رجل يعرفه ماركو، والذي كان من الواضح أن لديه اقتراحًا أكثر جاذبية بالنسبة لماركو من كوب من الكابتشينو؛ لأنه بعد التشاور لفترة قصيرة توجّها إلى اتجاه مختلف.

تُركت وحيدًا.

نظرتُ إلى اليسار ثم إلى اليمين، ثم التفت لأنظر ثانية إلى الكُنيس.

فكرتُ في قصة داتشا حول صنع الغولم، أو العثور على أي سلاح آخر من أسلحة "القبالاه"؛ ألا يمكن أن يكون هناك مكان أفضل لتلك المهمة بدلاً من الكُنيس اليهودي؟ ثم تذكرتُ فولف إينوخ، ناقل المياه، الذي مرّ عبر نفس هذه الأماكن منذ أكثر من مائتي سنة، وتغييره للأسماء بنفس الطريقة التي يغير بها شخص آخر القبعات.

ربما لا يزال يتجول باسم آخر ووظيفة أخرى.

قلتُ لنفسي: ماذا لو كنتُ أنا فولف إينوخ، وجعلتني هذه الفكرة أتوقف عن السير؟

قلتُ بصوت عال: أنا فولف إينوخ، ولم أشعر أنني لا أقول الحقيقة.

تابعتُ قائلاً: ولكن كيف يمكن أن أكون فولف إينوخ بينما أنا لستُ يهوديًّا؟

سألتُ نفسي: كيف يمكنك أن تعرف أنك لست يهوديًّا؟

وبينما كنتُ على وشك التلفّظ بالإجابة، لاحظتُ صبيًّا وفتاة صغيرين ينظران إلى وجهي، واللذين كانا ربما يشعران بالسعادة لرؤية رجل مجنون يتحدث إلى نفسه.

التفتُ، وبدأتُ في المشي.

كنتُ لا أعرف: لماذا أجري؟ ولكن عندما توقفتُ أصبح ذهني صافيا، وكأن كمية الأكسجين الزائدة التي دخلت إلى رئتي ودمي حينما كنتُ أجري قد امتصت كل أثر بأقل إزعاج الخُمَار؛ وليس فقط رأسي، بل أصبح بصري أكثر وضوحًا، أكثر دقة، بحيث رأيتُ كل شيء، كما يقولون، بوضوح كما لو كان كامنًا في راحة يدي.

ومع ذلك، كانت راحة يدي مبللة بالعرق، وكذلك جبهتي، وكانت رئتاي لا تزالان تلهثان من الجهد، وعضلات ساقي ترتجفان، وركبتاي تنثنيان بلطف.

نظرتُ حولي؛ لم أكن أعرف: أين أنا؟

لم أكن أعرف: كيف وصلتُ إلى هنا، وانتابني هاجس أن معرفة كيفية حدوث ذلك لا تهم؛ لأنني في الواقع فولف إينوخ.

كانت هناك سقيفة أدوات إلى يساري، وسور متهالك إلى يميني، ورياض معتنى به أمامي.

obeikandi.com

كنتُ واقفًا في الفناء الخلفي لأحد منازل "زيمون" القديمة، كان ذلك واضحًا بشدة، وكان كل ما عليّ معرفته هو: كيف وصلتُ إلى هنا إذا كنتُ قد وصلتُ إلى هنا؟

التفتُ مرة أخرى، ورأيتُ المنزل الذي ينتمي إليه الفناء الخلفي.

كان الباب مغلقًا، والستائر مسدلة، وكانت هناك مكنسة ومجرفة إلى جانب مجموعة من السلالم المتصدعة، وحوض غسيل مثقوب على سطح بيت الكلب الشاغر.

رأيتُ زوجًا من النعال القديمة، رغم أنني لم أستطع أن أحدد ما إذا كانت تتبع رجلاً أم امرأة.

وبينما لاحظتُ كل ذلك فُتح الباب، وظهر رجل عجوز يحمل خرقة في يده.

كان من الأرجح أن هذه الخرقة مخصصة لنفض الغبار؛ لأنه بمجرد أن فُتح الباب وأصدر صريرًا باعد الرجل يده، ونفض الخرقة.

وعندما رآني رفع يده الأخرى، ولوّح لي، كما لو كان الغرباء يدخلون إلى فناء منزله الخلفي كل يوم، ويسيرون الهوينا حول حديقته.

تبادلنا النظرات حتى هدأت أنفاسي.

هزّ الرجل خرقة الغبار، ثم اتجهتُ نحوه ببطء.

ومع ذلك، لم أستطع طوال الوقت أن أتخلص من الشعور بأنني نائم، وأن لا شيء من هذا يحدث في الواقع، ولكن عندما اقتربتُ إلى المنزل لم يختفِ الرجل العجوز كما يحدث في الحلم، ولكن على العكس نزل من الدرجات المتهالكة، ومد يده.

صافحته وأنا أتوقع ألا تلامس أصابعي سوى الهواء، ولكن يده كانت حقيقية ودافئة.

سألني: ما إذا كنتُ أرغب في الدخول؟

فأجبته: لا أدري؛ لأنني حقّا لا أدري؛ فلم يكن لدي أدنى فكرة عن كيفية وصولي إلى هنا، فكيف لي أن أعرف: ما الذي أرغب في القيام به الآن؟ كان الشيء الوحيد الذي أرغب فيه هو أن أسأل: أين كُنا؟ ولكني لم أكن أطيق طرح هذا السؤال؛ لأنني كنتُ، كالعادة، أشعر بالحرج بسبب جهلي؛ لذا وقفتُ هناك أمام الرجل العجوز مبتسمًا ومنتظرًا سؤاله التالي.

سألني الرجل العجوز: إن كنتُ أرغب في شرب شيء.

ظننتُ أن هذا يجب أن يكون حلمًا؛ ففي الأحلام فقط تحدث أشياء مثل هذه، ولكن إذا كان هذا حلمًا، كيف يمكن للنوم أن يغلبني في منتصف سيري؟ وإذا كنتُ حقًّا نائمًا، فهل عدتُ إلى هناك وأنا أزال أجري؟ كان الرجل العجوز مريضًا؛ فلقد فرك يديه مرتين أو ثلاث مرات، وعطس مرة واحدة، وحك جلده مرة واحدة، لكنه لم يستعجلني، كما لم يدفعني للإجابة.

قلتُ في النهاية: أشكرك، قليل من الماء.

صفق الرجل العجوز بيديه، وعاد إلى المنزل، وأغلق الباب، وسمعتُ صوت المفتاح وهو يدور.

كان يدعوني للدخول منذ دقيقة، والآن يفعل كل شيء، ويؤكد أنني لن أتبعه؛ لذلك وقفتُ هناك وانتظرته، وشعرتُ بالمزيد والمزيد من العطش.

لم يظهر الرجل العجوز مرة أخرى.

تذكرتُ فجأة المضخة الموجودة في الفناء في شارع "زماي جوفينا"، وأصبح العطش لا يُطاق.

صعدتُ الدرج وطرقتُ الباب.

obeikandl.com

لم يكن هناك صوت، حتى عندما ألصقتُ أذني بالسطح المتقشر.

طرقتُ مرة أخرى، وألصقتُ أذني أكثر بالباب، وظللتُ هناك حتى بدأت أذني تؤلمني ألمًا شديدًا.

قلتُ للباب: سأذهب الآن، وتراجعتُ إلى الخلف.

وعندما استدرتُ لأنزل الدرج، رأيتُ أنني كنت في حديقة من حدائق المدينة.

جلستُ على مقعد بالقرب من ملعب للأطفال، وتشمم كلب صغير ساق سروالي، وكانت هناك فتاتان تصنعان قلعة من الرمال، وانتظم سرب من الحمام على مسافة آمنة، وكان هناك امرأة على مقعد مجاور تطرز أو تحيك الكروشيه، لم أتأكد أبدًا من حقيقة أي شيء، وعندما نظرتُ إلى أعلى رأيتُ السماء الزرقاء والسحب المتموجة.

وإلى الآن، لم أستطع معرفة ما حدث فعلاً: هل مشيت؟ أم هل كنتُ جالسًا طوال الوقت على ذلك المقعد؟ وإذا كان الأمر كذلك، كيف وصلتُ إلى هناك؟ وهل حدث كل ذلك؛ لأنني، أو على الأقل شيء بداخلي، كان حقًّا فولف إينوخ؟ ولكن كيف أصبحت فولف إينوخ، ولم أنا من بين جميع الناس؟ ربما كان هذا هو سبب أنني وجدتُ نفسي فجأة محاصرًا بهذه الأحداث، كما سيقول ماركو، رغم عجزي عن تخليص نفسي منها جميعًا.

قال ماركو: الكون هو مكان غريب، وبه الكثير من الأشياء التي لا معنى لها، والتي لا تزعجنا أبدًا إلا عندما تجتاحنا بلادة الحس.

كنتُ أشعر دائمًا أن هذا كلامًا فارغًا يغذيه دخان القنب، ولكنني شهدتُ شخصيًّا كيف يمكن للفراغ أن يتحول امتلاء.

جلستُ على المقعد، وسألتُ نفسي: هل أقترب من المرأة التي كانت تحيك الكروشيه أو تطرز؟ وأسألها: عما إذا كانت تعرف كيف

وصلتُ إلى هنا؟

لم أفعل ذلك بالطبع، ولكن أمكنني أن أتصور كيف كانت ستنظر لي، ومن يدري، ربما لوّحت مهددة بإبرة الكروشيه، أو التطريز، أو أيًّا كان ما تحمله كسلاح لو فكرت أنني أهاجمها؛ لذا جلستُ هناك بهدوء، ونظرتُ من وقت لآخر إلى الغيوم، وانتظرتُ توقُّف عضلاتي عن الاهتزاز.

بحلول ذلك الوقت كان الكلب الصغير قد تشمم بالكامل العطر الكامن في ثنايا سروالي، وبدأ تشمم أشياء أخرى عن قرب.

كررتُ لنفسي: فولف إينوخ، ناقل المياه، وحاولتُ تخيل حقيقة عمله آنذاك.

هل كان يمتلك برميلاً يملؤه بالمياه، ثم يحمله على ظهره، ويتنقل من بيت إلى بيت؟ ومن أين كان يملؤه بالمياه؟ هل كان يحصل على أجر نظير مجهوده من المجتمع اليهودي بزيمون؟ أم كان يحصل على أجره من خلال قارورة المياه؟ أم الإناء؟ أم الحوض؟ حسب ما يصب المياه بداخله، في وقت لاحق بالطبع، حان موسم العلقيات، وعندما تذكرتها ارتجفتُ.

تكفيني ألماً نوعية شخصيتي، والآن يجب أن أصبح ناقلاً للمياه، وجامع علقيات، أيضًا.

ولم ينته الأمر عند ذلك كما تبيّن فيما بعد.

توقفتُ عند فناء كُنيس "بلغراد" صباح السبت، على أمل أن أجد داتشا هناك؛ فربما أعرف المزيد عن فولف إينوخ.

كان داتشا بالتأكيد هناك، كان يجلس على الطاولة، تحت الشجرة مرتديًا قبعته، وقال: إنه ينتظر اتصالي به منذ يومين، الآن، ولو لم آت ذلك الصباح كان سيخرج للبحث عني.

obeikandi.com

سألته: أين كنت ستبحث عني؛ فأنت لا تعرف أين أسكن؟

فأجاب: كنتُ سأبحث عنك حيث سأجدك.

ورفع قبعته، ومسح جبينه، ثم خفض القبعة على رأسه.

جلستُ على المقعد الآخر، أمامه مباشرة.

كانت الفتات مرئية على الطاولة، والمتروكة هناك بعد وجبة طعام.

قال داتشا: إن النجاح المتوّج في الانتفاضة الصربية الأولى هو الاستيلاء على "بلغراد"، كما سيؤكد أي مؤرخ ذلك، ولكن التاريخ يكون دائمًا بمثابة الأم للبعض، وزوجة الأب للبعض الآخر، وكان بمثابة زوجة الأب ليس فقط للعثمانيين، ولكن لليهود أيضًا، والذين تم اتهامهم بخدمة العثمانيين، وقُتل البعض بسبب ذلك، بينما عُمد البعض غصبًا، وسيق البعض عبر "زيمون".

والآن، هناك وثائق ورد فيها سليمان إينوخ معين باعتباره الشخص الذي جلب الفدية للمجموعة، والتي تألف معظمها من النساء والأطفال، رغم أنه في سجلات ذلك الوقت الخاصة بالعائلات اليهودية بـ «زيمون" ليس هناك ذكر لإينوخ واحد.

ومع ذلك، هناك جاكوب فولف، وهو أرمل، وتاجر للسلع المستخدمة، لكن لا يمكنه بالتأكيد القيام بهذا الدور؛ فقد قيل ذلك عن سليمان إينوخ في مكان ما، وحينما كان صغيرًا جدًّا، في حين أن هذا التاجر يجب أن يكون أكبر سنًّا لو كان لديه الوقت الكافي للزواج، ودفن زوجته للأسف، التي توفيت وهي شابة.

ثم تساءل داتشا: إذن من هو سليمان؟ وخلع قبعته، ونظر إليّ كما لو كنتُ أعرف الإجابة.

فقلتُ: لا أعرف.

فتابع داتشا: بالطبع لا تعرف، ولكن يمكننا أن نعتقد في إمكانية أنه ربما كان فولف إينوخ.

وأضاف وهو يرتدي قبعته مرة أخرى: أو أيًّا كان من يمثل جوهره.

رأى نظرتي الحائرة.

قال: أفكر في روحه بالطبع، ما الذي كنت تفكر به؟

أجبتُ: لا شيء؛ فلقد توقفتُ عن التفكير منذ فترة طويلة من الزمن.

ابتسم داتشا ابتسامة عريضة، وقال: لن ينفعك ذلك، وخصوصًا عندما أخبرك بشيء آخر.

انحنى نحوي كما لو كان سيخبرني بسر، فانحنيتُ نحوه وأنا أشعر بمؤامرة.

قال داتشا: في بداية الانتفاضة، عندما عبر الأب ماتيا نينادوفيتشسرا إلى "زيمون" كي يطلب مدفعًا من المطران يوفانيوفانوفيتش، كان هناك يهوديًّا متورطًا في كل هذا، كما كتب نينادوفيتش في رسالة، وهو رجل يدعى إينوخ، هذا اللعين البارع، رغم أن نينادوفيتش لم يحدد المجال الذي برع فيه.

يبدو أنه كان متورطًا في توريد مدفع ثانٍ، مدفع ساعد الأب لوكا لازاريفيتش على وصوله إلى صربيا، وهو ما كان غريبًا على حد قوله، فعلى الأقل لأن يهود "بلغراد" عانوا فيما بعد على يد من المتمردين الصِّرب، ولكن هكذا قال التاريخ، في لحظة واحدة تكون بالأعلى، على القمة، ثم تصبح بالأسفل، في القاع.

وهذا ما حدث في "بلغراد" أيضًا، حينما أمسك الأمير ميلوتش بزمام السلطة.

تحسنت أوضاع اليهود إذ منحهم الأمير كافة الحقوق المدنية طوال وجودهم بـ»زيمون“؛ أمّا في الإمبراطورية الأخرى، كانوا لا يزالون أشخاصًا غير مرغوب فيهم، وهو ما استمر لثلاثين عامًا آخر، أو نحو ذلك.

خلع قبعته، ومسح جبينه مرة أخرى، ثم قلب القبعة ووضعها على الطاولة، كما لو كان يتوقع سقوط قطعة من الفاكهة بداخلها.

نظرتُ إلى قمة الشجرة.

كان داتشا هادئًا، وكانت عيناه تغلقان؛ لذا سارعتُ إلى طرح السؤال الذي أتيتُ لأسأله إياه.

على أساس ما أخبرني به أستنتج أن فولف إينوخ لم يكن رجلاً واحدًا، بل عدة رجال، وإذا كان الأمر كذلك، كم من الأشخاص نتحدث عنهم؟ كلا، ليس هذا ما أردتُ أن أسأل عنه، فالعدد أصبح موضع نقاش في اللحظة التي تجاوز فيها الرقم «واحد».

سألته: ولكن أيمكنك أن تشرح لي كيف حدث ذلك؟ من كل هؤلاء الذين يحملون اسمي فولف وإينوخ في أماكن وأوقات مختلفة، وكيف تطور ناقلي المياه ليصبحوا مهربي أسلحة وذخيرة؟

انتصب داتشا حينما قلتُ هذا، وارتدى قبعته بسرعة ثم قال: أي مهربين؟ أي بنادق؟ لم يسبق أن قال أي شيء من هذا القبيل، وإذا كان فولف إينوخ قد قام بتهريب أي شيء؛ فلم تكن سوى العلقيات.

قلتُ: حسنا، العلقيات والبنادق لا يختلفان اختلافًا كبيرًا بوجه عام؛ فالاثنان يعيشان على إراقة الدماء، ولكن ما أود السؤال عنه بالفعل هو: أين فولف إينوخ الآن؟ اليوم؟ في هذه اللحظة؟

نهض داتشا، وفرد ذراعيه، ثم قال: لو أراد الله لنا أن نعرف كل شيء فلن نكون بحاجة إليه.

obeikandi.com

التفت وسار باتجاه البوابة، ثم انحنى بتردد كما لو كان يتفاوض مع سطح الفناء غير المستوي.

توقّف للحظة، وطلب مني من فوق كتفه ألا أنسى افتتاح معرض ياتشا الفني يوم الثلاثاء.

فأجبتُ: لا تقلق؛ فأنا أفكر بـ ياتشا حتى عندما لا أفكر به.

بقيتُ لفترة أطول تحت ظلال شجرة، ثم انطلقتُ للقيام بنزهتي المعتادة يوم السبت.

كانت هذه واحدة من طقوسي القليلة، أحد أشكال الروتين الحميمة التي تساعدنا، أو على الأقل تساعدني على الحفاظ على صحتي العقلية خلال السنوات الأخيرة في "بلغراد"، سنوات الجنون، كما يلقّبها أحد أصدقائي.

تمكّن ذلك الصديق من تنبيهي ولكنه لم ينبّه نفسه، وفي لحظة ألم وحيرة، في منتصف النهار، قفز من شرفة ناطحة سحاب جديدة بـ»بلغراد".

كانت رياح "كوتشافا" تهبُّ في ذلك الوقت، كما كانت تهبُّ بعد عدة أيام من دفنه، وأتذكر صوت امرأة تقول بنبرات خافتة: إن لم تنته تلك اللعنة فسأنتحر أنا أيضًا.

وفي غضون ذلك الوقت أخبرني شخص ما أن هناك طقوسًا هامة من أجل الحفاظ على مستوى معين من الحياة الطبيعية، ومنع المرء من الغرق في الكآبة واليأس.

لا أذكر من قال ذلك، ولكني أعرف أننا كُنا نتحدث عن الأنشطة العادية مثل: التنزّه، وزيارة المتاحف، وصالات العرض، وقراءة الكلاسيكيات، والاستماع إلى الموسيقى، أو - ولما لا - التنظيف الروتيني للشقة.

بدأ ذلك عندما بدأتُ نزهاتي المعتادة يوم السبت، والتي، خلافًا لنزهاتي الأخرى، لا تأخذني إلى رصيف الميناء.

كل يوم آخر ينتمي إلى نهر "الدانوب"؛ إمّا أيام أكتشف الأجزاء غير المشهورة من "زيمون" و"بلغراد"، وإما أسير أحيانًا إلى مناطق بعيدة نحو أطراف البلدة.

مشيتُ كرجل عجوز، قدم أمام الأخرى ويداي معقودتان خلف ظهري كالمتقاعد؛ كان لتلك النزهات تأثير مهدىء بشكل ملحوظ مثل – كما أخمن - الحركات المُمارسَة للفنون القتالية الشرقية.

لا أعتقد أن نزهاتي يمكن وصفها بأنها جزء من مخطوطات الساموراي، ولكن في سياق تلك النزهات تصبح حواسي أكثر نقاءً، وفي النهاية أشعرت بالهدوء المماثل لهدوء بوذا.

في ذلك السبت بالتحديد قررتُ السير عبر "كوسانتشي تشيف فيناك" والشوارع المجاورة.

هناك شيء مختلف في السير على حصى الرصيف مقارنة بالسير على الأرصفة؛ فالشخص الذي يسير على حصى الرصيف يكون أكثر وعيًا بجسده؛ يحافظ على إتزانه، وينسق تحركات جميع أطرافه.

كثير من الناس يسقطون أثناء سيرهم على الأسطح المرصوفة؛ فأعمدتهم الفقرية منحنية، وأرجلهم متزعزعة؛ لذا يسقطون بسهولة، ويصيبهم مزاج سيىء؛ أمّا على حصى الرصيف يكون الشخص رشيقًا دائمًا، مستعد لضبط خطوته، كما تكون روحه متأهبة ويقظة، وعينه حادة، وأذنه منسجمة، ومنخره مفتوح.

قلتُ لـ ماركو ذات مرة: على حصى الرصيف أكون صيادًا، أمّا على الرصيف فأنا مجرد فريسة.

آه، هكذا ضحك ماركو.

obeikandl.com

كُنا بالطبع أصغر سنّا حينذاك، ويسهل الضحك على الشباب، ولكن بمرور السنوات، غالبًا ما يخفي الضحك نفسه في سخرية وازدراء، وحذر وتهكُّم، واستخفاف وملابسات أخرى.

عندما تكون شابّا يكون من الأجمل أن تكون عاريًا؛ أمّا فيما بعد يكون خلع ملابسك شكلاً من أشكال العذاب؛ فليس من السهل مواجهة مخلوق في المرآة يحدق فيك.

لا أعرف: لمَ أفكر في هذا الآن؟

بالتأكيد لم أسر أبدًا عاريًا على حصى الرصيف بقضيب متمايل، بغض النظر عن كبر حجمه، سيثير على الأرجح سخرية بدلاً من استجابة للشهوة؛ لذا مشيتُ إلى "كوسانتشي تشيف فيناك"، وسرتُ إلى نهايته، ثم عدتُ بعد أن مررتُ بكلية اللاهوت مرتين.

اتجهتُ بعد ذلك إلى شارع "زادارسكا"، ثم إلى "سريبرينيتشكا"، ثم نزلتُ الدرج وصولاً إلى محطة الحافلات عند سفح الجسر.

كرهتُ الحافلات والحشود المتزاحمة، ولكن لم يكن لدي الكثير من الخيارات، أو في الواقع كان ما لا أملكه هو المال؛ لذلك كان ركوب سيارة أجرة أمرًا غير وارد، وكذلك السير على طول الطريق حتى "زيمون".

قلتُ لنفسي: لقد حان وقت كتابة مقال جديد لـ"لدقيقة".

لم أكن أعرف أنه سيكون مقالي الأخير؛ فما أكتبه الآن بالطبع لا يُحسب؛ فهو ليس مقالاً كبقية المقالات؛ إنه همسة في الظلام من نافذتي، ظلام كثيف للغاية فلا يمكن لأي ضوء اختراقه؛ لذا وقفتُ إلى جانب نافذة مفتوحة، ونطقتُ بالكلمات، وشاهدتها تشق طريقها كشامة الخلد عبر الظلام.

عضضتُ لساني حتى قبل أن أنتهي من تلك الجملة؛ ليس لأنني

أكره فكرة أن كلماتي عمياء، ولكن لأنني تذكرت أنني قد ساعدتُ أحد الجيران منذ سنوات، والذي يمتلك منزل، ويقضي عطلة نهاية الأسبوع مباشرة خارج "بلغراد"، على التخلص من شامات_الخلد.

سكب ماء في أحد طرفي نفق تحت الأرض، وانتظرتُ أنا في الطرف الآخر ممسكًا بمجرفة في يدي، وضربتُ بها كل شامات الخلد، التي ظهرت حتى أصبحت مجرفة دموية.

كُنا نضحك ونحن نفعل ذلك، بل إننا حتى التقطنا صورًا لأنفسنا مع كل تلك الأجسام الصغيرة المسحوقة؛ التقط صورة لي أولاً، ثم التقطتُ صورة له، ولا شك أن تلك الصور لا تزال موجودة في مكان ما.

فمن المؤكد أن يؤيدنا أي شخص فيما سنفضل بشدة عدم الاحتفاظ به.

سأفتح صحيفة يومًا ما، وسأرى تلك الصور في الصفحة الأولى، سأرى وجهي مبتسمًا ابتسامة انتصار إلى جانب شامات الخلد المبتورة، وسأعرف أن العالم كله، بالإضافة إليّ، سيشعر بالرعب من قسوتي، رغم حقيقة أن شامات الخلد تعد آفة عادية.

حسنًا، سأستخدم إذن مقارنة مختلفة، وأقول: إن كلماتي تشق طريقها خلال الظلام كنازعة السدادات خلال الفلين، رغم أن الكلمات تبدو وكأنها مقيدة بواسطة خيوط بمن يقولها، كما لو كان ذلك الشخص يمكنه بسهولة، كلّما رغب، انتزاعها وإعادتها إلى أحضانه.

لا يبعد شيء عن الحقيقة؛ لأن الكلمات لن تعود أبدًا بمجرد أن تغامر بالدخول إلى الظلام، حتى عندما يكون الضوء ساطعًا بأقصى قدر ممكن.

لا أعرف بالضبط إلى أين تذهب.

ربما تكون هناك مقبرة للكلمات في مكان ما، لن أفاجأ بذلك؛ فليس

obeikandl.com

لدي المزيد من الوقت للمفاجأة.

ليس لدي المزيد من الوقت.

إن وجودك على قيد الحياة هو أن تظل مندهشًا باستمرار من الحياة نفسها، وبمجرد أن تزول الدهشة، تزول الحياة أيضًا.

النص ليس حياة، أليس كذلك؟ لا جدوى من تنصيب أذني للاستماع: لن يخبرني أحد هنا بشيء، والظلام لا يمتلك أبدًا أي إجابات على أي حال.

يمكنني الجلوس مرة أخرى على الطاولة، والإمساك بكوب من الماء، كما لو كان ذلك من شأنه أن يبقيني طافيًا.

في تلك الليلة، الليلة التي تَلَت لقائي مع داتشا والنزهة على طول "كوسانتشي تشيف فيناك"، لم أستطع النوم.

لقد حدث ذلك لي من قبل، ولم يكن هناك ما يدعو للقلق، يمكنني تفسير ذلك: بالأرق، عدم الأمان، الشك، الجهل، ويمكنني الاستلقاء هناك على أمل أن أغفو في وقت ما.

استلقيتُ على ظهري، وعقدت يدي خلف رأسي، وتنفّستُ بعمق، وحدقتُ في السقف المرئي بالكاد في الظلام.

فعلتُ ما بوسعي مرة أخرى لاستعادة السيطرة على نفسي، وإيجاد إجابة لما حدث في حياتي على مدى الأسابيع القليلة الماضية، ولكني ظللتُ أعود إلى الأسئلة.

هل حاول شخص ما حقًّا أن يصنع غولم في "بلغراد"؟ وهل هذه النية كانت تتعلق بطريقة أو بأخرى بالمجموعة التي كانت تقف على التل الصناعي السخيف عند فندق "يوغوسلافيا"؟ وما هو دور فولف إينوخ في كل ذلك؟ هذا إذا ما كان متورطًا بالفعل، أثارت فكرة إينوخ أعصابي، كما لو كان شخص ما يتمدد بداخلي، ينهض لمعرفة من

يستدعيه.

كان رد فعلي هذه المرة أكثر هدوءًا تجاه احتمالية أنني قد أكون فولف إينوخ، قد يكون تنفسي قد تسارع لبضع دقائق، ولكن هذا كل ما حدث.

مارجريتا، لم يمكنني نسيانها، ولن أنساها أبدًا.

استشعرتُ بياض فخذها، ثم قدمها العارية، لكنني اضطررتُ لبذل جهد لتذكر وجهها.

ثم رأيتُ فخذها مرة أخرى، وشعرتُ بقضيبي ينتصب حتى وصل إلى بطني كالشريط الفاصل.

فكرتُ في أنه كان ينبغي علي الاتصال بها.

لم أتحرك.

ارتعدتُ، وحدقتُ في الظلام، وانتظرتُ تراجع الدماء إلي من نسيجي الإسفنجي.

كانت تلك هي المرة الأولى التي أظن فيها أن مارجريتا قد تكون هي الشيخناه بالفعل، الوجود الأنثوي للإلهية، المقترن بالانبعاث العاشر، المملكة، الواقع على خريطة جسم الإنسان في أخمص القدمين.

ألم تكن مارجريتا حافية القدمين أثناء حديثنا في شقة البناية الشاهقة بـ»زيمون“، ولكن حتى لو كانت كذلك، هل يعني ذلك شيئًا حقًّا؛ فالناس يسيرون حفاة الأقدام بشكل عام؛ لأنهم يرغبون في ذلك، وليس لأنهم يقصدون نقش أجزاء من رسالة سرية على وعي شخص ما.

تتطلب الأوقات التي نعيشها ملاذًا بعيدًا عن الواقع، والذي يمكن العثور عليه فقط من خلال عيش الحياة اليومية في الخيال أو من

خلال دراسة معاني الواقع.

فكرتُ في أنني إذا استمريتُ على هذا المنوال فلن أنام أبدًا.

كان قضيبي آنذاك قد تراجع، وتجعّد كجرو بضجر من مطاردة القطط.

لمسته بأطراف أصابعي، رفع رأسه بكسل، ثم انخفض مرة أخرى على يدي المعقودتين.

قلتُ: جيد، فلقد نمت أنت على الأقل.

بدا صوتي أجوفًا في الظلام، مثل أي صوت يعرف أنه لا ينتظر جوابًا.

بدأت أجفاني تتدلى، واسترخت رأسي على الوسادة، وتثاقلت أطرافي، فأمكنني أن أقول لنفسي: إنني على وشك النوم أخيرًا، وبالطبع، في اللحظة التي لاح هذا الخاطر في ذهني انفتحت عيناي، وحدق السقف في وجهي، وعرفتُ بما لا يدع مجالاً للشك أنني سأقوم بتحية الصباح.

عندما أفكر في ذلك الآن، أندهش من قدرة أي شخص على النوم أساسًا في تلك الأيام، أو بالأحرى، في تلك الليالي.

لقد وصل الواقع إلى درجة قبح كبيرة؛ كُنا نعيش في ظل ديكتاتورية تتظاهر بالديمقراطية، والذي كانت تغلق أبوابها بإحكام أكثر مما مضى أمام كل من يجرؤ على التلفُّظ برأي مخالف.

كانت الفجوة بين الحكومة الساخرة المهووسة بالممتلكات المادية والسكان المدفوعون إلى الكآبة والفقر أعمق من جراند كانيون، وكان الشعور بالعجز عن تغيير أي شيء يلتهم الناس كقرحة المعدة.

لا يمكنك أن ترى كل ذلك في "بلغراد" بعد، ولكن هناك ظلام حقيقي سائد سيقلب صربيا، سواء ظلام روحي أو خلاف ذلك.

أزعجتني تلك الأفكار كثيرًا؛ لذا نهضتُ ومشيتُ في جميع أنحاء

الشقة.

لم أشعل الأضواء؛ لقد مشيتُ متثاقلاً، ولكني لم أكن حافي القدمين كـ مارجريتا، بل كنتُ أرتدي نعالاً لينة، حتى وصلتُ إلى المكتب، والمخطوطة التي تذكرتُ أنني لم أطالعها منذ فترة طويلة، طويلة للغاية، في الواقع، لدرجة أنني شعرتُ بأنني لم أقرأها على الإطلاق.

عدتُ إلى الفراش، وأشعلتُ الأنوار، وفتحتُ الصفحة رقم ١، وقرأتُ مرة أخرى المكتوب على الصفحة المقابلة: (حلم غير مفسر كرسالة غير مقروؤة).

قاومتُ إغراء النظر مرة أخرى إلى الصفحات التي حلمتُ بها؛ فانتقلتُ مباشرة إلى الصفحة رقم ٢٢٣.

في أعلى الصفحة، كانت هناك جملة: (انتهى الأمر مع الروح، رغم أنه تجدر الإشارة إلى أن روح يهودي متوفٍ لن تتوقف عن الارتحال حتى تلبي جميع الأوامر، وتحصل على نظرة ثاقبة على العديد من الأسرار الخفية في التوراة).

وتابعت المخطوطة قائلة: (من يعرفون أن هناك ستمائة وثلاث عشر وصية في التوراة، منها مائتين وثمان وأربعين وصية إيجابية، وثلاثمائة وخمسة وستين وصية سلبية، والتي - كما هو مُعتَقد - تتوافق مع عدد مائتين وثمان وأربعين عظمة، وثلاثمائة وخمسة وستين وترًا في جسم الإنسان، وبالتالي فهم يعلمون أن جسم الإنسان الذي يتوافق مع جميع الوصايا يشبه التوراة نفسها، أو أن من يصل إلى الكمال الروحي يخلق، ويكرر نموذج الله بداخله.

بعبارة أخرى، من يحقق هذا؟ من يتوهج جسده بضوء سماوي يسمح للشيخناه بأن تسكن بداخله؟

لن يكون هناك المزيد من الحديث حول موضوع الشيخناه؛ لأن المرء قد يفترض أن الوصول إليها أمر سهل، واضعًا فكرة ناقل المياه

في اعتباره، ولكن تلك هي مهمة لا تُقاس بالمشقة أو بالتعقيد، ولكن بالطريقة التي تُنفذ بها؛ شخص يحمل الماء قد يفعل ذلك بتفانٍ أكثر من المعلم الذي يسعى إلى وظيفته السامية بتقاعس.

ينبغي أن نضيف هنا أن الحاخام حاييم فيتال وضع تعليماته بشأن كيفية دخول روح أو اثنين أو ثلاثة أو أربعة إلى جسد واحد، ولكن العدد لن يتجاوز أبدًا أربعة).

وقفتُ هنا؛ فالمقطع التالي - من خلال حكمي على الجملة الافتتاحية - كان يتحدث عن إشعال شموع يوم السبت، وتلك مهارة لم أكن بحاجة إليها.

أعدتُ قراءة الفقرة المكتوبة في الجزء العلوي من الصفحة؛ فالعلاقة بين ارتحال الأرواح وتنفيذ وصايا التوراة تسهل معرفتها، رغم أنني لم أستطع أن أعرف: لِمَ انتهت هذه الفقرة بكلمات حاييم فيتال؟

أربعة أرواح في جسد واحد، هذا المفهوم لم يخطر ببالي مطلقًا؛ فلو كان الأمر كذلك فأنا غير موفق بروح واحدة، إذن ماذا سأفعل بعدة أرواح؟ ومع ذلك، كنتُ حائرًا للغاية بشأن الجملة التي إلى وصف أكمل للشيخناه، وناقل المياه الذي يمكن ألا يكون سوى فولف إينوخ.

ربما يقصده فيتال بإشارته؟ ذُكر أيضًا أنه كان من السهل عليه، أي ناقل المياه، الوصول إلى الشيخناه، أيًّا كان ما يعنيه هذا المصطلح، في حين حُذِّر القارىء أن الطريق ليس سهلاً.

كيف استطاع ناقل المياه تحقيق ذلك إذن؟ أكان يحمل نيرابدلاء أم أكان يناور بعربة يدوية ذات برميل؟ أم أكان يجر أباريق وأوعية القرع الممتلئة بالمياه؟ عدتُ إلى الصفحة السابقة، وبالطبع، وكما خمَّنت، في تلك الصفحة، رغم أنها تحمل رقم ٢٢٢، لم يكن هناك أي حديث عن الروح، أو الشيخناه أو ناقل المياه؛ على العكس كان معظمها يدور حول بناء كنيس السفارديم فيزيمون؛ تم وضع حجر

الزاوية عام ١٨٧١م، وتم بناؤه وفقًا لخرائط جوزيف ماركس.

قيل في ختام الصفحة: إن الكنيس تم تدميره أثناء قصف قوات التحالف عام ١٩٤٤م، ولم يُعاد بناؤه، لقد سُويَ في الواقع بالأرض ما عدا كسرات صغيرة بالقرب من البئر، بالنسبة لأولئك القادرين على رؤيتها.

اعتقدتُ أنني ينبغي أن أنحي هذه المخطوطة جانبًا؛ لأنني إذا صادفتُ إشارة أخرى أكثر غموضًا سيصبح الأرق الذي أعانيه مزمنًا، ولن أغمض عيني مرة أخرى.

حتى تلك النقطة فهمتُ أن عنوان المخطوطة رمزيًّا، وأن المخطوطة هي عبارة عن ينبوع نسكنه جميعًا، العالم بأسره، ويجب عليّ الآن أن ننسى تلك الفكرة، وأن أقبل فكرة أن هناك ينبوعًا في مكان ما، والذي أتت منه، وتتجه إليه تلك المخطوطة.

بدأ ضوء الصباح الشاحب يتسلل ببطء من خلال النافذة، كما لو كان يساعدني في تسليط الضوء على الكلمات التي تجذبني إلى أعماق البئر.

وا حسرتاه! هناك ضوء يحجب بدلاً من أن يضيء.

لم يعد هناك سبب للبقاء في الفراش.

نهضتُ، وسويتُ الفراش، وصنعتُ القهوة.

لم أشعر برغبة في الذهاب لإحضار الجريدة؛ لأنني أعرف ما يمكن توقعه؛ فستعلن صحيفة النظام بقوة عن الاستفتاء في حين ستقوم صحيفة المعارضة بالسخرية من الاستفتاء، مما يعني أنني، بغض النظر عن توجهي السياسي، سأقرأ نفس القصة المروية فقط من زوايا مختلفة.

كان ذلك عندما تذكرت أنه منذ أكثر من ثلاثين عامًا، نشر فيليب

obeikandi.com

ديفيد مجموعة قصصية تُسمى "بئر الغابة المظلمة".

كانت قصصه مليئة بموضوعات "القبالاه": اعتقدتُ أنه ربما كان يعرف شيئًا عن الآبار، أو ربما يكون بئره هو البئر الذي أسعى إليه؟ قلتُ بصوت عالٍ: هُراء! لقد بدأتُ أن أتصرف كزوريمهووس بفكرة المؤامرات.

الكلمات ترن في الغرفة، وترتد من على الجدران والنوافذ، وتقع على الأرض - كما تفعل هنا - عندما أتوقف عن الكتابة، وأبدأ في التحدُّث إلى نفسي.

في بعض الأحيان، توجد الكثير من الكلمات على الأرض، ويكون لزامًا عليّ رفع قدمي عاليًا أثناء عبوري هذه الغرفة قليلة الأثاث من طرف لآخر.

خطر لي أنني يمكن أن أنزلق يومًا ما على كلمة مسحوقة فأسقط وأستقر هناك، مدفونًا أسفل مخلفات اللغة، ولن يعثر عليّ أحد حتى نبدأ في التحلل، أنا والكلمات، جثة إلى جانب الجثث الأخرى.

قلتُ لنفسي: إنني كان يجب أن أصنع قهوة أكثر تركيزًا؛ حتى تكون أفكاري أكثر تفاؤلاً، رغم أن الكلمات ربما لا تملك شيئًا لتفعله حيال ذلك، وكذلك قلة النوم؛ فاليوم ببساطة هو يوم الأحد، يوم بلا مستقبل، كما كتب راتشا ليفادا منذ عدة سنوات.

هل كتب قصيدة عن كُنيس "زيمون"؟ أو عن الحاخام يهودا ألكالاي، جد الصهيونية؟ أو ربما عن مصير يهود "زيمون"؟ أو شيء من هذا القبيل؟ الآن، وفقًا لمنطق جنون العظمة، يجب أن أجده وأسأله عن البئر، أو من الأفضل عن الأصوات والأضواء التي تنبعث من علية الكُنيس، أو عن ناقل المياه.

هُراء! هُراء!هُراء! كررتُها ثم ارتشفتُ قليل من القهوة، ثم أغلقتُ عيني، وأسندتُ رأسي على يدي.

يجب أن أعترف أنه لا يهم ما هو يوم الأسبوع؛ الأحد، أو الثلاثاء، أو الأربعاء، أو السبت، لن يفيد التقويم؛ لقد وصلتُ إلى طريق مسدود.

العالم، أو هكذا بدا آنذاك، كان بلا نهاية.

بدا كذلك آنذاك، ويبدو هكذا الآن، لم يتغير شيء في هذا الصدد.

إنني بعيد عن كل ذلك، ولكني أشعر من وقت لآخر كما لو أنني لم أقترب أبدًا.

باختصار، أفكر أكثر وأكثر عن طفولتي، عن لحظات السعادة القليلة، على سبيل المثال عندما تناولتُ بودنج الأرز مع التوت في مطعم يُسمى "زدرافلياك"، أو شيء من هذا القبيل، عند مدخل سوق "زيمون"، أو عندما تناولتُ تشيفابيتشي تشي في السنترال، في حين كانت هناك موسيقى، والتي لم يعد بإمكاني تذكرها؛ لأنها على الأرجح قديمة، تنطلق من مسرح صغير.

قرأتُ في مكان ما، من يدري أين، أن ذكريات الطفولة تتضاعف كلّما شارفت الحياة على النهاية، وكلّما اقتربت أكثر تعددت الذكريات، كما لو كُنا نحاول أن نبطىء مرور الوقت، والبقاء على ذلك الشاطىء لفترة أطول قليلاً.

وعلى الشاطىء الآخر، في نهاية المطاف، سنقضي حياتنا بأكملها، كما قلتُ تقريبًا، عندما يكون موتنا كله هو ما سنقضيه هناك.

إنني متعب، من يدري ما أقوله أو أكتبه، ولكني عن نفسي لاحظتُ سخافة الانتقال السريع من التوت إلى الكمال السماوي.

لم يساهم أي من هذا في تأملاتي بشأن البئر، وهنا وصلتُ إلى طريق مسدود، حتى قال ماركو في محادثة هاتفية في وقت لاحق بعد ظهر ذلك اليوم: إنني يجب أن أفكر في البئر كما لو كان جسدي.

قال ماركو: إن جسدك كالبئر، إذا ألقيت قطعة نقود فيه فستسمع

بعد فترة طويلة من الصمت صوت ارتطامه بسطح الماء، وهو نفس الصوت الذي ستسمعه إذا أسقطت عملة في بئر حقيقية.

يمكنك أن تتمنى نفس الأمنية، والتي لن تتحقق أبدًا بأكثر من تحقق أمنيتك عند بئر حقيقية.

قلت لنفسي بنبرة تأنيب: نعم، يجب أن أكون قد فكرت في ذلك.

أعتقد أن مارجريتا أخبرتني بشيء من هذا القبيل، رغم أنها لم تقارن جسدي ببئر، بل إلى شجرة كونية مليئة بالانبعاثات.

انتهى الأمر إلى نفس النتيجة؛ لأنه إذا توافق جسدنا مع نظام الكون الكامل؛ فلمَ لا يتوافق مع بئر؟ لم يمنحني هذا جوابًا على سؤال: أين يقع البئر؟ أو عن سؤال: كيف يمكن للمرء أن يعرف طريقه؟

لن تفلح قفزة من ارتفاع كبير، وبقدر ما أذكر، لم يكن هناك أي ذكر لأي درج في المخطوطة.

قال ماركو: إن الدرج هو عبارة عن نظام من التمرينات لتحقيق هدف ما في نظام ديني أو صوفي محدد.

فأغلقت الخط تقريبًا في وجهه.

يمثل الدرج بالطبع نظامًا تصاعديًّا أو تنازليًّا، ولم يمكنه أن يعتقد أنني سأحمل سلّمًا صريحًا على كتفي، مثل منظف المداخن، وأتسلق بجهد حتى أصل إلى السقف.

هذا يذكّرني، لقد رأيتُ منظف مداخن بالأمس هنا؛ فقد كانت له هيئة منظفي المداخن، أسخم، ذو قبعة سوداء أنيقة، ولمعت أسنانه وهو يتحدث إلى مالكة العقار الذي أسكن فيه كعاج مصقول.

وصلتُ بسرعة للزر، ثم أدركت أنه لم يكن هناك زر واحد في الملابس التي كنتُ أرتديها: تي شيرت بأكمام طويلة، وقميص أزرق

ثقيل، مسحوبًا عند الرأس، وسوستة في السروال الجينز، وأربطة الحذاء لا تهم على أي حال؛ لذا وقفتُ هناك عند النافذة، وضربت بشكل محموم على جسدي، وتساءلتُ: ما إذا كان لدي الوقت لخلع قميصي الثقيل وارتداء آخر بأزرار؟ ولكن بحلول ذلك الوقت، كان حديث منظف المداخن مع مالكة العقار الذي أسكن فيه قد انتهى، وكان يسير بعيدًا وهو يلقي تحية مازحة.

تدلى شريط أحمر من الدرجة العليا لسلّمه، وربما كانت تحذيرًا للمارة والسيارات، وبينما أتابعه وهو يغادر قلتُ لنفسي: إن سعادتي - أيضًا - ترحل، إلى غير رجعة، ولكنها تعود مرة أخرى إلى البئر.

لقد كانت واحدة من تلك الأشياء التي كلّما تقترب إليها تبتعد عنك.

ولحسن الحظ، لم يكن هذا عطشًا حقيقيًّا؛ لأنني لن أحصل أبدًا على شربة من المياه العذبة في ذلك البئر.

ظللتُ أراه من على بُعد، في الصباح أو في ضباب المساء، وبغض النظر عن المسافة التي مشيتُها، فلم أقترب.

كانت الشمس تعبر السماء، يليها القمر، ويصبح الضباب شبكة ذهبية في لحظة، وشبكة عنكبوت فضية في اللحظة التالية، وأظل بعيدًا، مثل من يخطون على الشريط المتحرك في نادي للياقة البدنية، في حين أظل دائمًا في نفس المكان، مثل سيزيف الذي لا يعي أنه سيزيف.

ربما يكون هذا جيدًا للقلب واللياقة الجسدية، والتي ستكون مفيدة إذا كان المرء سيحفر بئرًا حقيقيًّا، ولكني كنتُ مهتمًّا بالبئر الكامن بداخلي، والذي كان ذات مرة انعكاسًا لمن هو خارجي، وشككتُ أن نادي اللياقة البدنية سيأخذني إلى الاتجاه الصحيح.

كان اليوم يمر، كنتُ بحاجة إلى كتابة مقال لـ"لدقيقة"، وكان كل ما

يمكنني التفكير فيه هو: إنني أغرق في مستنقع، وإن الطريقة الوحيدة التي يمكنني بها تخليص نفسي هي: الطريقة التي استخدمها البارون مونشهاوسن عندما كان في مأزق مماثل: انتزاع ضفيرتي، وتحرير نفسي من المتاعب، ومع ذلك، كان شعري قصيرًا للغاية في الجزء الخلفي؛ فلا أستطيع الإمساك بشيء، ناهيك عن جذب وانتزاع نفسي بقوة نحو القمة.

فكرتُ في أنني يمكنني أيضًا أن أعترف بأنني ضللتُ الطريق؛ فقبول الهزيمة يعد في بعض الأحيان أعظم انتصار، ويمكن أن يقدم احتمالات مخفية مسبقًا، أو لا يمكن الوصول إليها.

لم أكن أعرف مصدر كل ذلك، وربما كان ذلك هو الشعور الأكثر مناسبة بالنسبة لصباح عديم الهدف، أو بعد الظهر، مع الأخذ في الاعتبار مدى سرعة مرور الوقت.

في الواقع، بحلول ذلك الوقت كان المساء قد حلّ تقريبًا، والليل تحمله السحب تمامًا، كما تجر أم أو يجر أب طفلاً مترددًا في الذهاب للتسوق، أو زيارة أشخاص ليس لديهم أطفال؛ حيث يشعر الطفل بملل مؤلم رغم إعطائه الكثير من الكعك أو الآيس كريم.

ولدى تذكري للآيس كريم لعقت شفتي، وفكرتُ كيف بدؤوا بيع مجموعة متنوعة من هدايا الآيس كريم أمام المبنى الذي أسكن فيه خلال أيام الربيع اللطيفة الأولى.

وعلى عكس الصحف الكئيبة، كان للآيس كريم قوة سحرية، وسرعان ما وجدتُ نفسي بالنعال على الرصيف.

ومع ذلك، لم تكن بائعة الآيس كريم؛ حيث من المفترض أن تكون.

كانت الثلاجة مغلقة، والمظلة إلى أسفل، والكراسي مربوطة بالسلاسل إلى شجرة قريبة.

نظرتُ إلى اليسار ثم إلى اليمين، ورأيتُ إلى جانب كشك الصحف رجلاً يرتدي نظارة داكنة.

وعلى عكس الشخصيات السابقة التي تختبىء خلف نظارات داكنة، لم يكن هذا الرجل مرتديًا معطفًا واقيًا من المطر، رغم أنه كان يرتدي حلة سوداء.

قلتُ لنفسي: كلا، لن تضيفه إلى قائمة المتآمرين الخاصة بك؛ هذا هو يوم الأحد، قد يكون هذا الرجل ذاهبًا لحضور حفل زفاف، وتوقّف لشراء النعناع أو العلكة.

نظر الرجل إليّ.

شعرتُ فجأة بالحرج؛ لكوني أرتدي النعال في الشارع كأحد البخلاء المتقدمين في السن، فالتفتُّ كي أعود.

ظل الرجل يحدق في وجهي، كلا، لقد كانت عيون الرجل ترتكز عليّ، هكذا أصفها.

وددتُ فجأة، وبشدة، أن أذهب إليه، وأن أنزع تلك النظارة عن وجهه؛ حينها فقط رفع يده، وخلع النظارة وابتسم.

التفتُّ كي أتأكد مما إذا كان هناك شخص ما يتبعني أم لا.

لم يكن هناك أحد.

نظرتُ مرة أخرى إلى الرجل الذي كان يقترب الآن، وهو لا يزال مبتسمًا.

فكرتُ في أنه يمكنني دائمًا خلع نعليّ، وإذا لزم الأمر، والعدو حافي القدمين.

لم ألقِ بالاً أبدًا لكوني حافي القدمين، حتى وأنا طفل، ولكن إذا كانت تلك هي الطريقة الوحيدة للهرب فلن يزعجني كوني حافي القدمين.

ومضت مارجريتا، وقدماها العاريتان في ذهني، وتساءلتُ: ماذا يعني الهرب بأقدام حافية بالنسبة للشيخناه، أو بتعبير أدق، هل ستقوم الشيخناه بالمساعدة على الهرب أم تعرقله؟

ثم كان عليّ وقف التحرّك والتفكير؛ فلقد كان الرجل أمامي.

كانت عيناه زرقاوتين كزرقة السماء.

قال: ماذا؟ ألا تعرفني؟

فأجبتُ: كلا، ولم أكن أعلم حقًّا من هو، رغم أن صوته بدأ في التبلور في وعيي، وكلّما تحدث تضاءل النسيان، وفي النهاية، عندما ذكر باراميديم، مدرس مادة الأحياء في المدرسة الثانوية، دق الاسم واللقب في رأسي: ستيفا الحصان.

لم يكن به شيء متعلق بالخيول، وبينما يثرثر عن الأصدقاء القدامى، وعن مدى شعوره بالسعادة لرؤيتنا، وما تعنيه عودته إلى كندا إليه، كان كل ما يدور برأسي هو المسألة الحساسة المتعلقة بأصل اسمه.

لمَ أجرح مشاعره إذا ذكرته بلقبه؟ لقد نقشه بحماس على مكاتب المدرسة القديمة والجديدة، بل وحتى في بعض الأحيان على السبورة والمقْرَأة.

قال: إن أحد الأشياء التي بدأ يقدّرها أكثر منذ أن سافر هي الشكليات الرائعة للناس هنا.

وتابع قائلاً: إن النزول بالنعال بهذا الشكل قد تجاوز أي شيء رآه في "أدمونتون".

فقلتُ: لا أعرف أين تقع أدمونتون، ولكن إذا ذهبتُ إلى هناك فلن أتخلى بسهولة عن نعالي المريحة.

ضحك ستيفا، فتذكرتُ كيف حصل على لقب الحصان؛ إنه لم

يضحك، لقد صهل، على الرغم من ذلك الصهيل قد بدا الآن أشبه بنقيق الضفادع.

على أي حال، كانت ضحكته فظيعة، أسوأ بكثير من نعليّ.

تبعني بينما كنتُ أتقدم ببطء نحو باب بنايتي، ولم يترك المسافة تزداد بيننا أبدًا.

لم أعرف: لمَ أردتُ أن أجعل هناك مسافة بيننا؟ ربما بسبب تلك العيون الزرقاء التي طالما أثارت شفافيتها عدم الثقة بداخلي؛ فكلّما كان لون عيون المرء أفتح زاد شكي.

تحيز، بطبيعة الحال، رغم أنه غير مؤذٍ، إذا كان ذلك يعد سلوانًا.

فتحتُ باب المبنى برفق بظهري، وأنا أستعد للدخول بخفة، ولكن فقط في تلك اللحظة بدأ ستيفا في سرد جميع من رآهم، وبعد عدد قليل من الأسماء النسائية، والتي لا أعرفها، ذكر دراجان ميتشوفيتش، والذي قال: إنه أمضى معه أمسية رائعة بالأمس فقط.

توقفتُ عن دفع الباب.

سألته: أمسية رائعة مع دراجان ميتشوفيتش؟ أأنت على يقين من أنه لم يكن شخصًا آخرًا؟

أجاب ستيفا: كلا، أنا واثق، دراجان عالم الرياضيات، الذي كُنا دائمًا نغش منه الحلول في امتحانات الرياضيات، والرسم الميكانيكي.

لقد سأل عنك، وذكر شيئًا عن العوالم المتوازية وأنماط التكرار، شيء من هذا القبيل.

بدا الباب فجأة ثقيلاً جدًّا، وظننتُ أنه سيكسر عمودي الفقري.

هل كان اختياري خاطئًا عندما قررتُ مؤخرًا ألا أتصل بدراجان ميتشوفيتش؟ لا أستطيع أن أتذكر متى كان ذلك، ولكني أذكر السرعة

التي اتخذتُ بها هذا القرار.

أتجرأ الآن، وأعترف أن ذلك كان نابعًا من الغرور، والغضب الذي أصابني به بالصدفة مرتين أو ثلاث مرات، أو السخرية مني لعدم استطاعتي مواكبة استنتاجاته الرياضية.

سألتُ ستيفا بلا داعٍ: أأنت متأكد أن دراجان ذكرني؟ ولكني في الواقع كنتُ أحاول كسب الوقت؛ لأعرف ما يجب القيام به لتقييم كل شيء من هذا المنظور الجديد.

لم يتردد ستيفا وقال: لقد أخبرني دراجان ميتشوفيتش بكل شيء، بل إنه أضاف بشكل خاص: إنه كان مسرورًا للغاية للقائي مرة أخرى.

تطلّع في وجهي بتلك العينين الزرقاوتين اللتين طرفتا كما لو كانت الرياح قد هبَّت في وجهه.

هل هذه الطرفة علامة على انعدام الأمن؟ أم هل كان يكذب؟ من يدري لمَ طرف ستيفا بعينيه؟

قال ستيفا: إنه صادفني في لحظة غير ملائمة؛ فارتداء النعال في يوم أحد لهي علامة أكيدة على الرغبة في الراحة والاسترخاء.

ثم سألني: عما إذا كنتُ مستعدًا للانضمام لمجموعة من أصدقاء المدرسة القدامى؛ لتناول العشاء في مطعم يطل على نهر الدانوب؛ فلقد اتفقوا على اللقاء في مطعم رئيس الميناء في السابعة، ثم تحديد الطعام الذي سيتناولوه.

سألته بقدر من التشكك: وهل سيكون دراجان ميتشوفيتش هناك أيضًا؟ هل أنت متأكد؟

فأجاب ستيفا: لقد وعد، وبقدر ما يعرف، وبقدر ما هو مستعد للوقوف منتصبًا؛ فـ دراجان ميتشوفيتش يفي دائمًا بوعده.

لم أتمكن من استدعاء نموذج واحد، ومع ذلك أومأتُ برأسي موافقًا.

قال ستيفا: إذن، هل ستنضم إلينا؟

وافقتُ، فتقدم ستيفا إلى الأمام، وضربت على خدي، ثم قال: اترك تلك النعال في المنزل، وصهل مرة أخرى.

فكرتُ: من كان يشبه الحصان في يوم من الأيام يظل كذلك للأبد.

الأشياء الصغيرة في بعض الأحيان تكون هي الأكثر تعبيرًا عن حقيقة الناس والعالم، الشقوق الصغيرة التي تشير إلى مجيء كوارث ضخمة.

وبينما أتسلق الدرج إلى شقتي كانت الأسئلة تتدافع في ذهني بشأن استعداد دراجان ميتشوفيتش غير المتوقع للظهور في الأماكن العامة، بل والذهاب أيضًا إلى مطعم.

تذكرتُ - بوضوح - كيف حذرتني من ساعدتني على العثور عليه قبل عدة أسابيع، والتي انتقلت إلى "بانوفو بردو" من أنه كان غريبًا، وأنه لا يحضر أبدًا، وهو ما كنتُ أعرفه، تجمعات الأصدقاء أو لم شمل الخريجين.

وعندما أضيف إلى ذلك حقيقة أن ميتشوفيتش قد سأل عني؛ فعدم ذهابي على الفور إلى رصيف الميناء يعد معجزة.

تمكنتُ من مقاومة ذلك حتى السادسة، وفي السادسة والنصف كنتُ هناك أمام المعرض.

كان رأسي يتأرجح بين اليسار واليمين كالبندول، ومع ذلك فاتني وصول ستيفا الحصان مع امرأة بدينة، والتي كان شعرها مربوطًا على شكل كعكة.

كان يمكنني أن أقسم أنني لم أرها من قبل، لكنها ادّعت أننا قبّلنا بعضنا البعض في ليلة رأس السنة عندما كُنا في الخامسة عشر.

obeikandl.com

صاح ستيفا عندما قرصت أذني، وقالت: إن الوقت لم يفت بعد لنكمل ما بدأناه.

سألتها: نكمل ماذا؟

وكاد ستيفا يسقط على الأرض من شدة الضحك.

ضحكت المرأة التي كانت تضع يديها على فخذيها، واندفعت بطنها نحوي.

من يدري كم كان سيستمر ذلك العذاب لو لم تصل امرأتان أخريتان؟ وأدركتُ أنهما زلاتا ودراجانا، أفضل الصديقات والطالبات المتميزات المستقيمات.

لم يسبق لي أن قبّلت أيًّا منهما، هذا ما أعرفه، رغم أنني لن أمانع تقبيلهما الآن؛ فليس هناك أجمل من امرأة في منتصف العمر.

من المؤكد أن الجسم لم يعد مشدودًا وناعمًا كما كان وقت الشباب، ولكن هناك ذلك الامتلاء والفخذين المتوازنين، والمؤخرة الممتلئة، ومظهر الرفاهية.

أطلقت زلاتا ودراجانا صيحة طويلة عندما رآنا، وبينما كُنا نعانقهما ونقبلهما ثلاث مرات على الخدين، وصل سفيتلانا ورادومير، العابسان كما هي عادتهما.

وعلى الرغم من أننا كُنا نعلم أن العبوس هو قناع رديء، كنتُ أظن في كل مرة أراهما أن عبوسهما المتطابق هو ما جمعهما معًا.

يمكن للمرء قول: إنهما كانا تعويذتي فصلنا؛ لقد بدآ يتقابلان في عامنا الأول، وتزوجا بعد التخرج بأسبوع، وظلا معًا منذ ذلك الوقت، وذلك وفقًا لبريد إلكتروني وصلني من زلاتا ودراجانا، ولا تسألني كيف؟

وعلى مدى السنوات القليلة الماضية كانت زلاتا ودراجانا تنظمان

- بلا تعب - لم الشمل السنوي لفصلنا، وقبل عدة أسابيع من لقائنا أرسلوا رسائل بآخر معلومات عن حياة زملائنا السابقين.

وفيما يختص باسمي، كانت الرسالة تقول: «ذهب»، وهو ما لا يعني شيئًا، ويناسب رغبتي في الاستلقاء.

إن كلمة «ذهب» لهي بالتأكيد أفضل من «متوفى»، وهي الكلمة التي كتبوها، للأسف، إلى جانب بعض الأسماء، بما في ذلك اسم مدرس الفصل، ميلينكو ستويفيتش الذي أصيب، على حد قول أحد الأشخاص في لم شمل سابق بأزمة قلبية عندما اندلعت الحرب الجديدة في يوغوسلافيا.

لا أعلم: ما إذا كان ذلك صحيحًا أم لا؟ رغم أنني أعتقد أن الكثير من القلوب قد أصيبت بأزمات عندما حدث ذلك، وتوفي بعضها، كما هو الحال مع ميلو الصومعة، كما كُنا نسميه، وتعافى بعضها مؤقتا، ولكنها أصيبت بجرح دائم، في حين تظاهرت بعضها بذلك فقط، مدعية يأسًا أنه لم يترك علامة في أذينيها أو بطينيها.

لم يذكروا شيئًا عن قلبي؛ فما يهم هو أنه لا يزال ينبض بانتظام، وأنه - أطرق على الخشب - لا يظهر أي جهد من أجل الاحتفاظ بإيقاع منتظم.

ولكي أطرق على الخشب اضطررتُ إلى النهوض من على الكرسي ذي الذراعين القديم، والاتجاه إلى حافة النافذة تمامًا كما نهضتُ في المطعم في ذلك الوقت، واتجهتُ إلى الباب قلقًا بسبب تأخر دراجان ميتشوفيتش.

نظرتُ إلى اليسار ثم إلى اليمين، ولكن لم يظهر في أي اتجاه.

عدتُ إلى الطاولة حيث كانت المحادثة لا تزال على قدم وساق، وحيث تمكنت المرأة التي تعقد شعرها على شكل كعكة من إبعاد سفيتلانا، والجلوس على المقعد المجاور لي.

وحتى ذلك الحين لم أكن قد انضممتُ إلى المحادثة، ولكن عندما بدأت تُميل بثدييها نحو كوعي الأيسر كان انزعاجي قد بلغ مبلغه.

كلا؛ فلم يكن ثدياها ما يشغلان بالي، ولكن ما يزعجني هو أن يكون دراجان ميتشوفيتش قد غير رأيه، على افتراض أن ما أخبرني به ستيفا صحيح بالطبع.

كان يجلس على رأس الطاولة، أحمر الوَجْنتين؛ بسبب العديد من كؤوس النبيذ الأحمر، وعندما رآني أنظر إليه غمز بعينيه.

لستُ بحاجة للغمزات، كان هذا ما فكرتُ به عندما مالت المرأة البدينة نحوي؛ فلدي بالفعل أكثر مما يكفي من تلك الكؤوس؛ ما أحتاج إليه هو شيء واضح وملموس، شيء حقيقي دون أي شك.

هل كنتُ على استعداد لتفسير وصول دراجان ميتشوفيتش بهذه الطريقة؟ لا أعرف؛ فاليأس، كما يقول المثل، يحصد القش.

من المفترض أن المثل يشير إلى من يغرقون، ولكن ألن يعتري اليأس أي شخص يغرق؟ حتى الشخص الذي ذهب بإرادته إلى المياه العميقة، قد يكون الانتحار خيارًا، ولكني مقتنع أن لا أحد يتجه بهدوء نحو الموت؛ فيجب أن تكون هناك لحظة يرتدي فيها الجسد ثياب الوعي، ويتمرد ضد حتمية النهاية.

قد يفترض شخص ما أنني انتحاري بسبب عدم مجيء دراجان ميتشوفيتش، وهو ما أؤكد لكم أنه لم يخطر ببالي للحظة آنذاك والآن.

في الواقع، وخلال السنوات التي كنتُ أكبر فيها مع من أجلس معهم الآن حول طاولتنا في مطعم "سانت أندريا"، والذين لم يكونوا مصابين بالبدانة أو الصلع حينذاك، اخترت سطرًا من رواية "فوكنر" (الأيدي الوحشية) كتعويذة لي؛ نظرًا للاختيار بين تجربة الألم واللا شيء؛ قال بطل الرواية: إنه سيختار الألم، ولقد ظللتُ وفيًّا لتلك التعويذة منذ ذلك الحين.

obeikandi.com

لن أهاجم نفسي، هكذا فكرتُ، وكعكة المرأة البدينة تداعب أنفي، والتي أثارت بداخلي رغبة في الفرار من المكان إلى أبعد ما يمكن.

ربما كان يجب أن أفعل ذلك أيضًا لو لم يعترِ الصمت الطاولة.

التفتُ، ورأيتُ دراجان ميتشوفيتش في معطف كبير للغاية، والذي ترتفع أزراره حتى ذقنه، كما لو كان الشتاء لا يزال بالخارج.

لم يكن يرتدي قبعة وهو ما فاجأني، رغم أنني لم أستطع أن أسأل عن السبب؛ ربما لأنني كنتُ مقتنعًا بأنه يرتدي القبعة دائمًا حتى أثناء النوم.

حسنًا، بقبعة أو بدون، كان المعطف كبيرًا للغاية، لدرجة أنه بدا كما لو كان يسير من تلقاء نفسه، كما قالت من انتقلت منذ فترة إلى "بانوفو بردو"، هذا ما إذا كنت أتذكر بشكل صحيح، والتي كانت السبب في لم شملي، إذا جاز قول ذلك، مع دراجان ميتشوفيتش.

إذا حكمنا من خلال الصمت حول الطاولة، فإن دراجان قد أدهش وحيّر الجميع، وليس أنا فقط.

وفي الوقت نفسه، جاء النادل وساعده على خلع المعطف.

أعلم أنه سيرتدي قميصًا بدائيًّا ضيقًا، ولكني لم أتوقع رباط العنق، والمعقود عقدة بدائية أيضًا.

كان رباط العنق متعدد الألوان، وذا تصاميم مجردة، والتي أثق أنه يمكن التعبير عنها على الفور على شكل مجموعة من المعادلات أو المفاهيم الرياضية الأخرى.

ما كان أكثر إثارة للدهشة هي حقيقة أنه ابتسم أمامنا ابتسامة عريضة وهو يخلع معطفه، ثم انضم إلينا، وحيَّ الجميع، وجلس في النهاية.

وبعد بضع دقائق من الصمت المتألم أُستكملت المحادثة، والتي كانت تعدو بسرعة في اتجاهات عديدة.

حملقتُ في ستيفا الذي غمز مرة أخرى، ولكن هذه المرة بإيماءة حذرة لـ دراجان ميتشوفيتش الذي جلس على المقعد المجاور له، حيث كانت زلاتا تجلس.

همس ستيفا بشيء لها في البداية، رأيتُ ذلك بزاوية عيني، ثم نهضت زلاتا، وطلبت من النادل أن يجلب لها كرسي آخر ووضعته بين المرأة البدينة وبيني، رغم احتجاجات المرأة نصف المازحة.

قالت زلاتا: لقد أخذت دورك، والآن دوري ودوري فقط، وهكذا استقر زوج جديد من الثديين الآن على كوعي.

عانيت من الدفء الممتلىء بالصبر، أو على نحو أدق، من دفء اللحم الغض.

ليست المشكلة أنني لا أستطيع أن أقدر ثديي المرأة، ليس الأمر كذلك على الإطلاق؛ فيمكنني أن أتحدث أو أكتب عنهما لساعات بلا توقف، ولكن هناك لحظات عندما يكون أكثر ما نحب هو أكثر ما يزعجنا، وإذا كان هناك فكرة بعيدة عمّا يدور بذهني في تلك اللحظة، فهي: ثديي المرأة، وتحوّل ضغطهما على ذراعي إلى نوع من الألم، نار فشلت في إثارة قضيبي، وفشلت في إخمادها، ولكن بدلاً من ذلك هددت بترك حروق في جميع الأنحاء حولي.

إنني أبالغ بالطبع، ولكن بعض التجارب لا يمكن تعريفها إلا من خلال مصطلحات متسمة بالغلو؛ فتجدنا نتحدث عن البعوض الذي يضايقنا في الليل كما لو كان يحمل حجم طائرة، أو كما لو كان كبيراً كالنسر، أو كما لو كُنا نقارنه بصاروخ؛ لأنه من المثير للسخرية أن يعذبك مثل هذا المخلوق الضعيف، ولا يمكّنك من النوم لساعات.

الخوف له عيون كبيرة بالتأكيد.

obeikandl.com

عيوني أيضًا كانت كبيرة، أو هكذا شعرت بهما كلّما نظرت بالتناوب إلى دراجان ميتشوفيتش، ثم ستيفا، ثم دراجان.

كان هذا مجهولاً آخرًا في معادلة كبيرة لن تكفيها أكبر صفحة، ويمكن للحل أن يتطور تدريجيًّا ليصبح إلى بساط حائط مزخرف والذي، كما هو الحال في رواية معينة، كان يمثل صورة العالم، أو ربما العالم نفسه.

مرة أخرى، ابتعدتُ جدًّا عن الموضوع.

المرة الأولى في القيام بأي شيء تكون دائمًا أصعب مرة، كأن تكذب أو تبتعد عن الموضوع أو تبالغ، ثم يصبح الأمر أسهل.

على سبيل المثال، أستحم بماء بارد، وأتذكر كيف كان عليّ حشد شجاعتي كي أخطو تحت الصنبور الجليدي، والآن أفعل ذلك دون تردد، بل إنني حتى أدع المياه تتدفق لفترة؛ حيث إن التدفق الأول للمياه الباردة لم يعد يرضيني.

وكما سيقول ماركو: " الرجل هو عبارة عن وحش غريب"، وبينما أستمع إلى ستيفا وهو يصهل، وهو يسند رأسه على كتف دراجان ميتشوفيتش، قلتُ لنفسي: كم كنتُ غير منصف مع ماركو، وأنني لو لم أتوخَّ الحذر فقد أفقد صديقي الوحيد بسهولة.

أعلم أن "صديقي الوحيد" تبدو قاتمة، ولكن الحقيقة هي أن معظم الناس لا يملكون حتى هذا الصديق الواحد، في حين يصف العديدون معارفهم كأصدقاء، تمامًا كما لو قلتُ الآن أن مارجريتا هي صديقتي، رغم أنني لا أعرف تقريبًا أي شيء عن حياتها.

يمكنني وصفها، يمكنني القول: بأنها منشغلة ببعض جوانب التصوف اليهودي، يمكنني أن أتحدث عن شعوري عندما أكون معها، ولكن لن يستطيع أحد أن يجدها كما أقول.

obeikandi.com

حتى لو أعطيتها وصفًا سأكون متلعثمًا، غير متأكد مما إذا كانت تمتلك خدين ورديين، وحاجبين مقوسين، وشحمتي أذن رقيقتين، أو ما إذا كان كل ذلك هو مجرد تصوّر لي أثناء انشغالي.

ومع ذلك، لم يتطلب الأمر خيالاً لاستنتاج أن هناك سر بين ستيفا الحصان ودراجان ميتشوفيتش، وكان أملي الوحيد هو ألا يشترك هذا الخيط الجديد مع سائر الخيوط الأخرى الممتدة أمامي.

نادت زلاتا ودراجانا على بعضهما البعض عبر الطاولة، وعبس سفيتلانا ورادومير، وأوضح دراجان ميتشوفيتش شيئًا للمرأة البدينة ذات الكعكة، وذهب ستيفا إلى حمام الرجال، وبالتالي كل ما تبقى لي هو التحديق في السقف، تلك السماء الصناعية التي تثير إلهامات عديدة غير متوقعة.

قلتُ لنفسي: آمل ألا أشعر بدافع لكتابة أغنية حب، أو قصيدة مثيرة للشهوة، ومهداة للثديين اللذين استكانا بشدة عليّ.

انتظرتُ حتى آلمتني رقبتي.

لم يحدث شيء، لم يومض بيت شعري في ذهني؛ فيمكنني أن أتنفس الصعداء.

لقد توقفتُ منذ فترة طويلة عن كتابة القصائد، إنني حتى لم أحاول كتابتها ثانية؛ فالقصص القصيرة كانت تكفيني، أمّا الروايات فأشعر أنها بعيدة عن نطاق معرفتي.

هُنا، في الليل، عندما يسود الهدوء الكامل، أسمع أحيانًا صوت من الصمت ينطق بأجزاء، والتي لا يمكن أن تكون سوى أجزاء من قصائد، ولكن في الصباح، وبينما أغسل وجهي أحاول أن أغسلها، وخاصة "سماء الأمل الشاحبة"، و«أكثر قبلة حانية مجردة للشفاه المشققة»، واللتين تلتصقان بيقظتي كالثمرات الشائكة.

obeikandi.com

ولحسن الحظ، لم يغمرني شيء من هذا القبيل في ذلك الحين، في مطعم "سانت أندريا"؛ فما شعرتُ به على كتفي هو لمسة من أصابع دراجان ميتشوفيتش.

لم ألحظه عندما نهض، ووقف خلفي لدرجة أنني قفزت تقريبًا لدى لمسته المفاجئة، لكن انتهى كل هذا عندما التفتّ وواجهتُ ابتسامته.

قال: كل شيء على ما يُرام.

وضربت على ظهري، كما لو كنتُ رضيعًا لا يريد أن يزعجه أحد أثناء نومه.

ثم انحنى قليلاً، وهمس لي بأننا يجب أن نتحدث.

وأضاف: لقد بدأت المثلثات تُفتح.

ثم ضغط على كتفي، وعاد إلى مقعده تمامًا في نفس اللحظة التي عاد فيها ستيفا الحصان من حمام الرجال.

أكان هذا خيالاً؟ أم هل تبادلا إشارات صغيرة؟ لامس دراجان شحمة أذنه اليسرى في حين تلّمس ستيفا حاجبه الأيمن بسبابته، ثم أشارا إلى بعضهما البعض، وجلسا على الطاولة، وطلبا في وقت واحد تقريبًا زجاجة أخرى من النبيذ الأحمر.

أحضر النادل زجاجتين بالطبع، مُدعيًا أن كل منهما قد طلب واحدة، وسرعان ما تحول ذلك إلى أحد مشاجرات المقاهي المرهقة والمثيرة للأسى، والتي يتذكرها الناس أكثر من سببها، مثل الشجار بين جاك نيكلسون والنادلة في خمس قطع سهلة، والذي أذكره رغم أنني نسيتُ ما حدث قبله أو بعده.

رفض النادل إعادة الزجاجة الثانية، ولم يسمح ستيفا بإدراجها في الفاتورة، وعلى الرغم من أننا تظاهرنا بأننا لم نلاحظ ذلك، سرعان ما

obeikandl.com

اشتركنا جميعًا، ومن يدري كم من الوقت سيستغرق هذا الشجار لو لم يقل دراجان ميتشوفيتش أنه سيأخذ الزجاجة، وأن لديه أشياءً سيقوم بها، وأن النبيذ سيصبح في متناول اليد.

تطلّع إليّ وهو يقول ذلك، كما لو كنتُ الشخص الوحيد الذي يعرف ما يعنيه، والذي لم أكن أعرفه.

لقد كنتُ مستغرقًا في التفكير عمّا يمكن أن يعنيه افتتاح المثلثات، ولكن لم يدهشني شيء.

كان الشيء الوحيد الذي أمكنني التفكير فيه هو: تلك المروحة الورقية الملصقة بعصا، والتي طالما حملناها ونحن أطفال.

لم تكن مثلثات بالطبع، ولكن عندما نركض كانت المروحة تدور، وبينما نصيح بفرح، نتصور أنها طائرات هليكوبتر.

لم يتضمن لك أي افتتاح، وهذا بالطبع هو جوهر رسالة دراجان، وإذا حكمنا من خلال النظرة التي وجّهها لي وهو يرفع زجاجة النبيذ بانتصار في الهواء، سأعلم الحقيقة مع النبيذ، سواء أردتُ أم لا.

أنهى لقاءنا الشجار مع النادل؛ وبعد كل ما قيل، لم يكن هناك ما يدعونا للبقاء هناك.

ثقب ستيفا حافة كأسه بسكين، وبمجرد أن انتهت المحادثة، شكرنا على تخفيفنا لآلام الغربة، ولو فقط لفترة قصيرة، وأمل أن نلتقي مرة أخرى في المرة التالية.

إنه يعيش بالخارج، في وسط لا مكان، دون علم الله، ولكن طالما كان الله مرئيًّا هناك، يمكن ألا تكون الأمور سيئة للغاية.

بدأت زلاتا في الشهيق، وتدفقت دموع حقيقية من عينيها، والتوى وجهها على شكل قسمات قبيحة، وقالت بصوت مرتجف لـ ستيفا: إنه لا يجب أن يعود، وإننا بحاجة إليه هنا؛ فعددنا يقل أكثر وأكثر كل

يوم، وإننا نزداد ضعفًا.

وبينما تقول ذلك، وتوقفت تنهداتها، دلّكت فخذي بشراسة لدرجة أنني اضطررت لمعالجة كدماتي لعدة أيام.

ومع ذلك، لم يكن هناك أي علامة على كوعي نتيجة استكانة أثداء متنوعة عليه لثلاث ساعات.

وبالخارج، أمام المطعم، استقبلنا المطر، فتحوّل وداعنا إلى تبادل مضطرب للعناق والقبلات، والمصافحات والتلويح.

لم يكن أحد منا يحمل مظلة؛ لذا هرع الجميع إلى سياراتهم ومحطات الحافلات، ومنازلهم وشققهم، بما في ذلك، لدهشتي الكبيرة، دراجان ميتشوفيتش، الذي عدا بسرعة إلى جانب ستيفا الحصان في شارع "زماي جوفينا"، والذي كانت أطراف معطفه الكبير ترفرف من حوله.

تركِت واقفًا هناك بمفردي.

لم أتوقع أن يحدث هذا، ولم يكن لدي فكرة إلى أين أذهب.

لقد كنتُ على قناعة بأن دراجان ميتشوفيتش سيأخذني إلى مكان ما، ربما إلى مقعد مسقوف على الرصيف، أو إلى مطعم آخر؛ ليشرح لي المعنى الحقيقي لافتتاح المثلثات، وعندما لم يحدث هذا شعرتُ تقريبًا بالشلل.

ازداد المطر، وكانت القطرات ترشق الرصيف، وتتحول إلى فقاعات صغيرة.

ألصقتُ يدي بجيب معطفي، وفي الجيب الأيسر شعرتُ بقطعة من الورق.

سحبتُها، وفتحتها.

ومن خلال الحكم بالأحرف الأولى في الجزء السفلي كانت رسالة من دراجان ميتشوفيتش.

يجب أن يكون قد أسقطها في جيبي حينما انحنى علي وهمس قائلاً: إن المثلثات قد بدأت تتفتح.

منعني المطر والرياح العاصفة من قراءتها، فطويتها ووضعتها ثانية في جيبي.

وعندما وصلتُ إلى المنزل وملابسي مغمورة بالمياه، بحثتُ عن الورقة بيأس، يجب أن تكون قد سقطت من جيبي أثناء هرولتي على طول نهر "الدانوب"، وجلدها المطر والريح.

فكرتُ في الذهاب مباشرة إلى الرصيف، مع أنه من غير المرجّح بشدة في مثل هذا الطقس أن أستطيع استرداد هذه الورقة الضائعة، وحتى لو وجدتها، معلقة في شجيرة أو أسفل مقعد، من يدري هل ستزال مقروءة أم لا؟

خشيتُ الآن ألا تكون الكتابة أكثر من تشرب، ومع ذلك لكني كنتُ مستعدًّا للبحث عنها؛ فقد يكون هناك، تمامًا كما هو الحال في اختبار رورشاش، معنى في التشرب أو الرسالة، والتي يمكن أن تكون إشارة لمسافر ليست لديه فكرة إلى أين يتجه، والسبب في ذلك.

من الواضح أن اليأس تملكني، وهدد بالتحوّل إلى اكتئاب صريح.

إذا قلت ذلك لـ ماركو، ربما لم يكن ليفعل شيئًا سوى أن يدحرج عينيه.

وكان سيقول: وماذا في ذلك؟ يبتلع الجميع الحبوب على أي حال؛ حبوب تسكين الألم، حبوب لمزاج أفضل، أو ضد المزاج السيىء، حبة واحدة لا تعني الكثير، وخصوصًا عندما تكون البلاد بأكملها على أريكة طبيب نفسي كبيرة.

ثم أخرج سيجارة،"علاج كل شيء عدا الكسور" كما يقول في كثير من الأحيان، وعرض عليّ تهدئتي.

كنتُ سأستمتع بالسيجارة دون شك، ولكن عليّ أولاً أن أواجه المصيبة الأولى كرجل الإطفاء في فيلم أمريكي، والذي يغامر للحفاظ على الرسالة المفقودة، وبعد ذلك، عندما ارتديت معطفي ثانية شعرتُ بالورقة تحت أطراف أصابعي.

رسالة دراجان ميتشوفيتش.

تعرف الأشياء أحيانًا حقًا كيف تلعب بنا؟

لم يكن لدي أي فكرة كيف اختفت الورقة من جيبي الأيسر فقط لتنتقل إلى هناك مرة أخرى؟ ربما نقلتُها دون وعي من جيب إلى آخر بينما أهرع على طول الرصيف، لن أعرف أبدًا؛ فالأسرار في النهاية يجب أن تظل أسرارًا.

خلعتُ المعطف، وعلّقته على معلاق المعاطف، واتجهتُ إلى غرفة المعيشة، وجلستُ على الكرسي ذي الذراعين، وبدأتُ القراءة.

قالت الرسالة: خمسة عشر عامًا مضت، وظهر فنان بلغراد بقطعة من الفن المفاهيمي: يكتب نفس الجملة مرارًا وتكرارًا على ملصقات.

الملصقات أيضًا متطابقة للغاية، ولكن كُتبت الجملة على كل ملصق بشكل مختلف: بأحرف كبيرة، أحرف متصلة، أو مطبوعة على الآلة الكاتبة، أو ملصقة، أو ملونة، أحرف متفاوتة.

وضع الفنان الملصقات أينما تصادف وجوده: على متن حافلة، عند الباب الأمامي لمنزل يزوره، على الرصيف أكشاك الصحافة، واجهات المتاجر، أعمدة الإنارة، مقاعد الحديقة.

الجملة التي كتبها لمرات لا تُحصى هي: (إلى أين يأخذنا كل هذا؟) لم يخطر ببال الفنان أن ذلك قد يُفسر على أنه استفزاز سياسي.

لقد خطرت له تلك الفكرة عندما كان يجلس في المطبخ ويشرب القهوة، ويشاهد رؤوس الأشجار التي تتمايل أثناء هبوب الرياح، ويفكر في الحياة.

إلى أين يأخذنا كل هذا، يا بني البشر، النظام بأكمله؟ التطور؟ كل شيء نعرفه ولا نعرفه؟ تساءل: أهناك هدف ما، وإذا كان الأمر كذلك، متى سنحققه؟ لقد قرر أنه لا يوجد هدف، لكنه بعد ذلك أدرك فجأة أن الجميع يجب أن يوجّه إليهم هذا السؤال؛ فحينما يفكر الجميع فيه قد يتوصل شخص ما إلى الإجابة.

ومن هناك وصولاً إلى فكرة الملصقات هو عبارة عن خطوة صغيرة، وقبل وقت طويل كان هناك طريق من الملصقات وراءه، فكما رآه، يُلحّ بسؤال على جوهر وجود الإنسان، وبقائه على الأرض.

الشيء الوحيد الذي لم يتوقعه هو إمكانية القراءة والتفسير السياسي لجملته، ولكن هذا بالضبط هو ما حدث.

كانت الثمانينات على وشك الانتهاء، وكانت أسس البلاد السابقة قد بدأت بالفعل في التهاوي والتقوّض، وسرعان ما اهتمت الاستخبارات بذلك الشخص الذي يثير، في رأي هؤلاء الموجودين داخل جهاز المعلومات، شكًّا واضطرابًا للسكان بذكاء تلك الملصقات، الموجودة في العديد من الأماكن، بما في ذلك المراحيض العامة في محطة الحافلات، وشباك التذاكر في محطة القطار.

اعتُقل الفنان وهو يلصق الملصقات المطلية بألوان مخدرة للحواس على الجدار الزجاجي لحوض السباحة في صالة الرياضة في "زيمون"، أثناء عرض لفرقة "زغرب" لموسيقى الروك.

لم يقاوم، واعترف بأنشطته بسرعة، وتمسك بتأكيد أن نيته كانت فنية بحتة.

وأثناء تفتيش شقته وُجدت ملصقات أخرى عديدة، فضلاً عن

كمية كبيرة من أدوات الرسم، وآلة كاتبة تطابق حروفها الحروف الموجودة على الملصقات المنشورة، علاوة على خريطة لـ»بلغراد“، تشمل ”زيمون“ و“بلغراد“ الجديدة، والتي تشير إلى المواقع التي ترك فيها الفنان أو عزم على ترك علاماته.

ومما يتمتع بأهمية خاصة - ونحتاج إلى التركيز هنا - هو أنه بمجرد أن انتهى مشروع الفنان كان من المفترض أن يصف شكل مثلث متساوي الأضلاع، يمتد من قلب زيمون القديم إلى باليلولا وكوتشوتنياك في بلغراد.

كانت الخريطة هي الدليل الرئيسي لنوايا الفنان السيئة، على الرغم من أن المرء لا يستطيع أن يحدد بالضبط حقيقة هذه النوايا، ولكن المدعي العام تفهم أنه لا يوجد هناك دافع خلف كل ذلك، وسرعان ما أفرج عن الفنان من السجن، فحزم ممتلكاته، وسافر إلى هولندا.

ومع ذلك، لم تتم أبدًا إعادة الخريطة والملصقات وأدوات الرسم، بما في ذلك آلته الكاتبة المحمولة، ولا أحد يعلم ما حدث لهم.

وقبيل رحيله، قال الفنان بوضوح: ”إنه وجد الإلهام لعمله في مثلث غامض ذي نقطة في منتصفه، والذي رآه في شوارع ”بلغراد“، وفي وسائل النقل العام في أواخر الستينات وبداية السبعينات، والذي تم تداول العديد من النظريات والروايات حوله حتى الآن“.

ثم قالت الرسالة - والتي انتقلت لتحادثني بشكل مباشر -: هنا يجب أن تلاحظ أن هذه كانت مثلثات في كلتا الحالتين، وهذا أمر أساسي لفهم ما تبع ذلك.

وكما يفعل معظم الناس، تفترض أن الرياضيات مضيعة للوقت، ولا ترى أهميتها عدا جوانبها الأكثر عملية، مثل عدّ المال، أو حساب معدلات الفائدة، وسأسعد بإقناعك بعكس ذلك، ولكن ليس الآن.

لديك العديد من المشاكل الأخرى في انتظارك؛ فلا معنى لإضافة

مشكلة أخرى.

لنعد إلى المثلثات.

في بداية القرن الماضي، وجد هيلج فون كوخ، عالم رياضيات، منحنى لا متناهي في محيطه، ولكنه يطوّق منطقة محددة.

وهذا يعني، على الأقل من الناحية النظرية، أنك يمكن أن تلتقطه، وتضعه في جيبك، وهو ما يعني أن الجيب سيحتوي على اللا محدودية.

يمكنك أن تضعه في مظروف، وترسله إلى شخص ما يريد اللا محدودية، أو لم يحظَ بفرصة لرؤيتها.

صُنع منحنى كوخ من خلال تقسيم خط محدد الطول إلى ثلاثة أجزاء متساوية، ثم استبدال الجزء الأوسط بجانبي المثلث بطريقة تجعلنا نحصل على أربعة أجزاء، يساوي كل منهم ثلث الجزء الأصلي.

ومن خلال تكرار هذه العملية، يحصل المرء على منحنى كوخ اللا متناهي، وإذا بدأنا بمثلث متساوي الأضلاع، وطبقنا هذه العملية على أضلاعه الثلاثة سنصل إلى ما يُسمى ندفة ثلج كوخ، والتي يسميها البعض نجمة كوخ.

ما يتمتع هنا باهتمام خاص هو: إن أول الأشكال المشكلة في افتتاح المثلث هو النجمة السداسية، وعلى الرغم من أن الجانبين يلتويان، إذا أمكنني أن أضعها على هذا النحو، فهما يحتفظان بشكل سداسي قابل للتمييز.

يمكن للحظة أن يكون هذا الشكل دائرة، وهو ما يعني أن الدائرة، في عملية تبادلية، يمكن أن تتحول إلى نجمة سداسية.

ومن هنا يمكن أن يكون تفسير العلامة التي قدمتها لي قبل عدة أسابيع مستترًا.

يمكن للمثلثات أن تتفتح، وربما بدأت ذلك بالفعل، والشيء الوحيد الذي يجب ألا يغيب عن البال هو النقطة.

أعرف أنه لا توجد نقطة في العلامة المذكورة أعلاه، ولكن لو لم تتمكن من رؤيتها فهذا لا يعني أنها ليست هناك.

من الواضح أن كوخ قَصَد بمنحناه إثبات محدودية التحليل الرياضي الكلاسيكي، مما يدل على أنه يمكن لندفة ثلج واحدة في بعض الأحيان أن تسبب مشاكل أكثر من تلك التي تسببها عاصفة ثلجية بأكملها، وهذه هي طريقة البحث عن النقطة المفقودة.

بعبارة أخرى، افتتاح المثلث يؤدي إلى إعادة اكتشاف نقطة يمكن أن أسميها بكل سرور: "بورجيس أليف"، لكنها في نفس الوقت أكثر وأقل من ذلك على حد سواء.

لذلك دعنا لا ننس أبدًا أن كل شيء، حتى اللا محدودية التي يمكن أن تضعها في جيبك، يجب أن يعود في النهاية إلى النقطة التي نشأ منها كل شيء.

أنزلتُ الورقة، وأخذتُ نفسًا عميقًا.

لم أكن ماهرًا أبدًا في الرياضيات، لقد نجحت بها بالكاد في المدرسة الثانوية، والآن أضطرر إلى التعرف على إشارة في وصف رياضي من أجل مصيري.

أشعر بخفقان في صدغي، والذي أعرف أنه سيعقبه صداع مزعج لو لم أتناول مُسكّنًا على الفور.

ترنّحتُ حتى الحمام، وتناولتُ حبتين من المسكِّن، ثم ترنّحتُ مرة أخرى عائدًا إلى الغرفة، ونظرتُ من النافذة، ثم جلستُ مرة أخرى على الكرسي ذي الذراعين.

نهضتُ مرة أخرى، واتجهتُ إلى المطبخ، وتناولتُ مربعًا من

الشيكولاته، ثم عدتُ إلى النافذة، ونظرت إلى المبنى المقابل، ثم أشعلتُ التليفزيون.

قلتُ لنفسي: لو كنت محظوظًا ستجد فيلمًا إباحيًّا، وكما هو متوقع، بعد نقرتين أو ثلاث على جهاز التحكم عن بُعد رأيتُ أطرافًا متشابكة، وسمعتُ صوت امرأة يتحوّر صوتها بين آه، أو أوه، بمهارة تحسدها عليها يومًا سوماك.

أعلم ما يظنه الناس في الإباحية، لكنني لستُ مهتمًّا على الإطلاق بما يحدث في الفيلم، حتى ولو تعقدت حبكة الرواية، أو انتهت بعربدة فائقة.

في البداية، كنتُ أشعر بقدر معين من الإثارة، والتي سرعان ما تتحول إلى ملل نتيجة للتكرار اللا متناهي لنفس الحركات؛ فقد الفيلم الإباحي بعد ذلك قوته المثيرة للشهوة، وتحوّل إلى مزيج من الأنماط الهندسية الجذابة، وهو ما ساعدني على التفكير بهدوء في أمور أخرى.

عن جيب ممتلىء باللا محدودية، على سبيل المثال.

خفضتُ الصوت، وبينما اخترق قضيبي رجلين مباحث مهبل وشرج بطلة الفيلم في آن واحد أعدتُ قراءة رسالة دراجان ميتشوفيتش.

إذن فالمثلثات تتفتح، حسنًا، ولكن أين؟ وما علاقة اللا محدودية بذلك؟ قلتُ لنفسي والبطلة تقضم زاوية الوسادة: أينبغي أن يُفهم كل شيء كعلامة على التحوّل، كمقدمة للتغيير.

النجمة السداسية بالطبع لها معنى واضح؛ ومع ذلك، هناك شيء ما يراوغني هنا.

أعي تورط أفراد من الجالية اليهودية، ولكن من الواضح أن هناك جانبًا لتورطهم لم أهتم به، أو لم أدرك أنه موجود.

هل هناك أكثر من جانب؟

obeikandi.com

بدأت عيني في الانغلاق، على الرغم من أن إيقاع الدخول والخروج في كل فرجة على الشاشة كان يزيد الحماس.

كانت الكاميرا المنزلقة بنعومة على وجه بطلة الرواية وفمها المفتوح، ولسانها المندفع، والذي ربما يشير إلى ذروة الشهوة، هي آخر ما أتذكره.

أعلم أنه النوم على كرسي أمام التليفزيون ليس صحيّا، ليس فقط بسبب الإشعاع المنبعث من التليفزيون، ولكن أيضًا بسبب عواقب ذلك فيما يختص بالتشريح، أي: التواء العمود الفقري، والضغط الضار على المفاصل، ولكن هذه عادة لا أستطيع التخلص منها؛ لذا استسلمتُ للنوم، وعندما فتحتُ عيني، كانت الثلوج الإلكترونية تتدفق عبر الشاشة.

جاهدتُ حتى نهضتُ؛ فلقد كان جسدي متشنجًا، وفمي جافًّا، وتوجهتُ إلى النافذة.

لم تكن هناك سيارة واحدة متوقفة عبر الشارع أو أمام الصيدلية.

نظرتُ إلى اليسار ثم إلى اليمين، ثم إلى السماء الرمادية والسوداء في بعض الأماكن، والتي لم تُقدم أي أمل في الصفاء، فتراجعتُ مرة أخرى إلى الكرسي ذي الذراعين.

كان عليّ كتابة مقالا لـ»الدقيقة“، وهو ما كان يهدد بالتحول إلى كابوس؛ لقد كنتُ أكره الكتابة عندما يكون الطقس سيئًا.

يبدو هذا صبيانيًّا، أعلم ذلك، ولكن الإبداع لعبة، وبعض الألعاب لا يمكن ممارستها ما لم يتم استيفاء شروط معينة.

بالنسبة لحالتي، كانت لعبة الكتابة مقيدة بالطقس.

يحتاج بعض الأشخاص إلى نوع معين من القلم الرصاص، وبعضهم الصمت المطلق، والبعض الآخر إغلاق عيونهم لفترة طويلة، أتوقع أن

تسقط أشعة الشمس على الورق وعلى يدي، أو على لوحة المفاتيح وأصابعي، ولو لم تكن الشمس مشرقة تتحول الكتابة إلى عذاب، عذاب أكبر؛ لأن الكتابة هي في حد ذاتها عذاب لا مثيل له.

أعرف ما سيقوله ماركو، سيضحك وسيقول بازدراء: إن الجميع يريدون أن يكونوا شهداء؛ الكاتب، الخباز، ساعي البريد، وصانع القبعات.

أود أن أعرف: أين ماركو الآن؟ فالفراغ الذي أشعر به نتيجة غيابه لهو فراغ هائل؛ كالجبل الذي أحدّق فيه كل يوم من نافذتي.

سيقول: الغياب هو الغياب؛ فلمَ نقيسه؟! هذا، جنبًا إلى جنب مع غيابه، هو ما يخلُّ بتوازني.

إن تعليقاته، الساخرة أحيانًا، والقوية أحيانًا أخرى، والتي غالبًا ما تختص بالعلامة، والتي نادرًا ما تكون خبيثة، هي ما تمنعني من الانغماس في جميع المغامرات، أجبرتني على استجواب نفسي، وتحليل توهماتي.

هناك أوقات أعتقد فيها أنه إذا أتى إليّ شخص وطرق بابي، هذا الباب هنا، سيكون ماركو.

أنتظر عبثًا بالطبع؛ لأنه إذا طرق أي شخص الباب فلن يكون ماركو، كما لا ينبغي أن أفتح الباب بل يجب أن أهرب عبر طريق الهروب المخطط له.

لا تهمُّ التفاصيل، دعنا نكتفي بقول: إن الأمر سيبدأ برفعي للباب المسحور في أرض المطبخ.

استشطتُ غضبًا من السماء الملبدة بالغيوم، استشطتُ غضبًا من الغيظ، استشطتُ غضبًا من الاعتراف بذلك، واستشطتُ بسبب شيء خارج عن إرادتي، ومن يدري كم من الوقت كان غضبي سيستغرق لو

obeikandi.com

لم يرن جرس الهاتف؟ لم أتعرّف على الصوت في البداية، ولكني أدركتُ بعد ذلك أنه ياتشا ألكالاي، الذي قال: سيكون من الجيد لو جئت إلى المتحف التاريخي اليهودي على الفور.

لم يقل أكثر من ذلك.

سارعتُ إلى تغيير ملابسي، والاغتسال، وحلاقة ذقني، ثم أكلتُ قطعة من الخبز عليها السمن و العسل، ثم هرعتُ إلى أسفل الدرج، واتجهتُ مباشرة إلى الشارع، حيث لوّحت لسيارة أجرة والتي كانت على وشك الانهيار؛ فهي من طراز مرسيدس قديم.

بدت السيارة كما لو أن إرادتها الخارقة هي فقط ما ستساعدها على التماسك.

أمّا سائق سيارة الأجرة، الذي وضع رماد سيجارته في طفاية سجائر، تعلوها جملة «أشكركم على عدم التدخين» فلم ينطق بكلمة طوال سيرنا في "بلغراد".

أشار برأسه عندما فتحتُ الباب، وعندما أخبرته بالعنوان، وعندما توقفنا في شارع "كراليا بترا"، وعندما أعطيته الأجرة؛ كما أومأ عندما غادرت سيارته، وأنا أقول: وداعًا.

ظننتُ أنني كان ينبغي أن أدوّن رقم هاتفه؛ فلقد كان سائقًا مثاليًا وفقًا لمعاييري، ولكن حينما نقرت على جيوب معطفي بحثًا عن قلم اتجهت سيارة أجرة إلى الشارع المجاور، وسرعان ما تبخر الرقم من ذاكرتي.

أومأت مودعًا، وسرتُ نحو المتحف.

أوقفني شابان عند المدخل، وقالا: إن المتحف مغلق، ولكن عندما ذكرت اسم ياتشا ألكالاي خطا أقصرهما نحو الكشك الزجاجي، ونادى على شخص ما، ثم قال: حسنًا، ياتشا ينتظره، ولكن في مكاتب مركز

obeikandi.com

الجالية اليهودية بالأعلى وليس في المتحف.

استدعيتُ المصعد، أحد تلك المصاعد القديمة التي لا يمكن التنبؤ بزمن الركوب فيها، وببطء، كما لو كان الأمر قد استغرق أبدًا طويلاً، نقلني إلى الطابق الثالث.

كان الباب مفتوحًا، فتوجهتُ نحو غرفة كنتُ أسمع أصواتًا تنبعث منها.

مشيتُ بحذر، كما لو كنتُ أخشى أن يقفز أحدهم عليّ من خلال أحد الأبواب العديدة، حتى وصلتُ إلى غرفة كبيرة تسود فيها الفوضى بشكل يفوق الوصف.

لا تُفسح أي فوضى المجال لوصفها، ولكن كم من حالات الفوضى شهدتها في حياتي، ناهيك عن الفوضى الموجودة في روحي!

لا يمكن لأي نظريات أو تفسيرات رياضية وصف الفوضى، حتى لو أمكن تصورها في مختبر، أو ظروف المستشفيات، ومعسكرات السجناء.

حدقتُ دون تصديق هذه الفوضى؛ طاولات ومقاعد مقلوبة، أوراق مبعثرة، زجاج محطَّم، لوحات مشقوقة، وطلاء مسكوب.

كانت كلمات «اليهود هم عبارة عن هوام» منقوشة على أحد الجدران، بينما على جدار آخر رُسمت نجمة داوود باللون الأصفر متقاطعة مع صليب أسود معقوف.

وعلى مقربة مني، على الأرض، رأيتُ لوحة لـ ياتشا ألكالاي والتي تصوّر سلوبودان وميرا ميلوتشيفيتش؛ وفي مكانهما كانت هناك ثقوب فاغرة.

وخلف تلك اللوحة مباشرة، على لوحة أخرى مليئة بالرمزية اليهودية كان هناك سائل أصفر والذي، بفضل تجربتي مع مماسح الأرجل أمام شقتي، أدركتُ أنه بول.

رأيتُ ياتشا ألكالاي وإسحق ليفي في الزاوية البعيدة مع مجموعة من الناس يتحدثون همسًا؛ فاتجهتُ نحوهم، سائرًا بحرص فوق الأنقاض.

رآني ياتشا وتقدم نحوي.

كان وجهه جزءًا من الفوضى المحيطة؛ لقد بدا كما لو أن الأمور لم تسر كما هو مخطط، فتم ترتيبها على عجل، وبلا مبالاة.

مددتُ يدي لأقدم له تعازيًا فأمسك بها كما لو كان على شفا هاوية.

وفي الوقت نفسه وصلت الشرطة، وخلقت المزيد من الفوضى.

باختصار، قبل ثلاث أو أربع أيام، أحضر ياتشا لوحاته ليتم عرضها في تلك الغرفة.

قال: بالطبع كان من المفترض أن يُقام المعرض بالأسفل، في المتحف، ولكن حيث إن المساحة هناك محدودة، تم الاتفاق على أنه خلال عطلة نهاية الأسبوع الأول من مايو سيتركون كل شيء في الغرفة، وفي يوم الإثنين التالي يتم عمل جميع الاستعدادات الخاصة بالافتتاح.

في تلك الليلة، صعد بعض الأشخاص جانب الفناء، وليس هناك سبيل لمعرفة عددهم، وحطموا النوافذ، ودخلوا، وفعلوا ذلك.

وأشار حوله، بل إنه حتى تنحّى جانبًا حتى أحصل على رؤية أفضل.

سألته بلا داع: ولكن لماذا؟

أجاب ياتشا: إنهم لم يدمروا كل شيء، ربما لم يكن لديهم وقت كاف، أو لأنهم لم يكونوا مهتمين بلوحات معينة.

ثم تابع قائلاً: سننتظر حتى تنتهي الشرطة من تحقيقاتها، ثم

obeikandi.com

سنقرر ما الذي سيمكن عرضه؟

سألته: ألن يكون من الأفضل إلغاء المعرض؟

نظر إليّ ياتشا نظرة غاضب وسألني: لمَ الإلغاء؟ كل شيء جاهز، لقد أرسلت الدعوات، وطبع الكتالوج، وانتاب الناس الفضول؛ الإلغاء الآن سيعني: الاعتراف بأن من فعلوا هذا قد نجحوا فيما خططوا له.

تطلعتُ حولي، وحككتُ رأسي.

سألني بعد أن هدأ الغضب الظاهر في عيونه: عما إذا كنتُ أعتقد أن الإلغاء يعني الاعتراف بالهزيمة أم لا؟

فأجبتُ: نعم.

نظر إليّ ياتشا مرة أخرى، ولكن هذه المرة دون أي أثر للغضب، وحثني على العودة إلى المنزل قائلاً: سيستغرق هذا وقتا طويلاً.

ثم أضاف: لديك في المنزل عمل يتعين عليك القيام به.

اعترضتُ قائلاً: ماذا؟ ليس لدي شيء.

فقال ياتشا: مقال "الدقيقة".

ثم التفت وغادر.

غادرتُ أيضًا.

نزلتُ الدرج، متجنبًا الناس والشرطة.

كان المصعد معلقًا بين الطابقين الأول والثاني.

أعتقد أنهم كان عليهم سحب شخص ما من داخله.

ظننتُ أنني سمعتُ مواء قطة، ولكني لم أستطع تحديد مكانه.

كان هناك العديد من رجال الشرطة أمام المبنى، كما كانت سيارة شرطة متوقفة عند الفندق عبر الشارع؛ توقّف المارة ونظروا نحو السقف، كما لو كانوا يتوقعون أن يقفز شخص ما من هناك.

أكره يوم الإثنين.

مشيتُ إلى الحديقة الموجودة في ميدان الطلاب؛ حيث كنتُ سكرانًا ذات مرة، لدرجة أنني تعثرتُ في أحد المقاعد.

كان المقعد لا يزال هناك، رغم أنه قد لا يكون نفس المقعد؛ كانت هناك فتاتان تجلسان عليه، وعندما مررتُ من أمامهما وضعت كل منهما رجلاً فوق الأخرى، كما لو كنتُ أمرتهما بذلك.

ذكرني ذلك باللمعان المبهر لفخذ مارجريتا.

كان اللمعان زاهيًا في ذاكرتي لدرجة أنه كان يتعين عليّ إغلاق عيني والتوقف.

وعندما فتحتهما، لم تكن الفتيات هناك، ولكني اعتدتُ بالفعل على تلاشي الأشياء؛ فلم يعد هناك شيئًا من شأنه أن يفاجئني.

كان ذلك أيضًا بداية مقالي لـ"لدقيقة"، فكتبتُ: لقد فكرتُ في الآونة الأخيرة أن شيئًا لن يفاجئني بعد الآن.

نعيش في زمن اتسع فيه نطاق كل ما هو منافٍ للعقل، وغير منطقي بصورة مثيرة للسخرية، والذي أصبح فيه تقليد الواقع أكثر واقعية من الواقع نفسه.

ناهيك عن الحياة.

إنه ليس تقليدًا أو محاكاة أو ارتجال، إنه لا شيء.

نعيش في بلدة لا وجود لها، تتألف من انعكاسات مكسورة في لعبة الضوء والظلام، وبالتالي فلا وجود لنا، أو بالأحرى نحن موجودون فقط

كظلال على الجدار، بلا مادة أو مدة.

والجدار زلق للغاية؛ فلا يمكن للظلال أن تحتفظ بتوازنها عليه لفترة طويلة، فتنزلق قبل أن تصعد.

نعم، قد يقول البعض: إن الحياة دون دعم ليست حياة، وسيوافق الكثيرون على ذلك، ولكن ماذا عن تلك الظلال التي تنزلق من على الجدار؟ أيجب حرمانها ولو للحظة من التشبث اليائس بالسطح الزلق؟ أيجب حرمانها من أمل الالتصاق المتقطع والذي قد يؤخر حتمية سقوطها؟ لا حاجة إلى استخدام الألفاظ المجردة في ذلك المقال؛ فللأشياء أسماء، وهذه الأسماء يجب أن تُقال بوضوح ودقة، وخصوصًا اليوم، في بلدة أصبح فيها الوضوح فئة سلبية.

من يوم لآخر نشهد، على جميع مستويات المجتمع، وبصفة خاصة في الحكومة والكنيسة، لا مبالاة تجاه ازدياد التعصب العرقي؛ فعادة ما يتجه غير المبالين إلى مسار العمل المعاكس إلى عرقلة أي محاولة لإنهاء التعصب.

هناك حشود من الشباب بقصّات شعر متماثلة على رؤوس مربعة تهاجم الغجر واليهود، مع توبيخ كل أولئك الذين يفكرون بطريقة مختلفة، وخاصة إذا كانوا من يفكرون بطريقة مختلفة هم الصرب أنفسهم، الذين يدعون طوال الوقت أنهم يفعلون ذلك من أجل مصلحة الحكومة، مستدعين بذلك دعم الكنيسة.

الكنيسة صامتة، الحكومة صامتة، ونحن جميعًا صامتون.

أليس الصمت علامة على الرضا؟ أم هل أقول شيئًا خاطئًا؟ هل يعني صمت الكنيسة أنهم يعترفون بين صفوفهم بتيار مرن معادٍ للسامية؟ وهل المستعد لتحمل المسؤولية كاملة في التراتبية الكُنسية الجديدة؟ هل يعني صمت الحكومة أن زيادة معدل معاداة السامية قد أصبح في متناول اليدين، كما ينسبون إلى «المؤامرة اليهودية في جميع أنحاء

العالم» كل ما يحدث في هذه البلدة، كوسيلة لرفع مسئولية القرارات السياسية المتسرعة والاستفزازات من على عاتق القوى العالمية؟ في الليلة الماضية حاولت كتيبة من المفكرين المعارضين المتشددين تدمير أعمال الرسام الذي تعتبر خطيئته الوحيدة هو أن وُلد يهوديًّا.

أعتقد أن غدًا سيحرقون كتب دانيلو كيتشو، وإسحق ساموكوفليا، وستانيسلاف فينافير.

وبعد غد سيعلن شخص ما أن جميع اليهود هم عبارة عن طفيليات، تمتص دماء الشعب الصربي.

ومن يدري، بحلول نهاية الأسبوع، قد تكون هناك نداءات لارتداء السوارات الصفراء، وتبدأ القوائم في الظهور، وتكون هناك هجمات على الشقق، ومصادرة للممتلكات الملكية...

وفي النهاية، سيقول صوت مرتجف: إن التاريخ يعيد نفسه، وإن لدينا سببًا للقلق، ولكن بحلول ذلك الوقت سيكون الأوان قد فات؛ لأن التاريخ بدأ يعيد نفسه في اللحظة التي لم ينطق فيها أحدنا بكلمة.

توقفتُ هنا؛ فلقد خطر لي أنني يجب أن أخصص جزءًا من المقال لافتتاح المعرض.

قدمتُ مقالاتي التي تنشر يوم الأربعاء في عمودي في "الدقيقة"، مما ترك لي الكثير من الوقت.

أعرف النهاية بالفعل، وكل ما تبقى هو الكتابة.

اقتربت اللحظة الأخيرة، ستكون هي الكلمات في بداية الفقرة الأخيرة، وبالنسبة لنا ستكون لفهم أن هؤلاء الذين يقدمون أنفسهم كأوصياء عظام على هذه البلدة، والذين أثاروا الهجمات على الأقليات العرقية، قد تسببوا في أكبر دمار للبلد.

إن هؤلاء الذين يعتبرون أنفسهم رعاة لهذا البلد، هم أنفسهم

الذين يجلبون الاعتداءات التي تعتمد على الأقليات العرقية، مما يتسبب في أضرار مهولة لهذا البلد.

وللأسف، لقد تم تآكل النظام بأكمله من الحكومة بسبب الفساد الأخلاقي والسياسي، ولم يشعر أحد بذلك أو حتى وُجد من يحاول إدانة هذه الأحداث، أو حتى التعليق على ما أكتبه.

ومن يدري، ربما يكونوا خائفين؛ لأن العلاقة بين الجريمة المنظمة والسلطات السياسية أصبحت واضحة؛ فلو كان لنا رد فعل، وانضم إلينا مئات الآلاف من الناس للاحتجاج والتعبير عن الرأي لكان هناك القليل من الخوف.

وهكذا في أي شيء بلا خجل.

إنني لم أقل شيئًا جديدًا، ولكن إذا كانت فترة الإصلاح المسندة إلى المسئولين لم تكن دقيقة لانتهى بي الأمر إلى التواطؤ مع المتهمين الذين كثيرًا ما نددت بهم، وكل ما يتبقى لي هو: أن أقرر ما هو الاسم الذي سأطلقه على كل من السياسيين، المجرمين، المثقفين، والمراوغين؟

إنني لم أقل شيئًا جديدًا، ولكن الأوهام الغامضة المتداولة في مقهى الحجج في مثل هذه الأحوال تؤدي إلى الصبر، وافتراض حسن النية.

لم تكن مفاجأة عندما حلمت بأحلام غريبة في هذه الليلة، مثل حلمي عن مغامرة جنسية مع المرأة ذات الشعر الأحمر والتي تسمى هيلدا.

وأيضاً حلمي عن صفعة الرجل الغامض للمرأة.

نهضت من السرير بحذر شديد، كما لو أن قدمي وُضعت في مياه ممتزجة بالدماء.

وشعرت بأن شيئًا ما يتحرك بداخلي دون أن يلتصق بجلدي.

obeikandi.com

كأنه شكل من الأشكال التي نقشت على الورق؛ حيث يتطابق كل شكل مع الشكل الأصغر منه حتى يتلاشى أصغر شكل بهم، والذي لا يمكن لأحد ملاحظته.

وبالطبع، لم أقصد من انشغالي بهذا الموضوع تسلية نفسي؛ حيث إنني توقفت عن الكتابة منذ فترة طويلة؛ فلا يوجد شيء أكثر مللاً من القصة الكئيبة التي لا تعني شيئاً، والتي تأخذك من اتجاه رئيسي لاتجاه فرعي آخر، ونجد أنفسنا فقدنا ما نريد إلى الأبد، ثم نعود مرة أخرى إلى حيث بدأنا دون فائدة؛ فنحن لا نستطيع أن نبتعد بأنفسنا عن الكآبة، ولكن نستطيع على الأقل تنفس الهواء النقي للحظات.

كان يومي يمر ببطء، تناولت إفطاري، واشتريت الصحيفة، وقرأتها بعناية، ولم أجد أي كلمة أو خبر عن حادث السطو على الجماعة اليهودية، ولم أقم بتجاهل الجريدة؛ لتشغيل التلفاز؛ فقنوات التلفاز لم تعرض أي شيء - أيضًا - باستثناء البرامج المستقلة النادرة التي تبث الأخبار خارج النظام، ولكنني لا أستطع حتى مشاهدة هذه البرامج بسبب التغطية الهوائية.

وقد اقترح علي ماركو أن استخدم أنتين بدائي؛ لتحسين الاستقبال، وذلك باستخدام حوض غسيل، ومظلة يتم وضعهما في الشرفة.

وقد رفضت بعناد، والآن أسأل نفسي: لماذا رفضت؟

أحيانًا نرفض مساعدة الآخرين لنا، بحجة أننا نستطيع حماية أنفسنا؛ فأنا أعرف الآن إنها الغيرة، بدلاً من الدفاع عن الفكرة؛ فالغيرة تظهر عند معرفتنا أن شخصًا ما يستطيع عمل شيء؛ فنحن لا نفكر في كيفية قيام هذا الشخص بعمل هذا الشيء، رغم أن هذا الشخص يوضح لنا أشياء لم نستطع فعلها بأنفسنا.

إن الفكرة معقدة، ولكن لماذا يجب أن يكون كل شيء بسيطًا؟

لَم يعدنا أحد بأننا عندما نصل إلى هذا العالم سنجد أن الحياة

بسيطة؟ أو أن العالم مفهوم أو الأحلام واضحة؟ أو حتى الموت به رحمة؟ فنحن في هذا العالم نحصل فقط على نقطة البداية، ولا يوجد أي توجيهات لما بعد ذلك، حتى نصل إلى نهاية الطريق.

على أية حال، كل الأشياء تلتمس طريقها في الظلام رغم إبصار العين، وكأنها تسير على حبل مشدود مما يؤدي إلى الانزلاق؛ كالانزلاق من على درابزين سلم، ولا يتبق في النهاية سوى الألم.

وهذه الجملة تتشابه مع جملة فاولكنر التي أجد فيها الارتياح، وهي: "إن الألم هو الدواء"، وهذا ما قصدت أن أقوله.

بعد ذلك قمت بإعداد شربة دجاج، وقد استخدمت فيها القليل من الماء؛ لأنني أفضلها دسمة، وتناولت معها قطعة جبن؛ لأنني أحبها جدًّا.

وبعد الغداء، وضعت الأطباق في الغسالة لغسلها.

وكنت أشعر بالنعاس لكنني قاومت هذا النعاس، والضعف الذي أشعر به في جسدي، حتى أقوم بترتيب بعض الأوراق على مكتبي؛ فخلال الأسابيع القليلة الماضية بعدت عن متابعة جميع الأحداث غير المتوقعة، وأهملت كل أوراقي وملفاتي، والآن أحاول إيجاد بعض المقالات التي قمت بقصها سابقًا من الصحف والرسائل والمذكرات.

وكان الشيء الوحيد الذي لم ألمسه هو مخطوطة «البئر»؛ فلم يكن هناك ملف كبير لاحتوائها، وكنت أخشى تحريكها حتى لا تتحول إلى غبار ورمال، وتتحول كأنها كتاب حقيقي من الرمال.

وذلك جعلني أفكر في تلك الزاوية السحرية الموجودة في ساحة مبنى بشارع «زماج جوفينا»، وهل فكرت في عبوره من قبل للوصول إلى العالم الآخر؟ لا أستطيع أن أتذكر.

على أية حال، كنت أفكر في ذلك، وكيف يمكن أن يكون هناك

وسيلة للانتقال إلى واقع آخر؛ فأنا فقط محتاج لهذه الوسيلة بشرط ألا أنسَ كيف أعود مرة أخرى.

لا أريد البقاء هناك، أو أن أنتمي لذلك العالم، رغم أنني أتصور الكثير من العوالم التي لا أريد العودة منها؛ فمن العوالم التي أتصورها: عالم به الكثير من النساء شبه العاريات، والعالم الثاني: لا يوجد به أحد غيري، أما العالم الثالث: لا يوجد به غير روحي.

بعد ذلك نظرت إلى ساعتي، فوجدت أن المساء قد أقبل، وقد حان الوقت للذهاب لحضور افتتاح معرض "جاسا الكلاج"، فذهبت مسرعًا إلى الحمام لتمشيط شعري، ولأتأكد أنني لا أحتاج لحلاقة، ثم وضعت القليل من المنظف على وجهي، وقمت بغسله، وغسل يدي، وأخذت الجاكت المعلق أسفل المعطف، ومشيت إلى محطة الأتوبيس.

وأثناء سيري رأيت سيارتين للشرطة بالقرب من مركز الجالية اليهودية؛ أحدهما تقف أمام مدخل الفندق، والأخرى بعدها بمسافة قصيرة بجانب رصيف أمام محل بقالة، وكانت الشرطة بالمدخل المؤدي إلى فناء المبنى.

ورأيت - أيضًا - حشودًا كثيرةً من الناس كانت متواجدة في نفس المكان، لدرجة إنني بعد عدة خطوات اضطررت للتوقف؛ لأنني لا أستطيع التحرك.

وأثناء هذا التزاحم بين تلك الحشود كل ما استطعت فعله هو السماح لها بدفعي خطوة خطوة حتى استطعت صعود السلم.

وأخيرًا عندما وصلت إلى المتحف كنت أتصبب عرقًا.

وداخل المتحف، وتحت أضواء التلفاز، كان الجو شديد الدفء؛ فلم أندهش لرؤية برك من العرق.

وبطريقة ما وسط كل ذلك تمكنت من الوصول إلى الجزء الخلفي

من الغرفة حيث كان يقف جاسا الكلاج، وقد تغيرت ملامح وجهه كثيرًا، وكأنني أريد أن أتعرف عليه.

وكان الرجل الواقف بجانبه قد انتهى من خطابه، وقد ملأ صوت التصفيق كل أرجاء الغرفة.

وتبعه الناقد، الذي تحدث بالقليل من الجمل التي تعبر عن تقييمه لأعمال جاسا الكلاج بأكملها، فقد قيم عدة لوحات زيتية جديدة، وبعد ذلك قام برفع قطعة من الورق الأبيض، مما جعلني أعتقد كأنها علم الاستسلام.

وما قاله الناقد كان قد أعده مسبقًا لهذه المناسبة، ولكن الأحداث الجديدة لم تترك له أي خيار سوى أن يمزق الورقة إلى نصفين.

وكنت في تلك اللحظة أرى الورقة وهي تطير في الهواء، ثم وجه الناقد حديثه للحاضرين قائلاً: إنكم عندما تلقوا نظرة على هذه اللوحات الزيتية المعلقة هنا ستلاحظون أن بعضها قد تعرض للتخريب، ومحاولات السرقة عن طريق قوى الظلام «الفوضويون»، في محاولة لسرقة أضوائها؛ اعتقادًا منهم أنهم بذلك يقضون على الروح الإبداعية، وذلك يدل على سطحيتهم؛ لأنهم يعتقدون أن الخوف أبو الطاعة، وهذا اعتقاد خاطىء، ويدل على أنهم لم يطلعوا على التاريخ من قبل.

وأكمل الناقد كلامه قائلاً: إن الاعتقاد للتظاهر ضد السلطة قد تميز بهذه الاعتداءات الجديدة التي تهدف إلى الروح التي بيننا، وهم الآن يرسلون نفس الرسالة ولكن بصوت أعلى، وأكثر جرأة، وبصورة أكثر حسمًا للجميع؛ حتى يُسمع صوتهم، وطبقًا للتاريخ، ففي كثير من الأحيان سُرقت الكتب، ودُمر الكثير من الأعمال الفنية، ولكن الفن في كل مرة كان يرتفع عن ألسنة اللهب، ويعود لمكانته مرة أخرى، وسيساعد افتتاح هذا المعرض على تخفيف الظلام الذي يحاول إخفاء الفن، وأيضًا من خلال مساعدة كل منا للآخر.

وأثناء هذه اللحظة ازداد التصفيق، وكنت أشعر بازدياد العرق على جبيني.

ثم بدأ الناس في التجول بالمعرض لمشاهدة اللوحات، والمصورون يحاصرون جاسا الكلاج، وأثناء ذلك قالت سيدة: إنها لم تستطع تنفس هواءً نقيًا، وأصبحت الأصوات تزداد ارتفاعًا، ويزداد الهرج والمرج، وبدأت الوجوه البراقة والشخصيات المشهورة في الظهور، شخصية تلو الأخرى؛ كالممثلين، والكتاب اليهود، والسياسيين.

وفجأة صاح رجل يرتدي قميصًا مطوي الأكمام، إنه يوجد ضغط كبير على ذراعه من شدة الازدحام، وهو رجل ضعيف؛ فأسرع إليه شخص، وساعده برفق، وقام بتسوية الكم على ذراعه، ولكن الرجل بدأ ينتحب، وكان يتلفظ بكلمات مختلطة بالتنهدات حتى سكت فجأة، وبدأ الناس يتفرقون، وساد الصمت المكان.

ثم بدأ الصحفيون في الخروج، وأطفئت الأضواء.

وعندما اتسع المكان بدأ النوادل في الظهور، يحملون الصواني المحملة بالأكواب؛ بعضها مملوء بالخمر، والبعض الآخر بعصير التفاح.

وبدأ الإحساس بالقليل من الهواء يسود المكان، وكان عدد من الناس يستخدمون النشرات المطوية للتهوية.

أما بالنسبة للحشود، فالحشد الوحيد المتبقي كان ملتفًّا حول جاسا الكلاج، ولكنني كنت صبورًا، وانتظرت.

وأثناء ذلك شاهدت مارجريتا، كانت واقفة أمام لوحة، ورافعة رقبتها حتى تستطيع مشاهدة بعض التفاصيل الدقيقة، ثم تراجعت خطوة للخلف؛ لتقترب من الجانب الآخر للوحة.

وفي تلك اللحظة كنت أود أن أصل إلى جاسا الكلاج لكنني - في نفس الوقت - أود أن أذهب لـ مارجريتا، ومشيت في الاتجاه الآخر؛

حيث يوجد جاسا الكلاج، وقد بدى وجهه مجعدًا كالنهر الذي جفت مياهه، وعيناه حمراوتان، وشفتاه لونها أزرق، وتجاعيد جفونه ظاهرة بشكل ملحوظ، حتى إن شعره كان ملتصقًا ببعضه من كثرة العرق، وكان يقول: إنه يتنفس بصعوبة، كأنه يقاتل للحصول على كل نسمة هواء.

وقد حاولت أن أهنئه على المعرض لكنه لم يعطني الفرصة، ولوح بيديه، وقال: إن هذا إنجاز عظيم، ولا شيء أكثر من ذلك، فلا جدوى من إضاعة الوقت في الكلمات.

وأثناء وجودي بالمعرض سألت جاسا الكلاج إذا كانت الشرطة حضرت لأي سبب.

فأجابني: لماذا تسأل؟

فقلت: لا شيء؛ فبعض الأسئلة أحيانًا لا نجد لها إجابات.

وعندما اقتربت سيدتان مسنتان منه قال لي: يجب أن تأتي إلى الاستوديو الخاص بي لاحقًا؛ حتى نحتفل سويّا بهذه المناسبة.

فأجبته: حسنًا.

وأنا أجفف بأصابعي العرق الموجود فوق شفتاي.

وبعد أن ابتعدت عن جاسا، لم يكن لدي أي أمل في أن أرى مارجريتا مرة أخرى، ولكنها؛ كانت ما تزال واقفة أمام نفس اللوحة، وتشرب كوبًا من العصير؛ فتقدمت ووقفت بجانبها، ووجدت أن اللوحة التي كانت تشاهدها معظمها باللون الأسود، وكان الجزء الأيمن العلوي من هذه اللوحة شكل لنافذة يدخل منها ضوء، وكأنه شعاع يرسم سحابة في السماء، وفي وسط اللوحة يوجد شكل مجعَّد على هيئة عين بشرية تشتعل بها النار حتى وصلت إلى الجفن، وكانت الومضات تندفع كأضواء الشموع المنبعثة من شمعدان.

فتحدثت مارجريتا، وكأنها تنظر إلي قائلة: إذا حُرقت عين الله فسينتهي كل شيء.

ما فائدة إله كفيف؟ فهو لا يستطيع أن يرى.

فأجبتها: إنه يرى من خلال عيون داخلية بقلبه؛ فهو يعرف كل شيء.

فقالت: لا يوجد أحد مثالي، ولا حتى الله.

فقد كانت جملتها غامضة؛ فلم يكن لدي معرفة كاملة عن الكابالا، لكي أقول إنهم يشكّون في الله، ولكن البوذيين لم يصفوا بوذًا بأنه كان ضعيفًا؛ فهو يقدر على أي شيء، وبعبارة أخرى، لا بد أن يكون مثاليًا؛ فهو يرغب في أن يكون كل شيء، ولا يرغب في أن يكون جزءًا من الأشياء؛ فالله إما أن يكون كل شيء أو لا، وليس هناك أي احتمال ثالث.

بعد ذلك نظرت إلى اللوحة، وبدأت أحدق في العين المحترقة، وكان التفكير المسيطر عليّ في هذه اللحظة هو: التفكير في الألم الناتج عن الحرق.

فسألتني مارجريتا، ما الذي كان يفكر فيه الرسام عندما رسم هذه اللوحة؟

فأجبتها: نستطيع أن نسأله.

فقالت: سنسأله لاحقًا، لا تتعجل.

وعندما انتهت من شرب العصير نظرت إليّ، وقالت: كنت تنظر إلى الرسام بين الحين والآخر، أليس كذلك؟

قلت: نعم، وأنتِ أيضًا؟

فأومأت.

obeikandl.com

فقلت لها: إننا لم نكن نعرف بعضنا من قبل، وكان بصوتي شيء من الحرص، لم يكن مسموعًا.

فأجابتني: أنت لم تطلب ذلك؟ فجاسا الكلاج والدي.

فهناك بعض المواقف تعتمد على الكلمات والمفاهيم أحيانًا، التي توضح لنا المعنى الحقيقي الذي لم نعرفه من سنوات؛ فهناك في المتحف التاريخي اليهودي يوجد في مقدمة اللوحات، لوحة لجاسا الكلاج تسمى «النار»، وهي مدرجة بالنشرة المصورة التي أحضرتها معي، رغم وجود الكثير من الأشياء الهامة التي يجب أن تحتويها حقيبتي المتواضعة؛ فأنا الآن فهمت عبارة «الخروج من الزرقاء».

وللحظة كنت لا أستطيع الإحساس بقدمي، وكأنني أقف على ركبتي مباشرة؛ فشفتاي ترتعدان، وشعرت كأن كهرباء تسري بجسدي، وفجأة انتهى هذا الإحساس؛ فنظرت إلى مارجريتا، وقد رأيت في وجهها ملامح جاسا، ولم أكن ألاحظ ذلك من قبل؛ فنحن في الكثير من الأحيان لم نلاحظ الأشياء البسطية واضحة إلى أن ينبهنا إليها أحد؛ فمنذ لحظة بسيطة قالت لي مارجريتا أن جاسا الكلاج والدها ولكنني لم ألاحظ هذا التشابه؛ فلديها رعشة خفيفة في شفتيها تظهر عندما تتحدث، وأيضًا الرجفة الموجودة في صوتها.

ومن يدري، ما الذي تلاحظه هي في وجهي؛ فقد أخبرتني أنها ستفاجئني، رغم أنها تتوقع إنه ربما لا يكون كلامها مفاجأة بالنسبة لي.

وفي تلك اللحظة، شعرت بجفاف في شفتاي وفمي، وكأنني محتاج لورقة صنفرة؛ فطلبت من مارجريتا الانتظار، وذهبت إلى غرفة حيث توجد سيدة ترتدي نظارة ذي إطار أزرق، وكانت تصب العصير والمياه الغازية في الأكواب، وتضعهم في صينية.

فتناولت بعض العصير والمياه، ثم عدت إلى مارجريتا التي كانت في انتظاري.

على الرغم من أن هذه هي المرة الثانية التي لم أتوقع فيها أن أجدها.

فاقترحت عليّ أن نغادر المكان؛ فهي تشعر باختناق، ولم تعد قادرة على التنفس؛ فنسبة الأكسجين قليلة، وإنها لم تكن مندهشة إذا التهمت النار لوحات والدها.

فقد كانت هذه الكلمات غريبة - بالنسبة لي - ولكنها صحيحة، سأتأكد من ذلك في وقت لاحق بمساعدة معارفي من الذين يقومون بالتسجيل في دفاتر المواليد، فإنني ينتابني الشك والتفكير دائمًا في كل شيء لفترة طويلة.

وعلى ما يبدو أنني لم أعترف بذلك لنفسي، ولا أدري لماذا أقاوم حقيقة أن يكون للشخص والد آخر؟ وهذا سؤال آخر لم أستطع الإجابة عليه؛ فلو خضع كل شيء للأسئلة، ووجدنا الإجابة عليها لكنت توقفت عن التفكير في الطريقة التي يتبعها اليهود، وهي إجابة السؤال بسؤال آخر؛ لأن ذلك لا يعني أن السؤال الثاني إجابة للسؤال الأول؛ فأنا لست يهوديًّا، ولا أدعي ذلك، لكنني فقط أردت توضيح أن بعض الناس يستخدمون هذه الطريقة كإجابة أو مدخل للإجابة، في حين أن آخرين - ومنهم أنا - يحولون الموضوع إلى سؤال، كما قال ماركو؛ فهؤلاء الذين يتهربون من الإجابة يكون لديهم الرغبة في جذب الآخرين للاستماع إليهم، أو لقراءة ما يكتبونه، فهم يطرحون الأسئلة كإجابات، والباقي متروك لك أو لها إذا كان القارىء أو المستمع امرأة.

وغالبًا ما ستكون امرأة، طبقًا للإحصائيات الأخيرة التي أوضحت أن نسبة القراءة مرتفعة بين النساء عنها بين الرجال.

وبالتالي يقول الخبراء: إن التزايد في عدد الكتب الأسرية المليئة بوصفات الطهي وغيرها يدل على انتشار الفلسفات الشرقية.

فإذا أردت أن أعرض وصفة للطهي فلن أستطع ذلك، لأنني لم أكن

أجيد الطهي، ولأنني لم أكن على دراية بالفلسفة الشرقية كالكثيرين، ولم يسبق لي أن وجهت لهم أي إساءة في رواية أو قصة قصيرة؛ فقد عرفت منذ فترة طويلة أنه من الأفضل أن أشغل نفسي بأي شيء آخر بعيدًا عن الكتابة إذا كان قلبك يوافقك على ما تفعله، أنا لم أتذكر من قال هذا ولكنها حقيقة.

إنني أعلم أنه من الحقيقي أن العديد من مشاعر القلب من اختصاص متخصصي القلب، وليس الكتاب، ولكن من الحكمة أن أقول: إن كلاً منا يشعر بقلبه، ولكن بطريقته الخاصة، وكل منا يجب أن يتقبل المواقف التي تواجهه، ويتعامل معها دون التعدي على حدود الآخرين.

هذا رأيي ككاتب وليس متخصصًا في القلب، ولا أريد أن أتجاوز هذا الحد.

ورغم كل ذلك لم أستطع حتى تحديد من هو الكاتب الحقيقي؟

وعلى أية حال، فإنني أشعر أنني فقدت نصف طريقي، ولا بد من نصيحة ماركو، ولكنه ليس معي؛ فحاولت الاتصال به مرارًا دون جدوى، فقررت الذهاب إلى شقته ولكن لم يفتح لي أحد.

وفي صباح أحد الأيام، علمت أنه غادر البلاد مثل الكثير من الناس، ولكنني لم أكن أصدّق أنه غادر دون أن يودعني بعد كل هذه السنوات التي قضيناها معًا.

من يدري ربما كان من الأفضل له أن يغادر بهذه الطريقة خلسة أثناء الليل، كالمجرم ودون كلمة وداع واحدة.

وحتى إذا لم يوجد سبب لذلك؛ فلا أحد يستطيع أن يلومه.

وقد كانت هذه الطريقة هي نفس الطريقة التي اتبعتها أنا ومارجريتا أثناء مغادرتنا للمعرض، أعني: الرحيل دون وداع.

وفي ذلك الوقت كانت سيارة الشرطة ما تزال واقفة أمام الفندق، أما السيارة الأخرى فقد غادرت.

وشاهدت عددًا من ضباط الشرطة، وكانت أحدهم سيدة، رأيتها تتحدث وتدخن في ساحة الفندق.

ويوجد بندقيتان على طاولة صغيرة بالمدخل، مع ظهور وميض خفيف ينبعث من بئر السلم؛ فذهبت أنا ومارجريتا إلى الشارع المتجه «لميدان الطلبة»، وكان الهواء بالشارع لم يختلف عن الهواء الموجود بالمتحف، ولكنه كان منعشًا بدرجة قليلة.

وأثناء المناقشة مع مارجريتا، شعرت كأنني ضُربت بصاعقة، ولا أستطيع الانتظار.

كنا بالقرب من استوديو جاسا الكلاج، ولم يكن هناك حشود كثيرة مثل التي وُجدت في الافتتاح، ومع ذلك كانت الضوضاء صاخبة، مما جعل أي محادثة مستحيلة، وانحصرت كل الأحاديث على بعض الكلمات التي تقال بصوت عالٍ بالقرب من الأذن.

وفي ذلك الوقت أبلغني إسحق ليفي أن الشرطة تمكنت من القبض على الأفراد الذين اقتحموا مبنى مركز الجالية اليهودية، وأيضًا خربوا لوحات جاسا الكلاج؛ فقد تم القبض على ثلاثة أفراد قصر، وشاب في عمر العشرين.

وعندما كان يقول لي ذلك بصوت عالٍ تطايرت قطرات من اللعاب على منحنيات أذني.

وأثناء ذلك رأيت جاكوف سفارك يتقدم إلينا مما جعلني أسأل مارجريتا: أين ستذهب؟ أو أين تقيم؟

وأثناء حديثي معها وضعت يدي بيني وبينها؛ حتى لا يتطاير اللعاب، وانحنيت باتجاهها.

كان الشعر المحيط بأذنها رطب، ومن بين خصلاته تستطيع أن ترى بياض بشرتها.

كل ما استطعت فعله هو إبعاد شفتاي عن ذلك البياض، وتحريك لساني فقط عبر تقويس أذنها.

وكانت تشير برأسها، وبعدها اتجهت للخروج، بينما أنا كنت أنظف أذني من آثار شفتيها أثناء حديثها معي.

وقد استغرق الخروج وقتًا، والناس يحاولون تحيتها، ووميض إطلاق النار يحيط بي.

ثم بدأت أخطو خطوات متتالية وأنا ابتسم.

في النهاية، حاولنا العثور على جاسا الكلاج، وأثناء هذه المحاولة وصلنا إلى الباب الأمامي، كان البعض من الناس يقفون أمام الباب، والبعض الآخر يجلسون على السلم، لدرجة أن الوصول إلى المصعد يحتاج إلى القفز على اليدين والقدمين، وبعد الوصل إليه ضغط على زر التشغيل حتى وصل إلينا فدخلنا، وأغلقنا الباب المعدني، وبدأنا في الهبوط.

وعندما توقف المصعد كان الظلام سائدًا، ومن خلال الضوء الخافت لاحظنا من وراء الباب الزجاجي هيئة خيال، لم أستطع تهدئة مارجريتا، وخرجنا من المصعد، ودفعنا الباب بقوة لإغلاقه.

كان الظلام يزداد كثافة، ومارجريتا أوشكت على ألا تستطيع التنفس، أما أنا فنبضات قلبي كانت سريعة جدًّا، ولم يكن لهذا الخيال أي مقاومة؛ حيث اتضح بعد ذلك إنه أحد معارف جاسا الكلاج، كان ينتظر سيارة، عرفنا ذلك عندما سمعناه يطلب من السائق أن ينقله إلى «بلغراد الجديدة».

وعند رؤيتنا عرض علينا أن نركب معه، إذا كان ذلك مناسبًا لنا،

وبلا تفكير وجدنا أنفسنا على الكرسي الخلفي للسيارة، في حين بدأ هذا الرجل محادثة مع السائق.

وعندما وصلنا إلى منتصف الطريق كان الاثنان قد قاما بتغطية كل المشاهد السياسية؛ من انتقاد للحكومة، وكبار السياسيين.

وقد اتفقا الاثنان على أن كل شيء أصبح مكلفًا بشكل ملحوظ؛ فمن المعجزات أن يجد الناس ما يأكلونه.

ثم انتقلا بعد ذلك للحديث عن الرياضة، وقيمة الدولار الأمريكي، وتحدثا - أيضًا - عن ظاهرة انتقال نصف الصربيين إلى كندا.

ثم بدأت أتوقف عن سماعي لهذه المحادثة، وركزت على إصبعي الصغير ليدي اليسرى، والذي يلمس فخذ مارجريتا؛ فلم أحرك إصبعي، ولا كنت أنوي ذلك؛ فأنا ببساطة كنت أتابع اندفاع السيارة.

كانت شوارع "بلغراد" مليئة بالشقوق والمطبَّات، وكانت السيارة تسير متخبطة ومتمايلة، ويضطر السائق لكبح الفرامل فجأة من حين لآخر؛ مما يجعل إصبعي يرتعد، ويتحرك، وأحيانًا يسترح على فخذ مارجريتا، التي كانت في حالة سكون، وعيناها مغمضتين.

وأثناء عبور السيارة طريق نهر «سافا»، تسللت يدي إلى أسفل فخذها، مما أدى إلى تحريك جفون عينيها، ومدت يدها اليمنى وألقتها في حضني، فنظرت في مرآة الرؤية الخلفية آملاً في أن يكون السائق ما زال مستمرًّا في محادثته، حتى لا يشعر بتحريك يد مارجريتا.

استرخت يدها في حضني، وكنت أتساءل: ماذا لو حركت يدي تحت فخذها؟ انحنت مارجريتا على ظهر المقعد، وبدأت أحرك يدي بخلسة على جسدها.

وكنت في هذه اللحظة أنظر بحذر إلى مرآة الرؤية الخلفية للسيارة.

وكانت المحادثة القائمة في المقعد الأمامي مستمرة بقوة؛ فكانا

يتناقشان التأخير في دفع المعاشات، والانخفاض الشديد في الرعاية الاجتماعية للمعوقين، والكثير من المنتفعين.

وبينما كان السائق يستشهد على حديثه بأمثلة تحركت مارجريتا، وبعدت يدي من على أردافها، ثم اعتدلت في المقعد.

وعندما قال السائق: إننا وصلنا تقريبًا استندت على ذراعي.

اتجهت السيارة باتجاه فندق "إنتركونتيننتال" ثم إلى فندق "الحياه"، بعد ذلك إلى تقاطع عدة شوارع في "بلغراد"؛ حيث يوجد الكثير من الممرات لدرجة إنني لم أستطع تحديد طريقي.

كنت معجبًا جدًّا بالتخطيط الهندسي للمباني، والشوارع التي تتميز بظهور الزوايا القائمة.

في الواقع هذه البساطة تُفقد عندما يتجول الشخص على الأقدام أو بالسيارة ليبحث عن رقم المنزل.

قالت مارجريتا: حسنًا هنا، فتوقف السائق، ونزلت أنا ومارجريتا بعد أن قدمنا له الشكر.

نظرت يمينًا ويسارًا، لم يكن لدي فكرة عن هذا المكان.

وقالت لي مارجريتا: إن «زيمون» تبعد عن هنا كما لو أنها مكان في السماء.

ولم أدرِ إذا كان ذلك تلميحًا منها لكي أغادر، أم إنها مجرد معلومة، أو توجيه من أي نوع ما، مثل معلومات عن النجم الشمالي أو الطحالب التي تنمو على الجذوع؛ فبمجرد أن تصل إلى "زيمون" ستكون قادرًا على معرفة أي شيء آخر.

من قال ذلك؟ فأنا لم استطع أن أفهم ذلك، رغم أنني - في كثير من الأحيان - أرى بعيني الداخلية.

وبالطبع هذه الكلمات أوضحت الصفحة أمامي، وهي مثلها مثل أي صفحة تؤخذ من آلاف الكتب، وكل ما يتبقى لي هو: الأمل في أن كل مرحلة من حياتي لها تفاصيل معينة.

هذا لم يغير شيئًا، ولكن لماذا ترتبط المعرفة دائمًا بالتغيير؟ على سبيل المثال يجب على المرأة أن يتعلم العشر مبادىء للإرادة الإلهية من الأكبر للأصغر مثل: التاج، التفاهم، الحكمة، الخطورة، اللطف، الجمال، العظمة، يسود، النصر، والملوكية.

وعليه أن يتذكرهم دائمًا على أنهم حقائق؛ حتى يسمو بروحه أعلى وأعلى.

ما زلت واقفًا بجانب مارجريتا مترددًا، وهي تمرر يدها في شعرها، ولم يمر جزء من الدقيقة إلا وكنت أكثر اطمئنانًا.

واتفقنا على اللقاء ثانية، وسلمت عليها، وقبلتها قبلة خفيفة على خدها، ثم ذهبت حيث يوجد "زيمون".

مشيت بعيدًا، وكنت فرحًا جدًّا، وبدأت في صفير لحن "البيتلز" القديم.

كان السير على الأقدام ليس شاقًّا، ولكن بالنسبة لغير معتادي السير على الأقدام عادة يكون شاقًّا؛ فالسير لعدة مئات من الأمتار شيئًا مُرهقًا.

على الأقل، فأنا أواسي نفسي بأنه لا يوجد شيء في المنزل ينتظرني، ولا يوجد أحد من الناس في انتظاري، فمشيت ومزاجي على هذا الحال الجيد بين الغناء والصفير.

بدأت بلحن لفريق "البيتلز"، ثم أغنية "الهيتس" لفريق «الروك»، بعدها أغاني «داف كلارك»، بعد ذلك تذكرت أغنية «نحن يجب أن نخرج من هذا المكان» لفريق «الأنيملز».

لم أكن أعرف الكلمات، وظللت أكرر نفس المقطع، حتى توقفت فجأة، وسمعت صوت المياه في نهر "الدانوب" التي تلمع كالكريستال، ومازال أمام مسافة للتنزه.

وفكرت في الخوف من أن أغادر هذا المكان يومًا ما، ولا أستطيع سماع صوت النهر لفترة طويلة، ثم عدت بعد ذلك إلى الصفير والغناء، مركزًّا على أغاني ماريان فيسفول.

وعندما وصلت إلى شقتي أقلعت حذائي، وشربت كوبين من المياه، وحاولت أن أسترح على مقعد أمام التلفاز، نظرت طويلاً في الشاشة المظلمة، ثم ذهبت إلى غرفة مكتبي، وقمت بتشغيل الكمبيوتر.

قرأت المقالة مرة ثانية، وقمت بعمل تعديلات بسيطة، وأضفت فقرة عن افتتاح المعرض، وعن الناقد الذي تعهد بالتضامن مع الفنانين للتغلب على أي اعتداءات على النص.

وربما يجب علينا جميعًا أن نتبع مثاله الذي يقول: "إننا نحطم الأشياء بأنفسنا بدلاً من أن يحطمها لنا الآخرون".

ومثل قصة الدنماركيين الذين أنقذوا اليهود أثناء الحرب العالمية الثانية، بارتدائهم شارات صفراء، لذلك ربما نستطيع إنقاذ اليهود وأنفسنا من خلال التضامن معهم؛ كضحايا للعنف جميعًا.

وحتى لو أردت أن أقول شيئًا أكثر من ذلك فلم أستطع؛ لأن المقالة ستكون أطول من اللازم، وإذا أردت طباعتها فعلي أن أستعد لمعركة مع المحرر في اليوم التالي.

فهو في البداية عندما رأى طولها قال: إنه لا يريد حتى أن ينظر إليها، وأمرني أن أختصرها، وبعد ذلك يمكن لنا أن نتحدث.

ففكرت في فيليكس لمحاولة إقناعه، ولكن كنت مترددًا، وبدلاً من

ذلك طلبت من المحرر أن يقرأها، وبعدها سألتزم بقراره.

وقد اتضح لي بعد ذلك أنني فعلت القرار الصحيح؛ لأن سكرتيرة المحرر أخبرتني بأن فيليكس اختفى، وتم تسجيله في عداد المتغيبين؛ لأنه لم يأتِ إلى المنزل منذ خمسة أيام.

وزعمت أنه كان دائمًا عنيدًا في الرد على استفسارتها.

جلست في مكتبها على مقعد بلاستيكي بينما كان المحرر بمكتبه يقرأ مقالتي.

لحظات وفُتح الباب، وتم استدعائي للدخول للمحرر، نظرت إلى السكرتيرة فأشارت لي، وببطء أغلقت الباب ورائي، كالذي يقول: وداعًا للعالم.

لم يعرض عليّ المحرر الجلوس؛ لذا بقيت واقفًا بجانب الباب ويدي على المقبض.

وقال لي: دعني أقول كلمة حق: المقالة جيدة.

عندما سمعت ذلك تنفست الصعداء، وتبسمت.

ثم أكمل كلامه، يجب أن تختصرها حتى تكون ملائمة لمساحة العمود.

وبالطبع عندما سمعت هذا الكلام اختفت الابتسامة من على وجهي.

وسألته: وماذا الآن؟ هل بإمكاني أن أشمّر أكمامي وأختصرها الآن؟

حك المحرر ذقنه، ومرر أصابعه خلال شعره، وقال: قصيرة أو طويلة، هذا أمر شديد الخطورة على قدم المساواة، وأنا لم أكن واثقًا من أنك تدرك مدى خطورة ذلك.

ونظر في وجهي دون أن يرمش بعينيه، وأنا كذلك.

وقال: لا أحد يقبل التسمية الصريحة للأشياء؛ لأن الموضة السائدة في هذه الأيام هي: إنه لا يمكن التنبؤ بردود الأفعال.

وسألني: عما إذا كنت وضعت كل هذه العناصر في اعتباري وأنا أكتب هذه المقالة.

فأجبته: لم أفكر في أي شيء سوى الحقيقة.

وشعرت أنني أعترف، وكأنني أحد أطراف النزاع في القضية، رغم أن كل ما أفعله ليس له أي علاقة سياسية أو عرقية، ولم أكن أتحدث عن سياسيين أو أي شخصيات عامة، ولم أكشف أي نوايا أو أسرار.

إنها ببساطة كانت للفت الانتباه عن الروح الجماعية، والتي يمكن تفسيرها من خلال التاريخ، والعزلة الطويلة للبلاد بعيدًا عن الاتجاه السائد في العالم، والذي أصبح يمثل تهديدًا كالأمراض المزمنة، وبالتالي، تكون غير قابلة للشفاء، وتكون مصدرًا لشيء محتمل أكثر سوءًا؛ فالكراهية مرض يحدث عندما يضطرب الأداء الطبيعي، والروح الجماعية لدى الفرد؛ فحتى تكره الآخرين تحتاج أولاً أن تكره نفسك، وتفقد ثقتك بقدرتك؛ فنحن لا نبحث عن الجاني داخلنا؛ حيث إن هذه هي الحقيقة، ولكننا نبحث عنه في شخص آخر، ولم يكن أي شخص، فيلزم أن يكون شخصًا واضحًا بدرجة كافية، والأهم أنه لا يستطيع الدفاع عن نفسه.

obeikandl.com